

نظرات في تاريخ مصر

بقلم
جمال بكديوي



رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

الاخراج الفنى : محمد قطب

الغلاف : إسامة سعيد

نظرات في تاريخ مصر

تأليف

جمال بدوي



المكتبة الحديثة المصرية المتسعة للكتاب

١٩٨٨

تقديم

على الرغم من اعتقادي بأن التساريخ لا يكتبه الا مؤرخون أكاديميون ، درسوا منهج البحث العلمى التاريخى ، وتعلموا التاريخ وفقا لمنهج علمى متخصص فى أقسام التاريخ بكليات الآداب بالجامعات - الا أن النصف الأخير من القرن العشرين قد أبرز الى عالم الدراسات التاريخية نخبة من الكتاب والمفكرين ، الذين لم يتخرجوا من أقسام التاريخ ، ولكنهم أثبتوا قدرتهم على الكتابة التاريخية المتعمقة ، بأسلوب شيق لا يتوفر لكثير من المؤرخين الأكاديميين .

وقد كان على رأس هؤلاء الدكتور محمد حسين هيكل ، الذى قدم الى جانب عمله الصحفى والسياسى كتبه الهامة فى التاريخ الاسلامى ، مثل حياة محمد ، والصدىق أبو بكر ، وعمر الفاروق ، وغيرها . وعباس محمود العقاد فى عبقرياته المشهورة وسفره الضخم عن سعد زغلول ، ومحمد زكى عبد القادر الذى كتب : «محنة الدستور فى مصر» ، وغالى شكرى ، الذى قدم عديدا من الدراسات التاريخية الهامة ، وابراهيم عامر ، الذى كتب «الأرض والفلاح» ، ورجاء النقاش الذى قدم «العقاد بين اليمين واليسار» وعبد الله امام الذى قدم دراسات هامة عن الاخوان المسلمين والحقبة الناصرية ، وعلى شلش ، الذى كتب عن «اليهودية والماسونية فى مصر» ، وصلاخ منتصر الذى قدم على صفحات الأهرام عديدا من الدراسات عن الفترة الناصرية ، وعادل حمودة الذى كتب عن «نهاية ثورة

يوليو » وغيرها ، ومحسن محمد الذى قدم عديدا من الدراسات التاريخية الجادة ، ومحمد حسنين هيكل الذى كتب عن « ملفات السويس » و « سنوات الغليان » ، وجمال سليم الذى كتب عن مذبحة مجلس الشعب ، ومحمد الطويل الذى كتب عن « برلمان الثورة » و « لعبة الأمم وعبد الناصر » - وغير هؤلاء كثيرون لا تحضرني أسماؤهم .

ومن بين هؤلاء الكتاب المؤرخين جمال بدوى ، مؤلف هذا الكتاب ، فهو صحفى وكاتب ومفكر ذو رؤية تاريخية سواء فى التاريخ المصرى أو التاريخ الإسلامى ، وقد سبق له أن قدم دراسة تاريخية هامة عن « الفتنة الطائفية فى مصر » ، كما أنه يقدم أسبوعيا على صفحات جريدة « الوفد » - وهو مدير تحريرها - رؤية تاريخية لحدث من الأحداث على اتساع مساحته تاريخ مصر والتاريخ الإسلامى ، وهى رؤية تشد اهتمام القراء لما فيها من فلسفة وفكر وتأمل ، فضلا عما تكشفه من جوانب هامة قد لا تستطيع عين المؤرخ تبين أهميتها فى تكوين الضمير القومى ، ولكن عين المفكر وحده هى التى تدرك هذه الأهمية ، وتستطيع توظيفها فى تكوين الشخصية القومية أو الوطنية .

ومن هنا أبرز الفروق بين ما يكتبه كاتب ومفكر مثل جمال بدوى وما يكتبه مؤرخ أكاديمى ، ففكرة توظيف الحدث التاريخى لخدمة الحاضر والمستقبل لا تعنى المؤرخ بقدر ما يعنيه تحقيق الواقعة التاريخية واستردادها من الماضى وتقديمها للقارئ من نافذته الفكرية . أما الفرق الثانى ، فهو أن المؤرخ الأكاديمى ينتقى أحداثا تاريخية مجهولة فيلقى عليها الضوء ويكشف جوانبها ، ولكن جمال بدوى ينتقى أحداثا معلومة تعرضت للدراسة من جانب المؤرخين ، فيبرز منها جوانب معينة ، ويوظف هذه الجوانب فى تكوين الوعي القومى والوطنى بما يخدم الحاضر ويبنى المستقبل . وبمعنى آخر

أنه بينما أن مهمة المؤرخ هي مهمة علمية بحتة . فان مهمة جمال بدوى
هي مهمة فكرية بالدرجة الأولى .

ومن المحقق أن القارئ سوف يستمتع برؤية جمال بدوى
التاريخية ، وسوف يجوب معه تاريخ مصر من أقصاه الى أدناه ،
وسوف يشعر بتلك المتعة الفكرية التي توفرها تلك السباحة الواسعة
الشيقة التي قام بها فى أرجاء تاريخ مصر .

رئيس التحرير

د . عبد العظيم رمضان

غرباء . . لكن أمراء

فى تاريخ مصر الاسلامىة أسماء لامعة لحكام غرباء وثبوا الى السلطة جهارا نهارا وأهلها صامتون مستسلمون لا يملكون غير الدعاء لولى الأمر بالصلاح والعز ولتأييد . عندك - مثلا - أحمد بن طولون الجندى التركستانى الذى جاء أبوه الى بغداد أسيرا فلم يلبث الابن أن شب فى حرس البلاط العباسى حيث تتهيا الفرص أمام هؤلاء الجند المحظوظين لحكم الولايات الاسلامىة ، وكانت مصر - أغنى الولايات وأعرقها - من نصيب أحمد فاستقل بها عن دولة الخلافة وأقام فيها امبراطورية وصلت حدودها الى الاناضول ، وهناك محمد بن طنج بن جف الاخشيده الذى ولد فى فرغانة من بلاد ما وراء النهر وسلك نفس الطريق الذى سلكه سلفه حين ألفت به الريح الى أرض الكنانة ، وعندك كافور العبد الخصى الذى تولى الوصاية على أبناء سيده الاخشيده فأطاح بهم واستبد بالأمر وأصبح ملكا مرموقا يقصده العلماء والأدباء والشعراء ومنهم « المتنبى » الذى مدحه بأجمل الأوصاف طمعا فى أن يمن عليه بحكم أحد الأقاليم المصرىة فلما خاب سعيه هرب من مصر فى ليلة عيد وهو يهجو كافورا بأقذع الشتائم ، وعندك بدر الجمالى المملوك الأرمنى الذى

استقدمه الخليفة الفاطمي المستنصر من عكا لمعالجة الفوضى التي عمت البلاد بسبب الصراع بين زعماء فرق الجند المرتزقة فقطع رؤوسهم وأعاد الاستقرار والأمن الى ربوع مصر وأحاط القاهرة بسور حجري سميك لا تزال بقاياها ماثلة في أبواب الفتوح والنصر وزويلة ، وترك في مصر سلالة الوزراء العظام . وعندك شجرة الدر الجارية الحسنة التي قدمت مصر لقمة سائغة الى بني جنسها المماليك ليحكموها ٢٥٠ سنة أو يزيد .

وقائمة الحكام الغرباء الذين استولوا على مصر طوييلة ومتشعبة ، وهي أشبه بسلسلة محكمة أحاطت برقاب المصريين وحالت بينهم وبين حكم أنفسهم . ولعل أقرب هؤلاء الحكام الغرباء الى عصرنا محمد علي تاجر الدخان الألباني الذي جاء الى مصر جنديا في حملة عثمانية لاجراج الفرنسيين منها فوضع رجله فيها ولم يغادرها أبدا وأقام فيها امبراطورية وأسرة ملكية ، فأما الامبراطورية فقد اندثرت قبل ان يموت ، وأما الأسرة فقد بقيت ١٥٠ سنة حتى أطاحت بها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

كيف استطاع هؤلاء الأفراد المغامرون ان يحكموا بلدا قديما عريقا كمصر ، دون أن يكون لأهلها رأى في هذا الحكم ؟ هذا سؤال خطير ينبغي على كل مصري أن يفكر فيه جيدا وان يبحث عن الجواب بنفسه في بطون الكتب وعلى جدران المتاحف ، لأن الجواب سيكشف له عن بعض أسرار الشخصية المصرية ويلقي الضوء على سلوكياتها وعاداتها وتقاليدها . وسيضع أيدينا على مفاتيح العلاقة الأزلية بين المواطن والسلطة ونظرة الى الحكومة ، ودرجة احترامه للنظام والقانون ومغزى الأمثال الشعبية التي نحتها الوجدان المصري من الواقع . .

وقبل أن تمضي في رحلة البحث المضني أرى من الأمانة أن

أعرض عليك تحفظا يبدية بعض المؤرخين ازاء وصف أولئك الحكام بأنهم « غرباء » فهم يرفضون هذا الوصف وحجتهم في ذلك أن هؤلاء الحكام ما وصلوا الى قمة السلطة الا في ظل الاسلام الذي يرفض تقسيم الناس عرقيا أو قوميا أو جنسيا أو وطنيا ومن ثم فهو يفتح الباب أمام أى انسان أمين تتوافر فيه مؤهلات الحكم لكي يصل الى القمة ولو كان عبدا حبشيا .. وما يهم الاسلام هو ان يلتزم الحاكم بمبادئ العدل والاحسان والمساواة والشورى ... وبعدها يكون على الناس السمع والطاعة .. فأرجوكم أن تضع هذا المفهوم في اعتبارك وأن تبحث عن الجواب .

الصعلوكة على عرش فرعون

من كان يصدق أن ترتقى هذه « الصعلوكة » في سلم المجد والعظمة حتى يتربع على عرش فرعون .. ويكون لها في تاريخ مصر والعالم الإسلامي مكان مرموق ؟ فتاة جميلة أشبه بزهرة متوحشة نبتت بين الصخور في الهضاب الآسيوية ، ثم طوجت بها الريح إلى هذا البلد العجيب - مصر - الذي يحنو على كل غريب ، ويختزن كل وافد .. فإذا بالزهرة البرية تثبت جذورها في الطين ، وتسفر عن شجرة باسقة القوام .. تطاول السحاب .. وتصمد للأعاصير ، ويؤول إليها زمام الأمر في إلهياد المصريين في لحظة من لحظات التاريخ الفاصلة .. فالصليبيون قد احتلوا دمياط .. ويمنوا زحفا نحو القاهرة .. والدولة كلها بسططانها وجيشها وشيوخها وشبابها تمركزت في المنصورة استعدادا لمعركة المصير .. وفي تلك اللحظة الحرجة مات السلطان في معسكره .. ولك أن تتصور وقع الخبر على المقاتلين وهم يتهيأون للزحف .. ولكن الجارية الحسنة شجرة الدر - أو شجر الدر كما ورد في بعض المصادر - تكتمت الخبر .. وأدارت الأمور بكفاءة يعجز عنها الرجال .. حتى تحقق النصر الساحق الملاحق .. واندهش الفرنسيين

وبات ملكهم - لويس التاسع - أسيرا في دار ابن لقمان تحت حراسة الطواشي صبيح .. وبذلك انفتح الباب على مصراعيه امام شجرة الدر لتجلس على عرش خوفو وتحتمس وكيلوباترا والمعز لدين الله وصلاح الدين الأيوبي ..

● كيف حدث ذلك .. ؟

وكيف استطاعت هذه المرأة باهرة الحسن أن تبلغ القمة التي قصرت دونها أعناق الرجال ، وأن تملك العرش الذي يتصارع من حوله أمراء البيت المالك الأيوبي ، وصناديد الجيش المملوكي ؟

لم تكن « شجرة الدر » تحمل في يدها سيفاً ولا رمحاً .. ولا تملك من ورائها جيشاً يدفع بها الى القمة بقوة القهر أو بحق الفتح .. ثم انها لم تكن من سليلات البيت الأيوبي حتى تطالب بوراثة العرش .. لم تكن تملك شيئاً من مسوغات التعيين في هذا المنصب الرفيع .. فضلاً عن كونها أنثى في بلد مسلم يأبى حكم النساء .. ولكنها كانت تطوى جوانحها على ارادة حديدية تتواضع أمامها عزائم الرجال .. وتملك ذكاء خارقاً ، ودهاء فائقاً ، ومقدرة فذة على التدبير ، ومن يملك هذه الأسلحة في دنيا السياسة ، لم تكن به حاجة الى تكديس السلاح أو تحريك الجيوش .. وفوق ذلك كانت تعرف كيف تتعامل مع هذا الصنف من الرجال ، وكلهم طامع في العرش .. وكلهم يحمل في قلبه بذرة الضعف أمام زهوة الحكم ، وبريق السلطة ، أما هي .. فكانت تتعفف وتتعزز وتتمنع .. فكانت بذلك أقوى منهم أجمعين .. حتى جاءوا اليها طائعين يحملون اليها عرش مصر على طبق من الفضة .. 11

من أين جاءت هذه الزهرة الوحشية .. ؟ كيف نبتت وترعرعت

قبل أن تحتل قلب سيدنها ومولاها الملك الصالح نجم الدين أيوب
آخر الملوك الأيوبيين في مصر ؟

ان مصادر التاريخ لا تقدم لنا معلومات دقيقة عن المراحل الأولى
من حياة شجرة الدر ، شأنها في ذلك شأن كل الصعاليك الذين
أصبحوا من المشاهير بعد أن اجتازوا صدر الشباب .. ومتى كان
التاريخ يهتم بالحشائش الطفيلية التي تنبت على حواف الترع
وسفوح الجبال !!

وشجرة الدر واحدة من ملايين المشردين الذين هاموا على
وجوههم في الطرقات هربا من زحف المغول ، فتداولتها أيدي
النخاسين يبيعونها لمن يدفع ، فلا تكاد تستقر في بلد حتى ينهار
ويستسلم . فالى أية شجرة انسانية تنتسب الفتاة ؟ لا أحد
يعرف ! فالبعض يقول انها أرمنية .. والبعض يزعم انها تركية ..
وآخرون يؤكدون انها شركسية من القوقاز .. أما هي فلا تتكلم ..
ولا تفصح عن ماضيها .. ولا تكشف عن شيء من حياتها الأولى ..
كأنما تريد أن تضع على الماضي ستارا كثيفا .. وازاء هذا الصمت
المريب ، تطوع المؤرخون أدام الله عزهم - فصنعوا لها تاريخا مجيدا -
واختلقوا شجرة عريقة الجذور ثم جعلوا منها ثمرة زكية لهذا
المنبت الأصيل فزعموا أن أباهما هو السلطان أذربك البهلوان ملك
تبريز - من بلاد العجم - أما أمها فقالوا انها الأميرة السلجوقية
الشهيرة فاطمة خاتون .

ويبدو أن هذا « البهلوان » كان اسما على مسمى ، فلم يكد
يسمع باقتراب المغول من مملكته ، حتى ترك الجمل بما حمل ،
وتجلى عن شعبه وأسرته ، ومضى الى معسكر الأعداء ذليلا خائرا
يعمل في ركابهم ، ويساعدهم على تدمير الممالك الاسلامية المجاورة ،
فلما علمت فاطمة خاتون بجريمة زوجها ، أعلنت انها طالق منه ،

وحملت طفلتها ورحلت الى بلاط السلطان جلال الدين آخر ملوك خوارزم ، وطلبت منه أن يتزوجها وأخذت تشد أزره حتى يصمد أمام جحافل المغول ، ولكن الأعصار المغولي كان أقوى من الجميع فاكتمسح مملكة خوارزم ، وفر جلال الدين ليلفظ أنفاسه فى جزيرة معزولة فى بحر قزوين ، ثم لحقت به فاطمة خاتون ، أما الطفلة الصغيرة شجرة الدر فقد ضاعت فى زحام الحياة حتى التقطها النحاسون ، وظلت الأيدي تتداولها حتى وقعت فى حوزة الأمير الأيوبي المصري نجم الدين وكان يعيش يومئذ منفيا فى حصن « كيفا » على مشارف العراق . . وما علمت انها وضعت قدميها على عتبات العز والمجد ، فلم تلبث أن صارت سيدة القصر وصاحبة الأمر والنهى ، لقد دخلت قلب سيدها الأمير ولم تخرج منه حتى النفس الأخير الذى لفظه فى المنصورة ، وما إن وارت التراب حتى جلست بعده على عرش مصر المحروسة ، وتقبل المصريون الأمر الواقع باستسلام وطواعية ، ولم تظهر عليهم بادرة تمرد أو سخط لأنهم كانوا قد فقدوا القدرة على التمرد والسخط منذ حكمهم الاغراب قبل ٢٥٠٠ سنة ، ولم يشعروا بالدهشة اذ تحكمهم جارية مجهولة الهوية ولكن - بعد ٨٠ يوما من التسلط - أزيحت السلطانة عن العرش لأسباب خارجة عن ارادتها واردة الشعب المصري .



فى الليلة الموعودة

كان من المستحيل أن تستقر شجرة الدر على عرش مصر لفترة طويلة ، بالرغم من تقبل المصريين لهذا الوضع الشاذ . . وبالرغم من رضا زعماء الممالىك الذين آلت اليهم مقاليد الأمور بعد خلع آخر سلاطين البيت الأيوبى الحاكم « توران شاه » وقتله فى فارسكور . . ولم يأت الرفض من جانب المحكومين . . ولا من جانب الحكام . . وإنما جاء من جانب الخلافة العباسية فى بغداد ، اذ أرسل الخليفة المستعصم رسالة تقريع وتأنيب الى زعماء الممالىك لأنهم ولوا عليهم امرأة . . وقال لهم اذا كان عنصر الرجال قد ندر عندكم فأبلغونا فرسل اليكم . . رجلا . . !!

وفعلت الرسالة فعلها واستجاب الممالىك لتعليمات الخليفة بالرغم من ان الخلافة كانت فى مرحلة الأفول والاحتضار ، ذلك أن قادة الممالىك - وهم عبيد مشترىون بالمال - كانوا يشعرون فى أعماقهم بدناءة أصلهم وافتقارهم الى سند شرعى يخول لهم حكم مصر ، ولم يكن سكوت المصريين عن استبدادهم بالأمر دليلا على الشرعية . . كذلك فان الانتصار العظيم الذى حققوه على الصليبيين فى المنصورة لم يكن مبررا كافيا لاستيلائهم على شئون مصر .

وبعد مشاورات ومداولات للخروج من الورطة ، استقر رأى
الحكام الجدد على تزويج السلطانة شجرة الدر من احد أركان
النظام الجديد « عز الدين أيبك » فيصبح للحكم واجهة « رجالى »
ترضى غرور الخلافة وتحوز بركاتها ، ومن ناحية أخرى يمكن
الحفاظ على مكانة السيدة التى يرجع الفضل اليها فى انتقال
السلطة من البيت الأيوبى الى بنى جنسها المغامرين القسامين من
فيافى القوقاز .

وقبلت شجرة الدر هذا الحل الذى يمكنها من الاستمرار فى
حكم مصر من تحت ذقن زوجها ، وكان من الممكن أن تستمر اللعبة
طويلا لولا أن دخلها عنصر العاطفة النسوية ، وهو عنصر مدمر
لا يقيم اعتبارا لقواعد السياسة وأصول الحكم . فقد أقدم أيبك
على خطوة جريئة حين تجرأ على الزواج بسيدة أخرى اسمها
أم على . . ولم تتخيل شجرة الدر التى ذقت لذة الاستبداد والتفرد
— ان تصبح « خرة » لامرأة أخرى تشاركها قلب زوجها ، واقتنعت
بأن أيبك قد خرج على أصول اللعبة المتفق عليها فحق عليه العقاب .
وفى الليلة الموعودة مضى المسكين الى مخدع شجرة الدر حيث تقيم
بالقلعة ، فاستقبلته وهى فى أبهى زينتها وظهرت له من مفاتن
انوثتها ولواعج حبها ما لم يلمسه من قبل ، فلما ذهب الى الحمام
وألقى بجسده فى المغطس تكالب عليه غلمان السلطانة وهم يشهرون
بأيديهم القباقيب الخشبية وانهالوا على رأسه وهو يصيح بزوجته
مستغيثا . . ضارعا . . ولكن صرخاته ذهبت أدراج الرياح . . ولم
تجد ضراعاته صدى فى قلبها الذى قد من صخر الجبال .

وبعد أيام لقيت شجرة الدر حتفها بتففس السلاح الحقيير الذى
قتلت به زوجها - على يد ضرتها الست أم على - ثم ألقى الغلام
بجثمانها من فوق أسوار القلعة لتنهشه الكلاب والضواري .. وبعد
ثلاثة أيام تطوع بعض أهل الخير بجمع ما تبقى من رفاتها ودفنوه
فى المسجد الفخم الذى أقامته لنفسها بالقرب من ضريح السيدة
نفيسة .. وانتهت مأساة امرأة لم تفلح أبهة الملك وعظمة السلطان
وزهوة الطغيان ، فى أن تنسيها أنها امرأة •

تحریم التجنید

كيف سكت المصريون - وهم أبناء المجد القديم والحضارة العريقة - على استبداد المماليك بهم ، وانفرادهم بالحكم دونهم ؟ وقد عرفنا ان المماليك كانوا صبية يباعون في أسواق الرقيق . فآثر الحكام الأيوبيون من شرائهم ، وجعلوهم جنودا في الجيش . فلم يلبثوا ان قوضوا عرش ساداتهم ، وأصبحوا هم ملوك مصر وشكلت منهم أرسقراطية عسكرية تستأجر بخيرات البلاد ، ولا تترك لأصحابها غير الفتات ۰۰ ۱۱

كيف تقبل المصريون هذا الوضع المهين واستسلموا له كأنه قدر لا فكاك منه ؟ هذا السؤال يجب ان يطرحه كل مصرى على نفسه ، ويبحث عن الجواب كى يتعلم ان التهاون فى أداء الواجب القومى لا بد ان يؤدى الى التسبب والانحلال وضياع الاستقلال واهدار العزة الوطنية ، وليس أقدمس من الدفاع عن الوطن واجبا تبذل من أجله المهج والأرواح ، فاذا تحلى أبناء البلاد عن هذا الواجب المقدس وحمله عنهم الأغراب فقد حق لهؤلاء أن يقبضوا ثمن عرقهم ، ومن يبذل الدم من حقه أن يجنى الشهد .

ولو تتبعنا تاريخ العسكرية المصرية على مدى ألفى عام أو تزيد ، فسوف تكتشف أن عبء الدفاع عن البلاد قد انتقل من كاهل ابنائها إلى أيدي الأجناد الأجنبية : الاغريق والرومان والعرب والأكراد والمغاربة والسودان والترك والأرمن والشركس والبلغار .. الخ ، منهم كانت تتألف كتائب الجيش ، وفي المعارك التي تسمع عنها في حطين والمنصورة وعين جالوت ومرج دابق والريدانية .. فاعلم ان المحاربين كانوا من خارج العائلة المصرية ، ولم يكن للمصريين في هذه الملاحم غير المساندة المعنوية وخدمة الجيش .

من المسئول عن تجريد المصريين من السلاح وإبعادهم عن حقل التجنيد .. ؟ ان الجواب عن هذا السؤال سيجعلنا منصفين في تقويم تاريخنا .. وحتى لا نسرف في تعذيب أنفسنا ، فالواقع ان عملية إبعاد المصريين عن الجيش كانت عملية مدبرة حرص حكام مصر - وكلهم من الأغراب - على ثوراتها وتنفيذها بدقة . كانوا يخافون اليوم الذي يتخلى فيه الفلاح المصرى عن الفأس ويحمل السيف أو البندقية ، كانوا على ثقة بأن أول عمل سيقوم به هذا الفلاح هو أن يستدير ليسدد فوهة بندقيته نحو صدور الذين أذلوه وأهانوه وسرقوا عرقه و « قطعوا » وسطه من كثرة الضرائب .. « وهذا ما فعله أحمد عرابى » لذلك لم يفكروا قط في تجنيد المصريين وفضلوا عليهم المرتزقة والصعاليك والمغامرين .. ولك ان تتصور عمق الألم النفسى الذى كان ينتاب المواطن وهو يرى نفسه محروما من شرف الدفاع عن وطنه ويبقى حبيس الحقل والمعمل والورشة . مثل ربات الخدور .. !!



ولك أن تقول : ولماذا لم يتطوع المصريون لأداء واجب الدفاع عن وطنهم دون انتظار للنفير ؟ وأقول لك ان الانخراط فى سلك

الجندي لم يكن تطوعيا ، ولكن كان يخضع لأنظمة وقيود لا يتصورها العقل الحديث ، وفي العصر المملوكي كانت العسكرية حرفة لها أصول وقواعد ونظم وطقوس يخضع لها الجندي من الحياة حتى الممات . . . وكان أول شروط الجندي أن يكون الجندي صبيا « مملوكا » دون الحادية عشرة . ومعنى ذلك حرمان المصريين الأحرار من التجنيد لأنهم كانوا يفتقدون شرط « العبودية » الذي فصله المماليك على مقاسهم . . . حتى أبناء المماليك بعد أن يتحرروا من الرق - لم يكن من حقهم دخول الجيش ، وكانوا يسمون « أولاد الناس » ويمارسون أعمالا راقية خارج النطاق العسكري .

الى هذا الحد ضاقت سبل التجنيد أمام المصريين ، حتى في الأوقات التي جفت فيها ينابيع المماليك والمرتزقة واحتاجت البلاد الى سواعد بنيها ، لم يكن الحكام يجروون على تجنيد المصريين ويبحثون عن البديل في شتى الأسواق ، ويحدثنا التاريخ عن ذلك الوالى العثماني - واسمه أويس باشا - وقد فكر يوما في تجنيد المصريين ، فلم يكن من الجنود الانكشارية الا أن تأمروا عليه وقتلوه حتى يسدوا الباب أمام أى حاكم يفكر في الاستعانة بالفلاح المصري : وكان معنى عزل المصريين عن الجيش عزلهم عن شئون الحكم . . . وفي خلال عشرين قرنا لم يظهر حاكم مصر واحد !! ألم يكن بين المصريين من يصلح ليجلس على عرش مصر ؟!

انه سؤال غريب حقا . . . يحتاج الى تفكير . . .



كذاب زفة

قبيل مجيء الحملة الفرنسية ، كانت مصر تخضع لسيطرة زعيمين من شيوخ المنصر عكفاً على مص دماء المصريين قطرة بعد قطرة حتى جفت عروقهم ، وذوى عودهم ، وانهد حيلهم ، وخربت ديارهم ، وكان المصريون يتحملون هذا البلاء بحجة أن هؤلاء المماليك يحملون عنهم عبء الدفاع العسكرى ، وينودون عن جياض الوطن ، ويردون عنه كيد المغيرين .. الى آخر هذه الحجج الواهية التى يشيعها المؤرخون لتبرير عجز المصريين وبسكوتهم عن الضيم والذل والعبودية .

كان هذان المملوكان الغاصبان - ابراهيم بيك ومراد بيك - يتمتعان بكمية هائلة من السفالة وقلة الحياء ، فهما أسدان جسوران على الشعب المصرى المسالم المستكين ، ولا يتورعان عن حرق القرى وتدمير المزروعات وهتك الأعراض وسبى النساء وسفك الدماء وتشريد الناس فى القلوات من أجل حفلة ريالات .. ولكنهما كانا أرنبين هزيلين فى ساحة الوغى .. فما أن يبدأ وطيس القتال حتى يطلقا ساقيهما للريح ، تاركين المصريين العزل كالأيتام على مائدة اللثام .. فاذا زال الخطر ، وانقشع العدو .. عاد المماليك ليستأنفوا

مظالمهم وجبروتهم بعد أن يقسموا بأغلظ الأيمان أنهم تابوا وأتابوا
ولن يعودوا سيرتهم الأولى .. والمؤسف ان المصريين كانوا يصدقونهم
فيسلمون اليهم رقابهم مرة أخرى !!!

كان ابراهيم بيك أكثرهما دهاء ومكرا ، ولذلك لم يورط
نفسه في معركة غير محسوبة ، أما مراد بيك فكان كما وصفه
الجبرتي « يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش
والتورط في الاقدام مع عدم الشجاعة ، ولم يعهد عنه انه انتصر في
حرب باشرها أبدا على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء
والصلف والظلم والجور » .

ولقد دلت جميع الأحداث على أن هذا الأمير المتسلط كان
مغرورا الى حد البلاءة .. (همباكا) الى درجة العبط .. (جعجاغا)
في تقدير بطولته وقدرته على سحق الألوف بضربة واحدة من سيفه ،
فاذا حانت ساعة الجد واستشعر العين الحمراء في خصمه ولى مدبرا
ولا يعقب ولا يكف عن الجري حتى يطمئن على أنه لا يزال حيا ..
ولذلك تشاءم المصريون عندما علموا أنه سوف يتصدى لملاقاة جيش
نابليون أثناء زحفه على القاهرة قادما من الاسكندرية ، لأنهم كانوا
يعرفون أن قائدهم (كداب زفة) ولن يصمد طويلا في المعركة ..
وكان مراد بيك قد صرح قبل خروجه الى المعركة بأن الفرنسيين مثل
حبات الفستق .. لا يصلحون الا للكسر والاكل .



وصدق المصريون في حدسهم .. وكانت معركة امبابه مهزلة
انكسرت لها نفوسهم وكرامتهم .. وكانت الجموع الفقيرة من اهل
القاهرة تقف على ساحل بولاق خلف الجناح الآخر من فرسان
المماليك بقيادة ابراهيم بك .. ووقف الجميع يرقبون تطور المعارك

على الضفة الغربية للنيل ، وسجل مؤرخنا الجليل عبد الرحمن الجبرتي وقائع الهزيمة في هذا التقرير الموجز :

في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر المحرم ١٢١٣ هـ التقى العسكر المصري مع الفرنسيين فلم تكن الا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه ، ولم يقع قتال صحيح انما هي مناوشة من طلائع العسكريين بحيث لم يقتل الا القليل من الفريقين ، واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجببخانة والآلات الحربية ، وعلقت نار بالقلع وسقط منها نار الى البارود فاشتعلت جميعها بالنار واحترق المركب بما فيه من المحاربين وتطايروا في الهواء ، فلما عاين ذلك مراد بك داخله الرعب وولى منهزما وترك الاثقال والمدافع وتبعته عساكره ، ونزلت المشاة في المراكب ورجعوا طالبين مصر ووصلت الاخبار بذلك الى مصر فاشتد انزعاج الناس ، وركب ابراهيم بك الى ساحل بولاق وحضر الباشا (الوالي العثماني) والعلماء ورؤوس الناس واعملوا رأيهم في هذا الحادث العظيم فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق الى شبرا ٠٠ وفي يوم الاثنين حضر مراد بك الى بر امبابة وشرع في عمل المتاريس واحضر المراكب الكبار والغلايين التي أنشأها بالجيزة وأوقفها على ساحل امبابة وشحنها بالعساكر والمدافع فصار البر الشرقي والغربي مملوءين بالمدافع والعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة . وفي يوم الثلاثاء نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس ، فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبر بولاق ، وصعد السيد عمر أفندي مكرم الى القلعة فأنزل منها بيرقا كبيرا سمته العامة البيرق النبوي ، فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور ، وأما مصر (القاهرة) فكانت خالية الطرق لا تجد بها أحدا سوى النساء والأطفال وضعفاء الرجال ، والأسواق مقفرة ، وكثرت الاشاعات

بقرب وصول الفرنسيين الى مصر ، وتختلف الناس في الجهة التي يقصدون المجيء منها وليس لاحد من أمراء العساكر همة أن يبحث جاسوسا أو طليعة تناوشهم بالقتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم الى فناء مصر ، بل كل من ابراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل . وهذا من سوء التدبير واهمال أمر العدو .

ولما كان يوم الجمعة وصل الفرنسيين الى الجسر الأسود ، وأصبح السبت فوصلوا الى أم دينار ، فعندها اجتمع العالم العظيم من الجنود والرعايا والفلاحين ، ولكن الاجتاث (المماليك) متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة أرائهم ، خريصون على خيائهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون في رئيسهم محثقرون شأن عدوهم ، ولما كان وقت القائلة ركب جماعة من العساكر التي بالبر الغربي وتقدموا ناحية بشتيل فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيين فكروا عليهم بالخيول ، فضربهم الفرنسيين ببنادقهم المتتابعة ، ولما قرب طابور الفرنسيين من متاريس مراد بك ترامي الفريقان بالمدافع ، فلما سمع عسكر البر الشرقي القتال ضج العامة والغوغاء بالصياح يارب ويالطيف ونحو ذلك ، وكانهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم ، فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويقولون لهم ان الرسول والصحابة والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب ، لا يرفع الأصوات والصراخ والنباح .

اما طابور الفرنسيين الذي تقدم لقتال مراد بك ، فقد انقسم على كيفية معلومة عندهم في الحرب ، وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطا بالعسكر وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع ، واشتد هبوب الريح ، وانعقد الغبار ، وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الرياح ، وصمت الاسماع من توالي الضرب بحيث خيل للناس ان الأرض تزلزلت والسماء سقطت ، واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة

أربع ساعة ، ثم كانت الهزيمة على المعسكر الغربى (جيش مراد بك) فغرق الكثير من الخيالة فى البحر (النيل) والبعض وقع أسيرا فى أيدي الفرنسيين ، وملكوا المتاريس ، وفر مراد بك ومن معه الى الجزيرة فصعد الى قصره وقضى بعض أشغاله فى نحو ربع ساعة ثم ركب وذهب الى الجهة القبلىة (الصعيد) وبقيت القتلى والثياب والأسلحة ملقاة على أرض أمبابة تحت الأرجل . . .

هذا هو كذاب الزفة الذى فر كالفار المنعور أمام جحافل الفرنسيين بينما كان يمارس دور الغضنفر على الشعب المغلوب على أمره .

الشيخ نابليون

لم تكن الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ م تحمل الصبغة الصليبية التي كانت للحملات السابقة التي اجتاحت الشرق الاسلامي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . بل يمكن وصف حملة نابليون بأنها كانت (لا دينية) اذا قورنت بحملة سلفه لويس التاسع الذي قاد الحملة الصليبية السابعة واحتل دمياط ثم أسره المصريون في المنصورة عام ١٢٥٠ م وبعدها رفعته الكنيسة الى مرتبة القديسين مكافأة له على نضاله المستميت ضد العالم الاسلامي ، وكانت الظروف الدينية والمنطلقات العدائية التي تحركت منها الحملات القديمة تختلف عن الظروف السياسية والتقلبات الأوروبية التي كانت وراء حملة بونابرت .

لقد جاء نابليون الى مصر باسم الثورة الفرنسية الكبرى المناهضة للدين والتي ثارت في وجه الكنيسة ورجالها بنفس العنف الذي واجهت به طبقة النبلاء والاقطاع . بل لم تتورع جيوش الثورة عن مهاجمة البابا - رأس الكنيسة الكاثوليكية - في عقر داره ، واغتصاب اجزاء من ممتلكاته لاقامة أول جمهورية حديثة في الأراضي الإيطالية على مبادئ الثورة ، وظن نابليون أن رصيده العدائي

للكنيسة ورجالها سيكون مدخلا الى قلوب المصريين ، وكسب ولائهم ،
وشراء سكوتهم على احتلال أراضيهم ، وحرص نابليون - وهو
يخاطب المصريين ويلعب بعواطفهم الدينية - على أن يبدو أمامهم في
صورة المنتقم الجبار الذي قام بتخريب كرسى البابوية وإهانة صاحبه
« الذي كان يحض النصارى على مخاربة المسلمين » ، ظنا منه بأن
ذلك يرضى المصريين ثم يمضى نابليون فى استخفافه بعقولهم فيقول
لهم ان الفرنسيين مسلمون مخلصون وانه شخصيا يعبد الله
سبحانه وتعالى ويحترم نبيه والقرآن العظيم !!

ونحن نعلم الظروف الداخلية التى دفعت بحكومة الادارة فى
فرنسا الى ايفاد نابليون الى مصر على رأس حملته المشهورة ، كوسيلة
عملية لابعاده عن مسرح الأحداث بعد أن بدأ نجمه فى الصعود، وأصبح
فارس الحلبة المرشح لاعتلاء عرش الدماء بعد أن أكلت الصراعات
الدموية وحملات التصفية الارهابية قادة الثورة الأوائل ، وكان
نابليون - المغامر الطموح - يعلم ان الثمرة لم تنضج تماما لتسقط
فى حجره سهلة سائغة ، ومن ثم قبل التكليف استجابة لأمر حكومة
الادارة فى الظاهر ، وتلبية لنداء غامض كان يهتف فى باطنه لاقابة
امبراطورية شرقية المظهر أوروبية الجوهر ، على غرار الامبراطورية
الهيلينية العظمى التى اقامها الاسكندر الأكبر على أساس التعاليم
الفلسفية التى خلفها آباء الفكر الاغريقى .

جاء المغامر الكورسيكى الى مصر وهو يحمل فى صدره طموحات
هائلة وآمالا عريضة فى بناء دولة كبرى تتنفس سحر الشرق
وعبوقه ، وتنبض بتعاليم الثورة الفرنسية ، ولم يكن هناك - غير
مصر - بموقعها الفريد بين القارات الثلاث ، تصلح لتحقيق الدولة
الحلم ، والانطلاق منها الى الهنبد ليحطم كبرياء الامبراطورية
البريطانية التى استعصت عليه فى مكنها المنعزل فى الجزر .
فلا بأس من ان يصيبها فى درتها الغالية . . الهند .

وكانت غاية آمال نابليون ان يتم له الاستيلاء على مصر في
صمت وهدوء ودون اللجوء الى ارتكاب فظائع دموية تفسد العلاقات
الودية المرجوة بينه وبين الشعب المصرى ، فكان حريصا على كسب
عواطف المصريين والادعاء بأنه مسلم غيور ، فيحضر احتفالاتهم
الدينية ، ويرتدى الجبة والقفطان والعمامة ، ويتزلف الى علمائهم ،
وقد تعجب اذا قرأت المنشور الأول الذى وزعه على أهل مصر
واستفتحه (باسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا
شريك فى ملكه) .. « ويا أيها المصريون قد قيل لكم اننى ما نزلت
أرضكم الا بقصد ازالة دينكم .. فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه
وقولوا للمفترين اننى ما قدمت اليكم الا لاخلص حاكم من يد
الظالمين واننى أكثر من الممالك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم
نبيه والقرآن العظيم .. ويا أيها العلماء والفضلاء والمشايخ والقضاة
والأئمة واعيان البلد قولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون
مخلصون واثبات ذلك انهم قد نزلوا فى روما وخرّبوا فيها كرسى
البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم
قصدوا جزيرة مالطة وطرّدوا منها الفرسان الذين كانوا يزعمون ان
الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ، .. وفى ختام منشوره يعلن
بونابرت الى المشايخ والعلماء « انهم يلزمون وظائفهم وعلى كل واحد
من أهالى البلد ان يبقى فى مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة
فى الجوامع على العادة ، والمصريون بأجمعهم ينبغي عليهم أن يشكروا
الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة الممالك قائلين بصوت عال : أدام
الله اجلال السلطان العثمانى .. أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى
.. لعن الله الممالك .. وأصلح حال الأمة المصرية » .

فهل أتى هذا المنشور البليغ ثمرته ؟ وهل أفلح فى اقناع
المصريين بوداعة نابليون وحبه للاسلام ؟ ان مجرى الأحداث يكشف
لنا فى صراحة ووضوح عن عدم قبول الشعب المصرى لكل الادعاءات

الكاذبة التي حاول نابليون عن طريقها أن يضحك على عقول المصريين ، وجاءت الثورتان اللتان قام بهما المصريون أصدق دليل على رفضهم للوجود الفرنسي ، وعدم تصديقهم لمزاعم نابليون بأن الفرنسيين (يحبون المسلمين) ويعبر مؤرخنا الشيخ عبد الرحمن الجبرتي أصدق تعبير عن تشكك المصريين في الأفكار والوعود التي اذاعها بونايت بالرغم من تملقه للاسلام ، وطعنه في الكنيسة الكاثوليكية والتطاول على رئيسها ، ويعزو المؤرخ الكبير صلاح العقاد الرفض المصرى الى أن القضية في نظر المصريين لم تكن مجرد موقف ديني أو لا ديني .. بل ان الاختلاف في التراث الحضاري والعادات والتقاليد جعل من المستحيل على المصريين ان يصدقوا دجل نابليون .. والحجة التي احتج بها بأنه حارب البابا وأطاح بهيبة الكنيسة .. ما كان من شأنها أن تؤثر في مجتمع متدين كالمجتمع المصرى يفضل لنابليون ان يكون منتميا الى دين .. وليس خارجا على الدين .

ولم يكن المصريون وحدهم هم الذين فضحوا زيف نابليون ، فالعلماء والقادة وكبار الضباط الذين صحبوه في حملته كانوا يعلمون مدى كذبه .. وكانوا يسخرون منه وهو عاكف على ظهر الأسطول يدبج صيغة المنشور قبل أن يدفع به الى المطبعة العسكرية لتطبعه بالعربية والتركية والفرنسية ، وتحفظ السجلات الفرنسية رسالة القائد البحرى (جوبير) الى وزير بحرية فرنسا والتي يقول فيها : لعلمكم أيها الباريسيون تضحكون حين تقرأون هذا المنشور الاسلامى الذى وضعه قائدنا الأعلى .. ولكنه لم يعبا بكل سخريتنا من المنشور ..

بل ان نابليون نفسه اعترف في أخريات أيامه بأن هذا المنشور كان قطعة من الدجل .. (ولكنه دجل من أعلى طراز) .. وعندما

كان يجتر ذكرياته وهو سجين في سسائت هيلانة اعترف لأحد
أخصائه بما فعل ، وبرر سلوكه بأن «على الانسان ان يصطنع الدجل
في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد الى النجاح » .

وتلك طبيعة الطغاة الذين يستخفون بالشعوب .. ولا يدركون
الحقيقة الا بعد أن يزول عنهم السلطان فيموتون كمدا .

عمدة الاسكندرية

قبل ٢٤ ساعة من وصول نابليون بونابرت الى مياه الاسكندرية، كان الاسطول الانجليزى بقيادة الاميرال نيلسون قد وقف قبالة الساحل السكندري يتحسس اخبار الاسطول الفرنسى الذى غادر بلاده تحت جناح الظلام الى جهة غير معلومة ، وكانت البوارج الانجليزية قد خرجت تتعقب غريمها اللدود لتفرقه فى مياه البحر الأبيض المتوسط . وكان مشهد المطاردة يبلغ فى بعض الأوقات درجة الاثارة عندما كانت المسافة بين الأسطولين لا تتجاوز مدى البصر ، وشاء القدر للأسطول الفرنسى أن يفلت من المطاردة فى عرض البحر لتكون نهايته المأساوية فى خليج أبو قير .

وكانت أنباء الحملة الفرنسية قد وصلت الى الاسكندرية عن طريق بعض القباطنة الذين شاهدوا مراكب نابليون فى مالطة ، وعلموا من بحارتها ان محطتهم الأخيرة فى الاسكندرية .. عندئذ تارت خواطر أهل الشجر ، وبدأوا يستعدون للملاقاة الفرنجة ، وينفضون عن أنفسهم غبار الكسل الذى تراكم عليهم سنوات طويلة صدئت خلالها بنادقهم ، وشاخت مدافعهم ، وتهدمت الطوابى والأسوار من طول الرقاد .

وبهذه الروح المتوترة ، استقبل السيد محمد كريم عمدة الاسكندرية ، وفد الأسطول الانجليزى الذى هبط الى الساحل ليحذر أهلها من مdahمة نابليون لهم ، وعرض على العمدة أن يسمح لهم بالبقاء فى البحر للدفاع عن المدينة على أن يبيع لهم الماء والزاد بثمنه ، ولكن العمدة الغيور رفض العرض ، وقال للانجليز : هذه بلاد السلطان . . ولن نسمح للفرنسيين ولا لغيرهم باحتلالها .

ولم يشأ الانجليز ان يطول الجسدل بينهم وبين حاكم الاسكندرية ، فقد كان همهم الأكبر تعقب أسطول نابليون ، فغادروا المياه المصرية فى اتجاه السواحل الفلسطينية يوم ٢٩ يونية ١٧٩٨ ، وفى اليوم التالى مباشرة كانت السفن الفرنسية تحط رجالها فى مياه الاسكندرية ، واقتربت احدى السفن من الشاطئ لتحمل قنصل فرنسا الذى أبلغ نابليون بما كان من أمر الأسطول الانجليزى مع عمدة الاسكندرية ، وقدم اليه تقريراً عن حالة الهياج التى عمت الأهالى منذ علموا باقتراب الحملة الفرنسية ، وكيف ان أهل المدينة والعربان يحملون السلاح دفاعاً عنها . . ومارع السيد محمد كريم الى ابلاغ حكام القاهرة - مراد بك وابراهيم بك - بنبا القوات الفرنسية التى نزلت على الساحل فى اتجاه العجمى ، طالبا أقصى ما يمكن من النجدة لمواجهة الأعداء ، ولكن الأمراء المماليك الذين بعد العهد بينهم وبين المعارك ، جعلوا اصابعهم فى آذانهم حذر الموت ، ولم يردوا على استغاثات حاكم الاسكندرية وتركوه مع أهلها يواجهون البوارج والمدافع الحديثة بأسلحة هزيلة ، وضرب أهل الشجر أروع أمثلة البطولة وهم يحاربون الغزاة من بيت لبيت ، حتى أذلوا كبرياء العسكرية الأوروبية الصاعدة ، وبلغت المقاومة الوطنية عنفوانها عندما حاول نابليون أن يقتحم شوارع المدينة فأصابته رصاصة قاتلة أفلت منها بأعجوبة ، فلبأ الى حارة ضيقة لا تكاد تتسع لشخصين يمران جنباً لجنب ، وكان يرافقه سكرتيه (بورين) الذى يصف

هذا المشهد العصيب قائلا : وانهاالت علينا طلقات الرصاص من احدى نوافذ البيوت ، فتقدم الحرس واقتحموا البيت فوجدوا رجلا وامرأة قابعين خلف النافذة وهما مستمران فى اطلاق النار فقتلتهما الحرس .

أما عمدة المدينة السيد محمد كريم ، فقد ظل معتصما بقلعة قايتباى على رأس فريق من المقاتلين الشجعان حتى كلت قواهم ، ونفذت ذخيرتهم ، ورأى العمدة أن المقاومة أصبحت غير مجدية ، فكف عن القتال وسلم القلعة ، فكانت بسالته مثار اعجاب نابليون . فتلقاء لقاء كريما ، وأبقاه فى منصبه حاكما على الاسكندرية على أمل أن يتعاون مع قوات الاحتلال ، ولكن آماله فيه خابت ، بعد أن رفض ارغام أهل الثغر على دفع قرض اجبارى لسلطات الاحتلال ، فأسرها الجنرال كليبر - حاكم الثغر العسكرى - فى نفسه ، وانتهاز فرصة قيام أهالى البحيرة بصد كتيبة فرنسية ، واتهم السيد محمد كريم بتحريضهم ، ثم ألقي القبض عليه وأودعه سفينة القيادة (لوريان) وبعث الى نابليون فى القاهرة يخبره بما فعل ، فبارك نابليون تصرف كليبر ، خصوصا وقد عثر فى قصر مراد بك - المملوك الهارب - على الرسائل التى كان حاكم الاسكندرية قد كتبها ليستنهض همم الحكام على صد الفرنسيين ، وطلب منه أن يرسل اليه الرجل مقيدا فى اغلاله ، وغادر محمد كريم سفينة الاسطول فى مركب صغير أقله الى رشيد ومنها الى القاهرة ، وفى اليوم التالى مباشرة غرق الأسطول الفرنسى فى مياه أبو قير بفعل الحمم التى صبها عليه أسطول نيلسون ، وكأنما شاء القدر لحاكم الاسكندرية أن يفلت من مذبحه الأسطول ليلقى مصيره فى مذبحه أخرى أعدها له نابليون عقابا له على شجاعته وصلابته ورفضه التعاون مع الاحتلال .

وأعدت للبطل محمد كريم محاكمة صورية انتهت بصدور الحكم

عليه بالاعدام رميا بالرصاص ، وصدق نابليون على الحكم ، ولكنه كتب له تذييلا قال فيه : يمكن للرجل ان يفتدى نفسه اذا دفع مبلغ ثلاثين ألف ريال خلال أربع وعشرين ساعة . . (١١). مما يكشف عن حالة الافلاس التي اعترت الحملة الفرنسية بعد غرق الأسطول ، ودفعت نابليون الى البحث عن المال بأى ثمن وبأى وسيلة . وكان المشاع عن السيد محمد كريم انه يختزن ثروة طائلة من الذهب فى صفائح مدفونة تحت الأرض ، وظن نابليون ان الرجل سيهرع الى شراء حياته بالذهب . . ولكن خاب فآله . . وأظهر السيد محمد كريم تعففا عن المساومة على حياته ، وأظهر جلدا وشجاعة عندما سمع الحكم عليه بالاعدام ، ويروى المسيو (بوريين) الذى شهد المحاكمة ان المستشرق الفرنسى (فانتور) الذى تولى الترجمة . . نصيح محمد كريم بأن يفتدى حياته بدفع الغرامة ، فما كان من الرجل الا ان قال قولا يكشف عن عمق ايمانه : « اذا كان مقدورا على ان أموت فلن يعصمنى من الموت ان أدفع هذا المبلغ . . واذا كان مقدورا لى الحياة فعلام أدفعه !؟ » وظل الرجل على اصراره الى أن نفذ فيه الاعدام رميا بالرصاص فى ميدان الرميلا يوم ٦ سبتمبر ١٧٩٨ .

وقد روى الجبرتي رواية غريبة عن السيد محمد كريم فقال انه بعد سماعه الحكم أرسل الى المشايخ والتجار فحضر اليه بعضهم فترجاهم واستغاث بهم لكى يجمعوا له الفدية وصار يقول : « اشتروني يا مسلمين ، ولكنهم لم يغيثوه ، فقد كان كل انسان مشغولا بنفسه » .

ورواية الجبرتي عن مسلك السيد محمد كريم تختلف عن رواية المؤرخين الفرنسيين التى يرجحها الراقى على رواية الجبرتي، لأن رواية الجبرتي لو كانت صحيحة لما فات الفرنسيين أن يذكروها، ولما ذكروا رواية تشرف خصما لهم حكموا باعدامه ، هذا من جهة ،

ومن جهة أخرى فان رواية (بوريين) رواية شاهد عيان ، ولم يكن
الجبرتي شاهدا لهذه المحاكمة ، بل يغلب على الظن انه كان منزويا
في بيته بالصناديق في ذلك اليوم العصيب .

الشيخ صادومة

عاش المجتمع المصرى أواخر العصر العثمانى المملوكى أسوأ فترات حياته الثقافية والعقلية ، فقد انحطت الأخلاق ، واندثرت العلوم ، وفشا الجهل ، وسادت الخرافات والخزعبلات ، وخيم الركود على العقول والافهام ، وفقد العلماء روح الابتكار والتجديد ؛ وتجمدوا فى اطار التقليد والنقل عن الأسلاف ، وانطفأت الجذوة الخلاقة التى دفعت المسلمين الأوائل الى ارتياد آفاق العلوم واكتشاف أسرار الكون ، واقتصر الانتاج العقلى على القشور ، والاغراق فى التنجيم وقراءة الطالع وفنون السحر والشعوذة ، حدث هذا فى الوقت الذى قطعت فيه الشعوب الأوروبية شوطا بعيدا فى مجال الصحو العقلي والثقافية والعلمية منذ عصر النهضة الايطالية فى القرن الخامس عشر الى عصر الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وشهدت هذه القرون الأربعة حركة احياء الحضارة الانسانية العالمية بقدر ما كانت ديجورا حالكا للشعوب الشرقية ، فعاشت بمعزل عن تيار النهضة ، حتى فاجأتهم حملة نابليون وهم رقود فايقتهم من سباتهم ، ونقلتهم من ظلام العصور الوسطى الى عتبات العصر الحديث .

وكان حظ المصريين من ركام الجهل والتخلف .. فادحا ، فقد سيطرت عليهم عصبية من الآفاقين والمشعوذين راحوا ينفثون سمومهم ويتحكمون في مصيرهم عن طريق الخرافات ، والشعب يبتلع هذه السموم ويصدقها ويظنها من الدين بعد أن فقد القدرة على التمييز بين الحق والضلال ، وحدث أن أشاع هؤلاء المبطلون أنهم توصلوا عن طريق التنجيم الى معرفة موعد قيام القيامة ، وبلغ من فجورهم ان حددوا موعدا « بعد يومين » وصدق الناس الفرية ، وأخذوا يتهيأون لاستقبال القيامة حسب مواقفهم الخلقية ، فالصالحون منهم انكبوا على العبادة والتوبة والابتغال ، والفاسقون انغمسوا في العيب والمجون ليستمتعوا بالساعات القليلة المتبقية لهم في هذه الدنيا الفانية .. فلما مر الموعد المحدد دون أن يتحقق زيفهم ، راحوا يزعمون ان كبار الأولياء تشفعوا عند الله ليؤجل القيامة .. وقبل الله شفاعتهم .. !!

ويحكى الجبرتي هذه الواقعة تحت عنوان (من الحوادث الغريبة) : ففي يوم الاربعاء رابع عشر ذى الحجة عام ١١٤٧) أشيع في الناس بمصر بأن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشر ذى الحجة وفشا هذا الكلام في الناس قاطبة حتى في القرى والأرياف ، وودع الناس بعضهم بعضا ويقول الانسان لرفيقه : بقى من عمرنا يومان ، وخرج الكثير من الناس والمخاليع الى الغيطان والمتنزهات ، ويقول بعضهم لبعض : دعونا نعمل حظا ونودع الدنيا قبل ان تقوم القيامة ، وطلع أهل الجيزة نساء ورجالا .. وصاروا يغتسلون في البحر (النيل) ومن الناس من علاه الحزن وداخله الوهم . ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويبتهل ويصلى ، واعتقدوا ذلك ، ووقع صدقه في نفوسهم ، ومن قال خلاف ذلك أو قال : هذا كذب ! لا يلتفتون لقوله ، ويقولون : هذا صحيح .. وقاله فلان اليهودي وقلان القبطي وهما يعرفان في الجفـسور والزائرات (التنجيم)

ولا يكذبان فى شىء يقولانه ، وقد أخبر فلان منهم على خروج الريح الذى خرج فى يوم كذا ، وفلان ذهب الى الأمير الفسلانى وأخبره بذلك ، وقال له أحبسنى الى يوم الجمعة ، وان لم تقم القيامة فاقتلنى ونحو ذلك من وساوسهم ، وكثر فيهم الهرج والمرج الى يوم الجمعة المعين المذكور ، فلم يقع شىء ، وأصبح يوم السبت ، فانتقلوا يقولون : فلان العالم قال : ان سيدى أحمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا فى ذلك وقبل الله شفاعتهم ، فيقول الآخر : اللهم انفعنا بهم فاننا يا أخى لم نشبع من الدنيا .. وشارعون نعمل حظا .. ونحو ذلك من الهذيان ..



ولم يرد اسما البدوى والدسوقى فى هذه الخرافة عقوا .. وانما جاءوا بقصد التلاعب بعقول الناس وعواطفهم ، وايهامهم بسطوة الأولياء وقدرتهم على التحكم فى مصير الكون والتدخل لتأجيل القيامة !! فما بالك بمصائر الغلبة من بنى البشر الذين يتطلعون فى كل لحظة الى قوة القاهرة تخلصهم من الضنك والفاقة وجور النظام الحاكم ، وكانت خيوط هذه القوة المزعومة فى أيدي الأفاقيين من ادعياء التصوف الذين لبسوا المسوح والخرق ، وتظاهروا بالتقشف والزهد وساروا فى الأسواق يهذون بعبارات غامضة يعجز العقل السليم عن فهمها ويزعمون انها من الأسرار الخاصة بأهل الوجد والوصول ، وفى هذا المناخ المسموم راحت البدع والأباطيل تحت اسم الكرامات ، فلا يمر يوم دون ان يسمع أهل القاهرة عن ولى طار بلا جناحين أو شيخ طاف حول العالم فى غمضة عين ، وبلغ من سفه هؤلاء المشعوذين انهم نسبوا الى بعض الأولياء انهم يطلعون على اللوح المحفوظ ، ويحكى الجبرتى عن احدهم وهو الشيخ محمود الكردى الخلوتى انه « كان كثير المراءى لرسول الله صلى الله عليه

وسلم ، قل ما تمر به ليلة الا ويراه فيها ، وكثيرا ما يرى رب العزة
فى المنام ، ورأه مرة يقول له : يا محمود انى أحبك وأحب من
يحبك ، فكان رضى الله عنه يقول : « من أحببنى دخل الجنة » .

واذا كان الجبرتى العالم المتدين الذى ولد فى أحضان التصوف
يبدو مباركا ومصدقا لكرامات الأولياء ، الا انه اتخذ موقف الاستنكار
للمنحرفين الذين تاجروا بالتصوف وخرجوا به من دائرة السلوك
القويم الى مجال الدروشة والعبث والمجون ، وقدم لنا صورا وصفية
ساخرة لهؤلاء البهلوانات الذين كانوا يسرون فى شوارع القاهرة
وهم عرايا وخلفهم جموع من الصبية والحرافيش والزعر وهم
يحاولون الاقتداء بحركاتهم من حيث انتزاع الملابس و « التحنجل »
فى المشى ، والهديان بفاحش القول . والمؤسف ان هؤلاء الأدعياء
نجحوا فى السيطرة على عقول العوام ، بل ان تأثيرهم امتد الى بعض
العلماء .

ويقدم لنا الجبرتى نموذجا لهؤلاء المفسدين مثلا فى الشيخ
أحمد صادومة « وكان رجلا مسنا ذا شيبة وهيبه ، وأصله من
سمنود ، وله شهرة عظيمة وباع طويل فى الروحانيات وتحريك
الجمادات وكشف الخجب ومخاطبة الجن مشافهة ويظهر لهم بالعيان »
وكان من أكبر أتباعه الشيخ حسن الكفراوى الذى تولى افتاء الشافعية
فأخذ يزعم ان الشيخ صادومة من الأولياء وأرباب الأحوال والمكاشفات
.. وراح يروج له عند الأمراء والحكام .. ومع ذلك جاءت نهاية
الشيخ صادومة على يد أحد هؤلاء الأمراء .. وهو الأمير يوسف
بك الكبير ، فقد كان من أشد الناقمين على أصحاب البدع
والأباطيل ، وحدث ان اختلى هذا الأمير بأحدى جواريه فاكتشف
وجود كتابة على مكنى العفة من جسمها ، فأصابه الدهول ، فلما
سألها عن ذلك وهددها بالقتل ... اعترفت له بأن إحدى السيدات

ذهبت بها الى الشيخ صادومة فكتب لها هذه الكلمات ليحببها الى سيدها !! فما كان من الأمير الا أن ارتدى ملابسه وهو يشتعل غيظا ومضى من فوره الى بيت الشيخ صادومة ومازال يضربه حتى مات .. ثم أخذ في تفتيش منزله وأخرج منه أدوات السحر والدجل ومن بينها تماثيل مخزية وهو يصيح في الناس الذين تجمعوا .. ويقول لهم : انظروا أفاعيل المشايخ .. !!



مؤرخ الشعب

لم يكن عبد الرحمن الجبرتي مؤرخا حكوميا يكتب ما يرضى الحاكم ، ولكنه كان مؤرخا شعبيا من الطراز الأول يسجل ما يراه في أمانة ودقة ، دون ابتغاء مرضاة السلطة أو خوفا من سخطها ، ومثل هذا المسلك الأخلاقي لم يكن مما يعجب الحكام ، لأن الحاكم يريد من المؤرخين المعاصرين له أن يحرقوا له البخور وينتحلوا البطولات ، ويزيفوا الحقائق فيجعلوا من مخازيه مجدا ، ومن سوءاته عزا .. فان لم يفعلوا سخط عليهم وعصف بهم .. وهذا ما فعله محمد علي الكبير عندما نهي الى علمه ما كتبه الجبرتي عنه في صفحات ذاعت وشاعت وتداولتها أيدي الناس ، فلم يرحم شيخوخته .. وأوعز الى اعوانه فاغتلوا ابنه (خليل) أثناء سيره في شارع شبرا ، وارتاع الرجل وهو يتلقى جثمان ابنه الصريع .. وفهم بذلكاته دوافع الجريمة ، فامتلات نفسه هما وكمداء وظل البقية الباقية من أيامه يبكي ابنه حتى ابيضت عيناه من الحزن ، فكف بصره كما كفت يده عن الكتابة الى أن وافاه الأجل فغادر الدنيا حزينا مكلوما عام ١٨٢٥ .

لقد عاصر الجبرتي صعود نجم محمد على خطوة بخطوة ..
رآه جنديا مغمورا يغشى مجالس العلماء .. يتملق مشايخ الأزهر
ويصانعهم .. ويتظاهر بالتقوى والورع .. ثم يتقرب من زعيم شعب
القاهرة الطيب العفيف عمر مكرم .. ويقسم أمامه بأغلظ الايمان
أن يكون العادل الشفوق اذا آل اليه أمر مصر ، ثم رآه وهو يتلقى
الأمانة من اربابها ويتربع على عرش البلاد بارادة أبنائها ومشايخها
وأولى الأمر فيها ، ثم رآه مرة ثالثة وهو يتنكر لايمانه وعهوده
ومواثيقه ويتحول من حمل وديع الى نمر هصور يبطش بكل الذين
أعانوه ، فأمر بنفى عمر مكرم الى دمياط وأوعز بقتل حجاج الحضري
الزعيم الشعبى الذى قاد شعب القاهرة ليهتف باسم محمد على فى
القلعة حتى خلصت له مصر من دون الآخرين ، ثم رآه مرة رابعة وقد
أصبح الحاكم الفرد الذى لا ينازعه فى سلطانه أحد ، ولا يشاركه
فى حكمه مشارك ، وباتت مصر المحروسة ضيعة خاصة يتصرف فى
شئونها تصرف المالك فى ملكه !

● ماذا يفعل المؤرخ الأمين وهو يرى هذه التحولات الجسيمة
تتلاحق أمام ناظريه فى سرعة مذهلة ؟ ماذا يفعل وهو يرى آماله فى
« العدل » قد تحطمت على يد هذا الجندى الألبانى المغامر ؟ هل كان
عليه أن ينافق ويدهن ويساير الحكم الجديد كما فعل المنافقون
والأفاقون وخدام السلطة ؟؟

لم يكن الجبرتي يستطيع أن يسلك هذا المسلك المشين فى
مسايرة الطغاة لأنه يتعارض مع خلقه أولا .. ويتعارض ثانيا مع
منهجه فى كتابة التاريخ . وقد أعلن منذ السطور الأولى فى كتابه
(عجائب الآثار) أنه لم يقصد بكتاباتة خدمة ذى جاه كبير أو طاعة
وزير أو أمير .. « ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين
للأخلاق لميل نفسانى أو غرض جسمانى » .. ولذلك تصدى الجبرتي

لكل تصرفات محمد علي غير هياب .. ينقله ويدمغه ويصدر عليه أحكامه من منطلق ايمانه بفكرة « العدل » كما جاء بها الاسلام وبمعناها العريض الذي يتسع ليشمل « حدود الله » التي تحرم الجور والظلم والاعتداء على حرمان الأنفس والأموال والأعراض .



لقد ساء الجبرتي أن يرى محمد علي وقد تملكته نزعة الشره الى الأموال فيصادرهما دون سند من الشريعة ، ثم هو لا يتورع عن جمع الأموال بأخس الوسائل حتى لو تطلب الأمر شراء المحاصيل من الفلاحين بأسعار زهيدة ، وفرضها على الناس بأسعار باهظة ، وساء الجبرتي أن يرى الحاكم الجديد ينهج نهج كل جبار طاغية في كرم النقد ، وابعاد النصحاء الصادقين . وتقريب المتزلفين المنافقين ، واسناد الوظائف الرئيسية الى شذاذ الآفاق من الأغراب الذين تكالبوا على فتات مائدته .. انظر اليه وهو يصف محمد علي في جراءة محمودة فيقول . ان ولي الأمر اعتدى على مساتير الناس ، وأغلق البيوت المفتوحة لأن في طبعه داء الحقد والشره والطمع والتطلع الى ما في أيدي الناس وأرزاقهم ، ولم يكن له من الشغل الا صرف همته وعقله وفكرته في تحصيل المال والمكاسب وقطع أرزاق المسترزقين ، والحجر والاحتكار لجميع الأسباب .

ويتحدث الجبرتي عن أسلوب محمد علي في تقريب المنافقين وابعاد كل من يتجاسر على نصحه « ولا يتقرب اليه من يريد قربه الا بمساعدته على مراداته ومقاصده ، ومن كان خلاف ذلك فلا حظ له معه مطلقا ، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب - ولو على سبيل التشفع - حقد عليه ، وربما أقصاه وأبعده وعاداه معاداه من لا يصفو أبدا » .

ثم يعطينا الجبرتي صورة عن أخلاق وطباع محمد على السياسية فيقول : « وعرفت طباعه وأخلاقه في دائرته وبطانته فلم يمكنهم إلا الموافقة في المساعدة في مشروعاته : أما رهبة أو خوفا على سيادتهم ورياستهم ومناصبهم ، وأما رغبة وطمعا وتوصلا للرياسة والسيادة ، وهو الأكثر - وخصوصا أعداء الملة من نصارى الأرمن وأمثالهم الذين هم الآن أخصاء لحضرتة ومجسألسه ، وهم شركاؤه في أنواع المتاجرة ، وهم أصحاب الرأي والمشورة ، وليس لهم شغل ودرس إلا فيما يزيد حظوتهم ووجاهتهم عند مخدمهم » .

وساء الجبرتي أن يستخدم محمد على المكر والفدر والخديعة للايقاع بالماليك وذبحهم في القلعة رغم مقت الجبرتي لهم بسبب المظالم التي أنزلوها بالرعية ، ورغم أنه لم يخف شماتته فيهم حين دحرتهم جيوش نابليون ، إلا أنه لم يستطع مسايرة محمد على في الفتك بهم ، كما لم يستطع تأييد محمد على وهو يوفد جيشا من أراذل الترك ليهدم الدرعية على رؤوس أصحابها من أتباع محمد ابن عبد الوهاب . . . وكم حز في نفسه أن تقوم هذه الحرب الطاحنة بين المسلمين ، وحز في نفسه أكثر من ذلك أن يشهد موكب الأمراء السعوديين يطاف بهم في شوارع القاهرة مصفدين في الأغلال ، فيغضب قائلا : كيف تقتلون أناسا يقولون لا إله إلا الله . . . !!



● ● هل كان الجبرتي متحاملا في أحكامه على محمد على ؟!

ان معظم الباحثين الذين كتبوا عن الجبرتي لا يبرؤونه من شبهة الضغينة ضد محمد على بسبب الاجراءات الصارمة التي اتخذها الوالى الجديد ضد الفئات الثرية في المجتمع المصرى ، ولما كان الجبرتي ينتمى الى هذه الفئات فقد أصابه بعض ما أصابها من جور وظلم . . فامتلات نفسه مرارة وحقدا . . ولكن الامانة تقتضى مناقشة هذا الرأي في اطار من الموضوعية والحياد .

العدل أساس الملك . .

كانت الأحكام القاسية التي أصدرها الجبرتي ضد الوالي محمد علي انعكاسا أميناً لمفهومه لوظيفة الولاية وواجباتها كنظام للحكم . . وكان الجبرتي بحكم تكوينه الديني وثقافته الإسلامية يفهم الولاية على أنها عدل ورحمة ورفق بالرعية قبل أي شيء آخر ، فإذا انتفى العدل من الدولة فقدت موجبات قيامها ، ولا يقبل في ذلك عذرا بأن يقال ان الحاكم اضطر الى تأجيل العدل بعض الوقت لكي يتمكن من اقامة المشروعات العمرانية الكبرى التي يتطلب قيامها مصادرة الحريات والأهوال وحمل الرعية على الجادة حتى يزداد الانتاج ، ويعم الرخاء .

كان الجبرتي لا يفهم هذه الأعذار التي يطلقها بعض الباحثين عند حديثهم عن قسوة الجبرتي في معاملة محمد علي ، فيقولون ان الجبرتي عاصر بواكير عصر محمد علي ، وهي فترة الانتقال من عهد الى عهد ، فكان طبيعيا أن يقع فيها من الظلم والقهر والعنف ما وقع ، حيث كان الوالي مضطرا الى هدم أركان النظام القديم واقامة الدولة العصرية على أسس جديدة تستلزم تصفية الامتيازات الطبقية ، والسيطرة على اقتصاد البلاد ، واحتكار زراعتها وتجارتها وتسخير

أهلها وارهاقهم فى اقامة مشروعات جبارة تعود عليهم بالنفع فيما بعد . . ثم يقولون ان الجبرتى مات عام (١٨٢٥) قبل أن تؤتى هذه المشروعات ثمارها ، وربما لو امتد به الأجل - وشهد آثار هذه المشروعات لكان أكثر رفقا بمؤسس مصر الحديثة ، ولجاءت أحكامه عليه أقل تحاملا وأكثر رشدا .

ولقد كان من الممكن قبول هذا الافتراض لو كانت أحكام الجبرتى على محمد على تتسم بالعمومية والشمول ، فيدمغ عهده كله ولا يرى فيه الا النقائص والعيوب ، ولكن الواقع كان خلاف ذلك ، فالجبرتى لم يتجاهل الاشادة ببعض الأعمال الجلييلة التى عاصرها فى دولة محمد على ، ولم يغض النظر عن بعض الصفات الحميدة التى كان يتحلى بها الرجل ، فكان يصفه بالحركة والنشاط (بحيث لا يقر له قرار ويقول انه كان فى أيامه الأولى دائم الخروج الى نواحي القاهرة وزيارة شيوخ الأزهر وكان كثير الانفراد بالسيد عمر مكرم) . . ولا يخفى الجبرتى اعجابه بالمشروعات العمرانية التى أقامها محمد على قبل بناء سد الفرعونية الذى حال دون طغيان ماء البحر المالح على الأراضى الزراعية ، واصلاح بوغاز رشيد ، وحفر ترعة المحمودية ، وتعمير مدينة الاسكندرية . . ووصف هذه الأعمال بانها (من همم الملوك) وقال عن صاحبها انه (كانت له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان ، ولو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والثقافة والتدبير والمطاولة ، لكان اعجوبة زمانه ، وفريد أوانه .

لم يكن الجبرتى اذن ناقما على الوالى على طول الخط ، ولا كان راضيا عن كل تصرفاته أو مبررا لكل فعل منفعاله كما يسلك المؤرخون الحكوميون ، وانما عبر عن رضائه عنه أو سخطه عليه فى المواقع التى تستحق هذا أو ذاك ، وكان مقياس الرضا والسخط

عنده توافر شرط العدالة فاذا تحقق همل وكبر ، واذا انتفى سخط
وتضعز ، ولقد طبق مؤرخنا هذا المقياس الموضوعى على مؤسسين
مصر الحديثة كما طبقه على كل الحكام الذين عاصروهم وما أكثرهم .

لقد عايش الجبرتى الحكم العثمانى طوال النصف الثانى من القرن
الثامن عشر ، وشهد حركة على بك الكبير - ثم اخفاقها . . وشهد
الصراعات الدامية التى وقعت بعدها بين الأمراء المماليك وجعلت من مصر
دويلات متناجرة ، وشهد مقدم الحملة الفرنسية ثم رحيلها ، وشهد
عودة الشرادى العثمانية التى أشاعت الفوضى والارهاب فى أنحاء
البلاد ، والتى انتهت بانفراد محمد على بالسلطة وهو فى كل هذه
التقلبات يرى الحال تسير من سيىء الى أسوأ فيتمثل قول الشاعر:

رب يوم بكيت منه فلما صرت فى غيره بكيت عليه



وعلى هذا يجب أن نفهم سر تباكيه على أيام المماليك وهو يرى
الفساد والفجور والانحلال فى ظل الفرنسيين ، ثم نراه يتباكى على
أيام الفرنسيين وهو يرى جحافل الانكشارية والوجاقلية والدلاة
والأرنؤوط يستحلون حرمت البلاد ، وقد دخلوها بعد رحيل
الفرنسيين فاعتبروا مصر أرضا مفتوحة من حقهم ان يستعبدوا
رجالها ، ويسبوا نساءها ، ويهتكوا أعراض بناتها وغلمانها . . فاذا
اشتكى المصريون الى الباشا أو وكيله قال لهم : (أناس قاتلوا
وجاهدوا أشهراً وأياماً وقاسوا ما قاسوه فى الحر والبرد والطل
حتى طردوا عنكم الكفار وأجلوهم عن بلادكم . أفلا تسعونهم فى
السكن ؟) وحين سئل القاضى التركى فى شأن هذه الأعمال الاجرامية
أفتى بان مصر جميعها أصبحت (دار حرب) وقد آلت ملكيتها جميعها
الى السلطان (بحق الفتح) بعد طرد الفرنسيين منها . . ولكن

الجبرتي - المسلم المثقف الذي يفهم الشريعة فهما صحيحا خاليا من الخزعبلات والأباطيل - يرفض هذه الحجج الهابطة التي تحاول أن تقنن الفساد وتبحث له عن ذريعة في اطرار الدين ، ولم ينخدع الجبرتي بالشعارات التي كانت تتحرك تحتها هذه الفيالق المتوحشة وانما جاء حكمه عليها موضوعيا نابعا من ايمانه بأن الاسلام يأمر بالعدل والاحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وان الخروج على هذه القيم هو خروج على الدين ، وكان يرى أن هؤلاء الوحوش لا يؤمنون بالاسلام . . (ولا يتدينون بدين ولا ينتحلون مذهباً ، وكانت تصحبهم صناديق المكسرات ولا يسمع في معسكرهم أذان ، ولا تقام فيه فريضة ، ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين) .

ويصف الارنؤوط بأنهم شر من مشى على الأرض . . وان الواعظ منهم لو رجع الى بلاده لرجع الى حالته التي كان عليها في السابق ، في الخسدم الممتهنة والاحتطاب في الجبل والتكسب بالصنائع الدنيئة ببيع الاسقاط والكروش والمؤاجرة في حمل الامتعة) .

فاذا استتب الأمر لمحمد على واستطاع أن يستأصل هذه الوحوش الكاسرة بالقتل حيناً ، وبالنفي حيناً . . ألم يكن ذلك شفيعاً له عند الجبرتي فيخفف من غلوائه في الحكم عليه ! خصوصاً وقد عاش مؤرخنا خمسة عشر عاماً فقط من بداية دولة محمد على ظهرت خلالها ملامح الدولة العصرية ، وتشكل الجيش المصري الحديث على أنقاض الفرق المرتزقة . . هل كان عسيرا على مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتي أن يتجاوز نطاق مفاهيمه الراسخة فيتعاون مع النظام الجديد لتحقيق أهدافه الكبرى والنهوض بمصر من أكفان القرون الوسطى الى أعتاب العصر الحديث ! سؤال ينتظر الجواب .

وجها لوجه .. !

كان الصراع بين مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتي ، ومؤسس مصر الحديثة محمد علي باشا صراعا حتميا لا يمكن تلافيه .. انه الصراع الازلي بين أنصار الحق والعدالة والحرية واحترام الكرامة الانسانية ، وأرباب القوة الغاشمة ، الذين يستبيحون الحريات ويمتهنون العدل ، ويبطشون بالحقوق العامة من أجل بناء الدولة القوية .. ثم لا يلبث البنيان أن ينهار وتتقوض أركانه لأنه خلا من اللبنة الأساسية : قوة الانسان الفرد التي تتجلى في مناخ الحرية والاحساس بالعدل ، وتنكمش ثم تزول تحت نير الاستعباد والقهر والاستبداد ..

تلك هي عبرة التاريخ على مدى العصور منذ وجد حكام مستبدون ومحكومون ضعاف ، وذلك هو جوهر الصراع بين مؤرخنا المستنير ، وحاكمنا الطاغية ..

لقد عايش الجبرتي عهود الظلم ممثلة في المماليك والعثمانيين والفرنسيين ، ولقد داعبه الأمل في زوال هذه الصفحة الكئيبة بعد أن يختار المصريون حاكمهم بارادتهم ، وراودت خواطره أحلام وردية

فى عهد جديد يسلك فى الرعية مسلك العدل والرفق .. وربما خدعته الوعود التى سكبها الثعلب الألبانى فى اذن زعيم الشعب الطيب عمر مكرم ، وليس من المؤكد ان الجبرتى كان واحدا من أهل الحل والعقد الذين صعدوا الى القلعة فى مايو ١٨٠٥ ليشبتوا محمد على على عرش مصر ، ولكن المؤكد انه كان واحدا من جمهرة العلماء الذين أحسنوا الظن بالعهد الجديد ، وانتعشت آمالهم فى حكم جديد يفاير النظم السابقة التى أسرفت فى الظلم والطغيان ..

● ● ولكن .. كم كانت خيبة الأمل عنيفة مدمرة .. وهم يرون أحلامهم فى العدل تتبدد !! فالحاكم الجديد لم يكن سوى نسخة معدلة من الطغاة السابقين .. يسلك نفس مسلكهم فى البطش ، بل يفوقهم فى سعة الحيلة والدهاء والخبت .. شيئا فشيئا أصبح هو المالك الوحيد لكل مقدرات مصر .. بدءا من رقاب البشر .. وانتهاء بالدراهم الشحيحة التى تدخل جيوبهم بعد شقاء النهار الطويل .. واكتشف الفلاحون انهم لم يتحرروا من ذل العبودية القديم ، وان نتاج كدهم وتعبهم هو حق مسلوب لحساب الحاكم ، فماذا يفعلون ؟ هربوا .. تركوا الأرض قاحلة وهاجروا الى المدن ليعملوا فى المهن الحقيرة .. فلما تعقبهم كرباج الحكومة زحفوا الى الشام فى هجرة جماعية ، كانت سببا فى حملة عسكرية شنها محمد على لتعود بالفلاحين الهاربين ومعهم والى عكا - أحمد الجزار - عقابا له على أيوائه لهذه الجحافل الجائعة ..

كان محمد على يريد انشاء دولة حديثة قوية .. ووضع خطة طموحة لاقامة العديد من المشروعات الكبرى ، مثل شسق الترع والمصارف وبناء السدود والقناطر .. ولكنه لم يعط أدنى اهتمام بالانسان المصرى الذى يقوم بتنفيذ هذه المشروعات .. كان الوالى يستخدم السخرة والكرباج فى اجبار المصريين على العمل فى ظروف بالغة القسوة .. كان الآلاف يهلكون جوعا وضنكا واعياء !! .. فما

قيمة المشروعات اذا أهدرت آدمية المواطن ؟! وكان محمد على يسعى الى انشاء جيش قوى من الفلاحين المصريين .. وهذا هدف قومى جليل .. ولكن كيف يمكن الفصل بين الهدف والوسيلة ؟ وكيف يمكن الاطمئنان الى الروح المعنوية لهذا الجندى ، ونحن نعلم الوسائل الوحشية التى كان يسلكها محمد على فى تجنيد الفلاحين ، وكيف كانت قواته الكاسرة تهبط على القرية كالاعصار المدمر فتأسر كل من يقع فى يديها من رجال وشيوخ ونساء وأطفال ، ثم تسوق الجميع فى حبال غليظة الى مراكز التجنيد قسرا .. !! وكان محمد على فى حاجة الى المال فلم يترك سبيلا من سبل التحايل الا سلكه ، حتى جعل من نفسه شريكا لكل صاحب حرفة مهما بلغت دناءتها ، وتلفت المصريون فوجدوا أنفسهم فى غاية الضيق والفاقة ، فلما ذهب العلماء - أهل الحل والعقد - ليزكروا الحاكم بوعوده السابقة ، لم يجدوا منه سوى الازدراء الذى تحول بعد قليل الى حركة رجعية لاختاد كل صوت معارض ، وتقريب كل منافق جهول من أجلاف الأرمن والترك واليهود .

عندئذ صاح الجبرتى على لسان الأمير الشهير محمد بك الألفى وهو يلقي سلاحه الأخير ، ويودع الحياة مقهورا ، فخرج الى ربوة عالية على مشارف شبراخيت وتلفت الى الأفق الدامى قائلا : « يا مصر .. انظرى الى أولادك وهم حولك مشتتون ، متباعدون ، مشردون ، واستوطنك اجلاف الأتراك واليهود ، وأراذل الأرثوود ؛ وصاروا يقبضون خراجك ؛ ويحاربون أولادك ويقاثلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك » .. ولم يزل الألفى يردد هذه المرثية حتى تحرك به خلط دموى .. ثم تقيأ دما .. فكانت آخر كلماته : « قضى الأمر .. وخلصت مصر لمحمد على .. وما ثم من ينازعه ويغلبه .. » .

● ● ماذا كان موقف الجبرتي وهو يرى آماله في النظام الجديد قد خابت ؟ هل كان عسيرا عليه ان يساوم .. أو يداهن .. أو يجارى الحاكم المستبد الذى يرتكب الظلم بحجة بناء الدولة القوية ؟!

أجل .. كان عسيرا على الجبرتي الحسام دائما باطيا فى العدل ، والكاره أبدا لكابوس الظلم أن يساوم على مبادئه ، فكانت القطيعة النهائية بين قطبين متنافرين - على حد وصف المؤرخ الكبير أحمد خاكي - أحدهما يمثل أسى ما وصلت اليه فكرة العدل فى الاسلام .. بل فى تاريخ الأمم ، لدرجة أنه كان يرى أن ما نزل بعشيرته وأهله المصريين من بلاء ، إنما سببه أنهم لم يرعوا حدود الله ، ولم يقفوا فى وجه الجبارين ، فلقوا جزاء ما قدمت أيديهم .. وما ربك بظلام للعبيد ، أما القطب الآخر فيمثل « القوة » بمعناها الغشوم : قوة السلاح والدهاء والخبث ، وهى القوة التى آلت الى العناصر التركية التى سيطرت على دار الاسلام منذ عصر الخلافة العباسية ، ولم يكن لها مصلحة سوى استنزاف موارد البلاد ، فهى قوة لا تعرف الرحمة أو الشفقة بالرعية . وكان محمد على آخر العنقود فى هذه السلسلة الحديدية .

وفى ضوء هذا التنافر ينصحنا الأستاذ خاكي بأن ننظر الى الرجلين كممثلين للحضارة الاسلامية ، الأول يمثل خير ما خلص له من الشريعة فى سياسة الناس ، والثانى يمثل أكثر الوسائل فعالية - فى نظره - لحكم شعب لا حول له ولا قوة ، وسوف نلاحظ أن هذه القطيعة بين الحاكم المستبد والمحكومين الضعاف الجهلة ستسرى فى تاريخ مصر طوال القرن التاسع عشر وما بعده ، حيث كان المصريون - على حد وصف سعد زغلول - ينظرون الى الحكومة نظرة الطائر الى صائده .. لا نظرة الجندي الى قائده ..

الأفندية في باريس

كان محمد علي الكبير رائد الاستنارة العقلية والثقافية لمصر الحديثة ، رغم انه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب . . . فهو الذي وضع بيده البذرة الأولى التي أينعت وأثمرت تلك الشجرة الفيعاء التي أفادت علي مصر ظلال العلم والعرفان ، وهو الذي شيد صرح التعليم الحديث ممثلا في مئات المدارس الابتدائية والتجهيزية (الثانوية) والعالية ، وتكونت من خريجها طليعة الطبقة المثقفة التي صنعت مجد مصر . . . ولا ننكر أن محمد علي هو الذي حرر أولاد الفلاحين المصريين من ظلام الجهل الذي ضرب عليهم قرونا طويلة ، وهو الذي بعث بهم الى جامعات أوروبا لينهلوا من منابع العلوم الحديثة ، وهو الذي ساقهم - بالترغيب حيناً وبالترهيب حيناً آخر - الى المدارس العالية ليتعلموا فنون الهندسة والطب والزراعة والميكانيكا والطباعة والحفر والطبيعة والكيمياء . . . بعد أن كان قصارى حظهم من التعليم أن يترددوا على الكتاتيب ليحفظوا القرآن الكريم ويتلقنوا مبادئ الكتابة والحساب . . . ثم لا يلبثوا ان يرتدوا الى ظلام الأمية بغد حين ، أما من أسعده الحظ منهم بالمجاورة في الأزهر ، فكان جل حصيلته قشورا من العلوم الشرعية لا تسمن ولا تقنى من جوع ولا تفلح في صناعة عالم :

أدرك محمد علي - هذا الجندى المغامر - أنه لا سبيل أمامه لبناء مصر الحديثة الا بالاعتماد على سواعد أبنائها ، بعد أن خذله الترك وتآمر عليه المماليك ، وأدرك أن السبيل الوحيد لنهضة المصريين هو خلق طبقة من أبنائهم تتعلم أسرار التقدم ، فانتقى النوابغ من خريجي المدارس وبعث بهم الى أوروبا ليكتشفوا هذا العالم الذى تحرك من حولهم وهم قعود ، ثم عادوا ليكونوا نواة الطبقة المثقفة التى قادت حركة التنوير .

وبلغ من اهتمام محمد علي بأعضاء البعثات أنه كان يتقصى أخبارهم ويتتبع سلوكهم وتصرفاتهم وهم فى بلاد الغرب ، ويواليهم بالنصائح والارشادات مثلما يفعل الأب الحريص على مستقبل أولاده . ويكتب اليهم بين الحين والحين رسائل يستحثهم فيها على الاجتهاد والتفرغ للتحصيل حتى يعودوا الى وطنهم وهم على أحسن حال . وهذه رسالة أوردها رفاعه الطهطاوى - الرائد الدينى للبعثة الأولى - فى كتابه المشهور « تخليص الأبريز فى تلخيص باريز » وتلمس فيها قلق الأب الذى ينتظر عودة ابنه وعلى رأسه تاج العلوم :

« قدوة الأمائل الكرام الأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون ، زيد قدرهم ، ننهى اليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية ، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم « ثلاثة أشهر » مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة . وما فهمنا منها شيئاً ، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياساً على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الأمر غمنا كثيراً ، فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من ثمار شغله وآثار مهارته ، فاذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد

والغيرة ، وجئتم الى مصر بعد قراءة الكتب ، فظننتم انكم تعلمتم العلوم والفنون فان ظنكم باطل ، فعندنا والله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة ، فكيف تقابلونهم اذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغي للانسان ان يتبصر في عاقبة أمره ، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة وان يجنى ثمرة تعبهِ ، فبناء على ذلك انكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة ، وتركتم أنفسكم للسفاهة ولم تتفكروا في المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك ، ولم تجتهدوا في كسب نظرنا ، وتوجهنا اليكم لتتميزوا بين أمثالكم ، فاذا أردتم أن تكتسبوا رضائنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون ، وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر ، ويبين زيادة على ذلك درجته في الهندسة والحساب والرسم ، وما بقى عليه في خلاص هذه العلوم ، ويكتب في كل شهر ما يتعلمه في هذا الشهر زيادة على الشهر السابق ، وان قصرتم في الاجتهاد والغيرة ، فاكتبوا لنا سببه ، وهو اما من عدم اعتنائكم أو من تشويشكم ، وأى تشويش لكم : هل هو طبيعى أو عارض ، وحاصل الكلام انكم تكتبون حالتكم كما هي عليه حتى نفهم ما عندكم ، وهذا مطلوبنا منكم ، فاقراوا هذا الأمر مجتمعين ، وافهموا مقصود هذه الارادة ، وقد كتب هذا الأمر في ديوان مصر في مجلسنا في الاسكندرية بحنة الله تعالى .

نابغة الطب المصرى

كان الدكتور محمد على البقلى باشا انبغ جراح وأشهر طبيب عيون انجبتة مدرسة الطب المصرية التى أنشأها كلوت بك لحساب سيده محمد على باشا الكبير لتخريج أطباء يخدمون فى الجيش المصرى ، وبعد رحيل كلوت بك تولى البقلى باشا الاشراف على مدرسة الطب وأصبح كبير أطباء وجراحى مستشفى قصر العينى ، وقد كبر على الاطباء الأجانب ان يصل طبيب مصرى الى هذا المركز الرفيع فنقموا عليه ونجحوا فى تنحيته عن منصبه فى عهد عباس الأول فعين طبيباً فى أحد مستشفيات القاهرة فانتقلت معه شهرته ، وأصبح مستشفاه قبلة الجماهير من كل أنحاء مصر ، وكان مستواه الخلقى لا يقل عن مستواه العلمى ، اذ كان دائم العطف على الفقراء ويعفيهم من أجر العلاج اذا استشعر فيهم عجزاً وفاقة ، أما عن نبوغه العلمى فتشهد عليه مؤلفاته التى كانت أولى المراجع بالعربية لطلبة الطب ومن أشهرها كتابه عن الجراحة الصغيرة وسماه « روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى » وطبع عام ١٨٤٣ ، وكتاب « غرر النجساح فى أعمال الجسراج » عام ١٨٤٦ وكتاب « نشر الكلام فى جراحة الأقسام » وكتاب فى العمليات الجراحية الكبرى فى مجلدين وسماه « غاية الفلاح فى أعمال الجراح »

كما شارك في عام ١٨٦٥ في اصدار أول مجلة طبية عربية في مصر
وهي مجلة « يعسوب الطب » وقد وصفه على باشا مبارك في الخطط
التوفيقية بالعالم النحرير والعلم الشهير .



ولد محمد علي البقلي سنة ١٨١٥ في قرية من قرى المنوفية
اسمها زاوية البقلي اشتهرت بتخريج العديد من النوابغ فقال عنها
على باشا مبارك « ان هذه القرية وان كانت صغيرة لكنها اختصت
بدون غيرها بمزية كثرة من ترقى منها في الوظائف السنية والخدمات
الميرية من علماء الشريعة والرياضة والحكمة والطبيعة . »

وتلقى محمد علي البقلي علومه الاولى في كتاب القرية فلما بلغ
التاسعة انتقل الى كتاب ابي زعل حيث اتم تجويد القرآن الكريم ،
وانتقل بعدها الى مدرسة ابي زعل التجهيزية التي كانت في مستوى
المدارس الثانوية وهناك ظهرت عليه علامات النجابة فكان اول فرقته
فدخل مدرسة الطب ، وتعلم على كلوت بك الذي اكتشف فيه
استعدادا طيبا لدراسة الطب فاق مستوى اقرانه ، فلما اتم دراسة
الطب اختاره كلوت بك ضمن البعثة التي ارسلت الى فرنسا للتخصص
في العلوم الطبية ، فالتحق بمدرسة الطب بباريس ، وانصرف الى
تحصيل العلم وأبدى من مخايل النبوغ ما جعله يتفوق على دفعته
رغم كونه أصغرهم سنا ، وشهد له جميع أساتذته بالعبقرية وتوقعوا
له مستقبلا باهرا .

وعاش الشاب محمد علي البقلي في باريس دون أن ينسى أهله
في زاوية البقلي . فكان يترك لأمه خمسين قرشا من جملة الراتب
الشهرى المخصص لطالب البعثة وقدره مائة وخمسون قرشا ويكتفى
بجنية واحد يعيش به في باريس ، ولما فرغ من دراسة الطب قدم
رسالته الجامعية عن الرمد الصديدي في مصر ، وبعد حصوله على

الدبلوم فى عام ١٨٣٨ عاد الى وطنه فعين مدرسا للجراحة والتشريح
بمدرسة الطب وكبيرا لجراحى المستشفى ، ونال رتبة (صاغ) فى
الجيش ، وفى عهد عباس الأول تعرض للاضطهاد من جانب الاطباء
الأوروبيين فنجحوا فى زحزحته عن مركزه المرموق فى مستشفى قصر
العينى ، وفى عهد سعيد رقى الى رتبة القائمقام وعين كبيرا لاطباء
الجيش ، ثم عاد الى منصبه كبير جراحى قصر العينى ووكيلا لمدرسة
الطب ، وأنعم عليه سعيد برتبة أميرالاي وجعله طبيبه الخاص
بالإضافة الى مناصبه العلمية ؛ فلما تولى الخديو اسماعيل عينه
ناظرا لمدرسة الطب ورئيسا لمستشفى قصر العينى وشجعته على
اصدار مؤلفاته العلمية لتكون مرجعا لدارسى الطب .



ولقد كان من المفترض أن تمضى حياة هذا الرائد المصرى
الكبير - وقد بلغ سن الشيخوخة - الى نهايتها فى هدوء وسكينة
كما تمضى حياة أى عالم معطاء ، لولا السياسة الخرقاء التى سلكها
اسماعيل فى التوسع الخارجى ، وتحميل خزانة مصر المرهقة أعباء
مالية هائلة للانفاق على حروب ارتجالية ليس لها من هدف سوى
اظهار الخديو - فى نظر الأوروبيين - بمظهر فرعون صاحب الذراع
الطويلة التى تصل الى أقاصى الدنيا .

وكانت حملة الحبشة هى ذروة الخبال الذى أصاب اسماعيل ،
ورغم الهزائم المتوالية التى منيت بها الجيوش المصرية على الحدود
الحبشية ، فقد زين له مستشارو السوء والمنتفعون من خيالاته أهمية
غزو الحبشة لاعادة الهيبة المصرية الى نفوس الأوروبيين واذلال
النجاشي الذى تصدى للطلائع المصرية ولم يسمح لها بالتوغل فى
أراضيه ، وانساق اسماعيل وراء هذه الأوهام والخزعبلات وجهاز
حملة أوكل قيادتها الى ضابط شركسى هو راتب باشا وعهد بقيادة

الأركان الى ضابط أمريكي اسمه « لورنج » وضمت الحملة خليطا من شتى الأجناس والملل من الضباط المرتزقة وكلهم طامع في المرتبات الخيالية التي كان يدفعها اسماعيل ، ويكفى ان تعلم أن السفينة (الدقهلية) التي أقلت الحملة من السويس الى مصوع كانت أشبه بهيئة أمم بحرية ، وتدور على ظهرها اللغات : العربية والتركية والانجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والنرويجية على ما يذكر المؤرخ الياس الأيوبي ، ولم يكن بينهم أى احساس مشترك بجدية الهدف الذي يمضون اليه سوى الاعتراف من خزانة مصر .



وطلب الخديو من الدكتور محمد على البقلي باشا أن يرافق الحملة فلم يسعه سوى القبول والطاعة ، وشاء قدره أن يشهد المذبحة الدموية الرهيبة عندما أحاط الأحباش بالقوات المصرية وانساحوا عليها من التلال كالجراد المنتشر ، وأعملوا السيوف والحراش في الجنود المصريين حتى أبادوهم ، وقادوا من بقى منهم على قيد الحياة الى معسكرات للاعتقال لاقوا فيها من صنوف الهوان والذل ما يندى له الجبين ، ويكفى ان تعرف من جرائم الأحباش أنهم كانوا (يخلصون) الأسرى قبل تسليمهم . ووقع الدكتور البقلي ومعه جندي سوداني في أسر جندي حبشي قادهما سيرا على الأقدام الى معسكر الأسرى وكان يقع على مسافة بعيدة ، وكان طبيعيا ان يعجز الدكتور البقلي باشا - وهو الشيخ الفاني - عن الهرولة ، فما كان من الجندي الحبشي الا أن أمر الجندي السوداني بقتل رفيقه لكي يتخلص من بطئه ومن اضطرابه الى اطعامه ، وأذن الجندي السوداني لتعليمات أسره . . . فزهق روحه . . . ثم تركا جثته في العراء وواصلوا المسير . . .

عاشق النهر الخالد

عندما يتحدث المصريون عن الحملات التي تمت خلال القرن الماضي لاكتشاف منابع النيل ، فإنهم يذكرون أسماء صموئيل بيكر وسبيك وجرانت واشباههم من الرحالة الأوروبيين ، وينسون أن أول محاولة علمية لاكتشاف منابع النهر إنما قام بها ضابط مصري عظيم هو الفريق محمد سليم باشا القبطان الذي تجاهلته كتب التاريخ الرسمية ، فلم يتحدث عنه من قريب أو من بعيد تأثرا بالعقدة التي أصبنا بها في مراحل الضعف بسبب انعدام الثقة بالنفس ، واعتنى بها عقدة « الانبهار بالغرب » ، والتعلق بكل ما هو غريب .. وجحود كل ما هو وطني .. أو مصري .. !!

ومما يضاعف من الانحساس بالألم ، أن الأوروبيين كانوا أكثر تقديرا لهذا الضابط المضرى الشجاع الذى عاشق النهر فقاد ثلاث حملات فيما بين عامي ١٨٣٩ - ١٨٤٢ الى أعالي النيل لكشف أسواره وفض مغاليقه ، وكان للنتائج التي أسفرت عنها حملاته دوى عظيم في المحافظ العلمية في كل أنحاء القارة الأوروبية ، واليك مثالا مما كتبه مسيو « جومار » العلامة الفرنسي الذى جاء الى مصر ضمن رهنط العلماء المرافقين لبونايرت ، ولم تنقطع ضلته الثقافية بمصر بعد:

عودته الى بلاده فاستعان به محمد على فى الاشراف على البعثات المصرية التى كان يوفدها الى باريس ، كتب « جومار » فى مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية يصف اكتشافات سليم القبطان بأنها : « باكورة ثمار الحضارة التى انبعث ضوؤها فى مصر منذ ربع قرن ، وهى صالحة ، ولا بد أن تبقى كذلك لتكون قاعدة للاستكشافات التالية » كما وصفها الدكتور « فريدريك بنولا » الذى مثل مصر فى مؤتمر الجغرافيا الدولى المنعقد فى باريس عام ١٨٨٩ بأنها : « كانت السبب فى الحصول على المعلومات التى وصل اليها العلماء بعد ذلك ، بل هى الأساس الذى نبنى عليه حل مسألة النيل » وذلك بفضل ما قامت به من الدراسات الطبيعية والجغرافية لمجرى النيل الأبيض ، وما كشفت عنه من الجهات والقبائل فى هذه المناطق النائية التى كانت حتى ذلك الوقت لا تزال مجهولة ، ومهدت السبيل لارتداد هذه المناطق العليا للنيل ، والكشف عن منابعه وحل هذا اللغز الجغرافى القديم .

وعن شخصية المكتشف المصرى العظيم يقدم لنا الدكتور نسيم مقار فى كتابه الوثائقى عنه صورة يكتنفها الغموض حول نشأته الأولى ، فالذين عاينوه أو رافقوه فى حملاته الكشفية لم يتعرضوا كثيرا لنشأته وكل ما يعرف عنه أن أصله من جزيرة كريت ، وقد حضر الى مصر فى صباه واندمج فى المصريين واختلط بهم حتى صار مصريا ، والتحق بالبحرية المصرية على عهد محمد على حيث عمل ضابطا بحريا فى ترسانة الاسكندرية ثم عهد اليه مؤسس مصر الحديثة بهذه المهمة التاريخية التى جعلت منه بطلا وخلدت اسمه فى سجل التاريخ ، والأمر المثير للدهشة أن كل المعلومات المتوافرة حول شخصية سليم القبطان إنما مصدرها الأوربيون الذين رافقوه فى رحلاته الكشفية ، وسجلوا ملاحظاتهم عن أخلاقه وتصرفاته وأسلوبه أثناء قيادة الحملات .

يقول المهندس الألماني « فرن » الذي رافقه في الحملة الثانية :
« ان سليم كان طموحا راغبا في الشهرة ، تواقا الى أن يحقق لنفسه
مجدا كبيرا وفخرا عظيما . . . وكان - على غير ما كنت اعتقد -
شجاعا ذكيا نشطا مدركا لخطورة المنصب الذي يتولاه وعظم المسؤولية
الملقاة على عاتقه ، بصيرا بكل ما يحيط به وهو يمتاز باللباقة ،
ويتحفظ في كلامه مع رفقائه من المهندسين الفرنسيين ويحرص على
استشارتهم في المسائل الهامة واحترام آرائهم حتى لا يثير غيرتهم
وحفيظتهم عليه » .

ومن خلال التقارير اليومية التي كان يكتبها سليم القبطان أثناء
رحلته في مجاهل النيل يكتشف الدكتور مقار أن الرجل كان
متدينا شديدا التمسك بأداء الشعائر الدينية وإقامة الصلوات في
وقتها ، وعندما حل شهر رمضان المعظم والحملة تأخذ طريقها في
مجرى النيل الأبيض حرص القبطان على تأدية فريضة الصوم كاملة
على الرغم من أن الدين يبيح الفطر للمسافر ، ولما حل عيد الفطر
سنة ١٢٥٥ هـ أمر الجنود بإطلاق المدافع من جميع السفن ورفع
الأعلام ابتهاجا بالعيد ، وفعل نفس الشيء عندما حل عيد الأضحى
وأدى صلاتي العيدين مع الضباط والعساكر على ظهور المراكب
والذهبيات ، كما دفعته نزعته الدينية الى الحلم ، والنفور من
العدوان ، ففي أثناء سير الحملة كانت تصادفه على شاطئ النيل
الأبيض بعض الجماعات التي تميل بطبيعتها الى الشر ، وتقوم
بمظاهرات عدائية نحو رجال الحملة ، فكان يمتنع عن اطلاق النار
عليهم ، ويبادر الى اظهار نواياه الحسنة نحوهم ، فيرسل اليهم
ترجمانه ليلغهم رغبته في مقابلتهم ليتحف كلا منهم ببعض الهدايا ،
كذلك لم يكن سليم القبطان يميل الى الاستبداد ، وانما كان يميل
بطبيعته الى الشورى ، وفي جميع المواقف التي تعرضت فيها الحملات
الكشفية للمخاطر ، كان سليم يبادر الى عقد المجالس مع ضباطه

ومهندسيه للتشاور فى الأمر ثم يصدر قراره فى النهاية بناء على رأى الأغلبية ، ولكنه كان فى الوقت نفسه حازما صارما الى درجة ملحوظة فى تطبيق اللوائح والعقوبات على كل من يتهاون من الضباط والعساكر ، أو من يغتصب من أحد المواطنين شيئا مهما كان تافها .

وكان من أثر هذه الصفات الشخصية القوية أن نجح سليم القبطان فى أداء المهمة الجليلة التى خلدت اسمه وجعلته مقترنا باسم النهر الخالد ، فكانت حملاته طليعة الحملات اللاحقة التى تمت فى عصر اسماعيل مسترشدة بالنتائج العلمية الباهرة التى عاد بها سليم القبطان، وكان لها تأثير بعيد المدى فى تطور أحوال المجتمع السودانى، ويكفى أنها فتحت طريق الملاحة والتجارة فى مناطق النيل العليا وربطت بين شمال السودان وجنوبه ، وألقت الضوء على جنوب السودان الذى كان حتى ذلك الوقت يعيش فى عزلة تامة عن المجتمع الانسانى .



أبو الاستبداد

كان أول مطلب للعراقيين - يوم مظاهرة عابدين في ٩ سبتمبر ١٨٨١ - عزل رئيس الوزراء مصطفى رياض باشا ، لما يمثله من نزعة استبدادية وهيل للحكم المطلق ونفور من الدستور وكل ما يمت الى الحياة النيابية والحقوق الشعبية بصلة . ويتفق المؤرخون على أن وجود رياض باشا على رأس الحكومة آنذاك ، كان من المسببات المباشرة للثورة العراقية . فمن يكون الرجل الذي كان سببا في قيام ثورة .

تختلف الأقوال حول نشأة رياض باشا ، فالكتاب الغربيون يزعمون أنه من أصل يهودى أناضولى ، ويستدلون على ذلك بعلامته ولهجته ومظهره . فقد كان قصير القامة محنى الكتفين له صوت يشبه الصرير ، ولكن المؤرخ عبد الرحمن الرافعى ينقض هذه المزاعم . ويرجع بنسب رياض باشا الى أسرة مصرية مسلمة هي عائلة الوزان . ويقول ان أباه كان ناظر (الضربخانة) دار سبك النقود ، وجده هو حسن الوزان كبير الحكومة المصرية الذى مات سنة ١٧٠٩ .

ولكن المؤرخين لم يختلفوا حول النزعة الاستبدادية التى كانت

من المكونات الأساسية في شخصية رياضي ، الأمر الذي انعكس على مجرى الأحداث التي شهدتها مصر طوال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . . . وهي الفترة التي تبلور فيها الصراع بين الحكم المطلق الذي يمثله الحكام ، وتطلع الشعب الى الحرية والمشاركة في تقرير مصيره . وكان رياضي باشا من طراز الباشاوات الأتراك القدامى الذين كانوا ينظرون الى الشعب بعين الزاوية ولا يعترفون له بحقوق على شئون الحكومة .

فاللورد ملنر يصف رياضي بالغلظة والصرامة والعنف . . « لا يتأثر بأي مؤثر عاطفي أو شعور انساني ، ليس لأنه معدوم الشفقة بعامة الناس . . . ولكن لأن الشفقة لديه تشبه ما كان يشعر به منها خير أصحاب الاقطاعات في العصور الوسطى نحو تابعيهم . يتطرف في الغلظة الى حد السماجة ، ليس فقط في معاملته لرؤوسية ، بل في معاملته لأقرانه في الرتبة والمكانة . يطالب الجميع باحتسرام شخصه احتراماً لا يرى ذاته مستعداً لمقابلة الغير بمثله ، ومع انه كان ادارياً حازماً وناجحاً ، الا انه كان ذا كفاءة غريبة في اثارة عداة الناس له ، ما ان يتربع على كرسي الوزارة حتى يتحول الى « قنفذ » كله شوك ينفر منه الخاصة والعامة » .

وهذه الأوصاف يؤكدتها الرافعي بقوله ان من أبرز صفات رياضي باشا التعاطف والكبرياء والزاوية بالشعب ، يأنف من كل نصيحة لأنه لم يكن يرى نفسه في حاجة الى استشارة النصحاء ، ويعزو الرافعي نزعة رياضي الاستبدادية الى ضالة حظه من التعليم ، فهو لم يتلق تعليماً عالياً ولم يقف على مآثر الثقافة الأوروبية مثل شريف باشا ، بل كان نصيبه من العلم مجرد قشور اقتبسها بذكائه الفطري ومراته وقوة ذاكرته فظل محدود الفكر .

وهذا التفسير من جانب الرافعي ليس دقيقاً في تبرير الاستبداد

فالتعليم ليس فى كل الأحوال عاصما من الطغيان ، والثقافة ليست فى جميع الظروف صنوا للحرية والديمقراطية ، وقد رأينا فى تاريخنا القريب سياسيين بلغوا أعلى مراتب التعليم والثقافة ، ومع ذلك كانوا معاول هدم فى النظام الدستورى مثل اسماعيل صدقى وعلى ماهر ومحمد محمود ، وفى المقابل نجد رجالا حظهم من التعليم ضئيل - كعبد الله النديم - وكان عشقهم للحرية وإيمانهم بحقوق الأمة فوق الشك والريبة .

وفى تصورى أن رياض باشا كان ابن عصره ونتاج البيئة التى نشأ فيها . وهى بيئة كانت تسمى الظن بجموع المصريين وترى أن مصلحتهم فى بقائهم تحت وصاية الحكماء والعقلاء والعباقرة . كان الرجل ينتمى الى مدرسة الحكم المطلق التى تعطى كل السلطات لولى الأمر ليتصرف فى شئون الرعية وفق ارادته ، وتضع الشعب فى مرتبة التلاميذ المفروض عليهم السمع والطاعة للحاكم ، والخضوع لرئيس « النظار » وهى الصفة التى كانت تطلق على رئيس الوزراء وقتئذ .



وليس معنى ذلك أن شخصية رياض باشا كانت مجمع النقائص والردائل ، أو خلوا من الفضائل فمثل هذا الحكم يتنافى مع الطبيعة البشرية ، فضلا عن منافاته للواقع التاريخ ، فقد كان الرجل اداريا حازما ، محبا للعمل . يمتاز بالنزاهة والاستقامة والتعفف عن الرشوة . وهى صفات تستحق التقدير فى نظام جعل من الرشوة حقا مشروعاً . . غير ان أهم مآثر الرجل أنه استطاع خلال وزارته التى سبقت الثورة أن ينجز أعمالا جلية ، فقد ألغى السخرة ، وأبطل الضرب بالكرباج فى تحصيل الضرائب ، ووضع نظاما دقيقا لجمع الأموال الأميرية على أقساط محددة بعد أن كان الفلاحون

يضطرون الى بيع محاصيلهم بأبخس الأثمان لتسديد مستحقات الدولة ، وقرر توزيع مياه الري توزيعا عادلا ، وألغى نحو ٣٠ ضريبة صغيرة كانت ترهق صغار الفلاحين وفى مقابلها قرر زيادة الضريبة على كبارهم لكي يتحقق بعض العدل بين الطبقات ، واستصدر قرارا بأيلولة قصور الخديو المخلوع (اسماعيل) وأفراد عائلته الى ملكية الدولة .

ومع الاعتراف بأهمية أعمال رياض باشا ، فان المصريين لم يستريحوا اليه ، واستثقلوا عهده ، لأنه كان يتعامل معهم من برجه العاجى ، فبدت أعماله وكأنها صدقة من محسن كبير . . وفشل الرجل فى التعامل مع الجماهير لأنه لم يكن يؤمن بشيء اسمه الجماهير !



الأرسقراطية الحديثة

ان ظاهرة المتمصرين الذين أحبوا مصر وخدموها بصدق
واخلاص تستحق التسجيل . وهى تؤكد أن الولاء لمصر ليس مجرد
كلمات جوفاء تتردد فى الأغاني والخطب والمقالات ، ولكنه احساس
مستقر فى الضمائر والقلوب ويتجسد فى الأعمال والتصرفات ، ان
الفترة التى نؤرخ لها شهدت صراعا حادا بين جموع المصريين
المتطلعين إلى العدل والحرية ، وجحافل الأجانب الذين تكالبوا على
مصر يمتصون دماءها ويسرقون أوقاتها . ومن خلال الصراع ظهرت
نماذج رائعة لرجال أفذاذ ارتفعوا فوق العصبية وانتصروا لمبادئ
الحق والعدل ووقفوا الى جانب المثل الانسانية العليا رغم حداثة
عهدهم بالتراب المصرى . فى هذا الصدد نذكر محمود سامى
البارودى وأديب اسحق ويعقوب صنوع وقاسم أمين والزعيم محمد
فريد والشاعر أحمد شوقي وأولاد تيمور . . . وكلهم أعطى مصر من
الاخلاص بقدر ما أعطته من نعمة الوجود وعلى رأسهم جميعا يتربع
شريف باشا .

الا أن « الحب » وحده لا يكفي لتفسير ظاهرة الولاء الوطني عند هؤلاء المتحمسين الأوفياء . فالولاء الذي يفتقر الى الوعي لا يثمر غير نعرات عاطفية جوفاء ، ولا بد أن هناك دوافع أخرى أعمق جعلت هؤلاء ينشقون على الارستقراطية التركية التي أفرزتهم وينحازون الى المعسكر المصرى ، ويشكلون مع الارستقراطية المصرية الحديثة « حلقة » غايتها هز النظام الحاكم ليتفهم مغزى الارهاصات التي كانت تتفاعل فى أحشاء المجتمع المصرى ويبشر بولادة قوى سياسية مصرية جديدة .

لقد رأت هذه الارستقراطية المستنيرة أن تغييرا جذريا قد حدث فى البنية الاجتماعية ، بسبب تطور نظام الملكية الزراعية ، وكان من نتيجته ظهور طبقة من كبار الملاك المصريين . وكان من الطبيعى أن تبحث هذه الطبقة عن دور لها على المسرح السياسى على حساب الارستقراطية التركية المتعجرفة التي يساندنها الخديو اسماعيل ، واشتد الصراع بين الطرفين ، وكان على الفئات المتمصرة بزعامة شريف باشا أن تختار . فاختارت الجانب المصرى ليس لأنه الأقوى ، ولكن لأنه الأبقى ، ولأنه الأكثر اتساقا مع حركة التاريخ . ولأنه الأكثر اتفاقا مع المبادئ والأفكار المصرية التي تشبعت بها



ومن المؤكد أن العوامل الثقافية لعبت دورا فى تحريك مشاعر هذه الفئة ، فكلهم اتصل بأوروبا - وفرنسا بالذات - وعاصر التطورات الدرامية التي انتهت الى انتصار الليبرالية واندحار الحكم المطلق والنظام لاقطاعى ، وكانوا على ثقة بأن سنة التطور لابد أن تسرى على مصر ، وأن رياح التغيير لا بد آتية ، وأن عليهم أن يتحركوا حتى يتم التغيير سلميا ودون اراقة دماء ، أو حدوث صدمع يهدد كيان الوطن ، وكانت غاية آمالهم أن يتغلب اسماعيل عن نزعتيه

الاستبدادية ، ويعمل على توسيع قاعدة الشورى لتستوعب التطورات الاجتماعية الجديدة ، كانوا يحلمون بالدستور وبالمجلس النيابي ؛ وبالوزارة المسئولة أمام البرلمان وبالحاكم الذى يملك ولا يحكم ، وكانوا يحلمون بإلغاء السخرة والرق ، وسيادة المبادئ الانسانية واحترام كرامة الفرد . ولم يكسوفوا فى ذلك الوقت مسرفين فى أحلامهم . . ألم يقل اسماعيل ان مصر أصبحت قطعة من أوروبا . ولكن وجه التمايز بينهم وبين اسماعيل ، أن الأخير لم يقتبس من معالم الحضارة الأوروبية سوى مظاهرها المادية البراقة . دار الأوبرا وأفراح الأنجال وحفلات الليل المخملية وتشبيد القصور الفاخرة على غرار قصور فرساي التى احترقت فى أتون الثورة . . أما جوهر الحضارة المتمثل فى احترام ارادة الشعب والامتنال لمبدأ سيادة الأمة . . فان اسماعيل لم يكن على استعداد لاقتباسه أو الاقتراب منه .



وهذا هو جوهر الخلاف بين راعى الارستقراطية التركية العتيقة - اسماعيل - الذى أدار ظهره لحركة التاريخ فاحترق ، وقائد الارستقراطية المصرية المستنيرة - شريف باشا - الذى قاد أول حركة دستورية نيابية فى مصر ليجنب البلاد مغبة ثورة دفوية تاكل الأخضر واليابس ، فنجح حيناً ، وفشل أحياناً حتى انتهى الصراع بقيام الثورة العربية . . ثم وقوع الاحتلال الانجليزى .

طوفان الفساد

بعد اخماد الثورة العرابية . . عاد الخديو الخائن توفيق
بالقطار من الثغر المحترق الى القاهرة المحتلة . . وكان في استقباله
بمحطة العاصمة قادة الجيش البريطاني الذين سبقوه الى القاهرة
ومهدوا له طريق العودة ، وانطلق موكب الخديو الى قصر عابدين
عبر الشوارع التي خلت من الجماهير وازدحمت بجيوش الاحتلال ،
لقد خسر الشعب معركته بفعل الخيانة ، وبفعل القهر المسلح ،
وأضحى الوطنيون بين طريد تتعقبه عيون العملاء والخونة ،
وسجين ينتظر النفي والتشريد ، والوطن كله ينزف دما من جراح
الهزيمة ، وبدأ الظلام ينشر اعلامه السوداء على مصر المحروسة .
وكان على المصريين أن يعيشوا مرحلة الضياع كالأيتام على مأدبة
اللثام . لقد مضى ذلك العصر الذي جلبت فيه صيحات النديم ،
والأفغانى ، ومحمد عبده ، وصرخة عرابى فى وقفة عابدين . وانطوت
تلك الصفحة المجيدة من كفاح الشعب وبدأت مرحلة الانحطاط
والهبوط الى أسفل السافلين . بات قصر الدوبارة - مقر المعتمد
البريطانى - قبلة الكبراء والوجهاء الباحثين عن الأسلاب والمغانم
بين حطام المعركة ، وأصبحت مصر نهبا لكل خوان أثيم . ولم يقتصر
الفساد على عليا القوم . وانما كان الفساد طوفانا تسرب الى كل

الشقوق .. وشمل كل الطوائف والطبقات .. فانحطت الأخلاق
وشاع الجبن والذل والرياء .. وسادت شعارات النفعية والوصولية
والانتهازية .. وانعدمت روح الانتماء الى الوطن وحلت محلها نزعة
اللامبالاة وعدم الاكتراث والبحث عن المنافع الشخصية على اشلاء
الوطن المحتل ، وأصبح الولاء للاحتلال والتنكر للوطن جواز المرور
الى المناصب العليا .. والوجهة الاجتماعية .



وبدأ الانجليز في تنفيذ برنامج طويل المدى لتصبح مصر
بمقتضاه مستعمرة بريطانية تحكم من لندن حكما مباشرا عن طريق
« نصائح » يقدمها المعتمد البريطاني الى الخديو .. فلا يملك حيائها
الا الاذعان وكان لابد من وزارة تدير شئون البلاد في هذا الظرف
العصيب ولم يكن هناك غير شريف باشا ليقوم بهذه المهمة الصعبة
وسط الظلام الكئيب .. وقبل الرجل التكليف وكان عليه أن يتحمل
المسئولية في وقت انعدمت فيه المسئولية الوطنية . وكان عليه
أن يعيد ترتيب البيت الذي تفكك وانهار تحت وطأة الاحتلال ..
وكان عليه أن يحافظ على آخر ومضات الروح الوطنية قبل ان تذبل
الى الأبد ، ومكث الرجل يمارس هذه المهمة الشاقة سنتين ، حتى اذا
كشف الانجليز عن أنيابهم لفصل السودان عن مصر - لم يستطع
شريف الصبر ، وأبى أن يكون أداة في يد الاحتلال لسلخ السودان
عن مصر . وهو القائل « اذا تركنا السودان فان السودان لن
يتركنا » وهو الذي ضمن الدستور نصا يتيح لأبناء السودان انتخاب
ممثلهم في مجلس النواب المصري ، ايمانا منه بوحدة المصير بين
شمال الوادي وجنوبه ، عندئذ قدم شريف استقالته الثالثة
والأخيرة ، وبعدها اعتزل الحياة العامة حتى وافاه الأجل بعد ثلاثة
أعوام قضاها في صمت .

هل تستحق هذه الاستقالة أن تدرج ضمن الأعمال الوطنية العظيمة ؟ لقد رفع الأستاذ الرافعي من شأن هذه الاستقالة واعتبرها من الأمجاد التي تذكر لشريف باشا ، ورأى فيها دليل الحياة واليقظة الوحيد في وقت تلاشت فيه كل دلائل المقاومة الأهلية ، وعاب على حكام مصر وكبرائها أنهم لم يحدوا حذو شريف ولم يستقيلوا من مناصبهم احتجاجا على التدخل الأجنبي في شئون مصر ، فكان من نتيجة سكوتهم واذعانهم ان تعاقبت على البلاد وزارات الولاء للاحتلال والخضوع لأوامره ونواهيته .



هل كان شريف مخطئا حين قبل الوزارة تحت مظلة الاحتلال ؟ لم يتعرض الرافعي لمناقشة هذه القضية الهامة ، لأن الرافعي كان - بحكم موقفه العدائي من العراقيين - مناصرا لشريف ومبررا لكل تصرفاته حتى خلع عليه كل وصف حميد ، ونزع عنه أية نقیصة ، ولعل هذا الصمت المتعمد من جانب الرافعي جرنا الى سؤال آخر : هل خان شريف باشا الثورة العراقية ؟ فالثابت ان شريف لجأ الى معسكر الخديو حين وقعت الواقعة وتلاحمت سيوف الثورة العراقية مع قوات الغزو الانجليزى ، وكان فى معيته فى رحلة القطار من الاسكندرية الى القاهرة بعد فشل الثورة ، وكان فى رفقته أثناء ذهابه الى قصر عابدين . ويقول الرافعي ان شريف لم يتمالك نفسه وهو يرى جنود الاحتلال ينتهكون شرف بلاده . . فاجهش بالبكاء . . ومع ذلك ، وايا كان نصيب هذه القصة من الحقيقة . . فانها لا تعفينا من مناقشة هذا السؤال : هل خان شريف الثورة ؟ انها قصة تحتاج الى وقفة للتأمل .

الكبرياء الوطنية

فى حياة شريف باشا ثلاث استقالات شهيرة ، من المفيد أن نلم بها لأنها تكشف النقاب عن معدن الرجل ومنهجه فى الحكم ، واكتشافه اللحظة الفاصلة التى يتعتم فيها على رجل الدولة أن يتنحى اذا حدثت اهانة لشخصه أو مساس بكرامته الوطنية .

وظروف الاستقالة الأولى تلقى الضوء على جانب من شخصية شريف ، هو تمسكه بالكبرياء الوطنية فى مواجهة التدخل الأجنبى . كان شريف باشا وزيرا للخارجية والحقانية (العدل) فى أواخر عصر اسماعيل حين بدأ النفوذ الأوروبى يسيطر على مقدرات البلاد بعد أن أوشكت خزانته على الإفلاس ، وكان من آثار ذلك أن وافق الخديو على تشكيل لجنة « التحقيق العليا الأوروبية » من جبايرة الاستعمار البريطانى وبعض اذياتهم من الفرنسيين ، ومعهم - للأسف الشديد - مصرى هو رياض باشا ، وكان من سلطة اللجنة استدعاء كبار رجال الدولة ، بمن فيهم الوزراء ، لمساءلتهم والتحقيق معهم ، فلما جاء الدور على شريف باشا رأى أن من العار على وزير مثله أن يقف كالمشبهوه امام تلك الحثالة المتربصة باستقلال بلاده وتمريغ سيادتها فى التراب ، فرفض للمثول أمام اللجنة التى رأت

فى عناده تحقيرا من شأنها ، فأصرت على احضاره ، وازداد الرجل
تشبثا بموقفه ، وتوسط الخديو وطلب من شريف ان يجيب عن
اسئلة اللجنة كتابة ، ولكن اللجنة أصرت على مثوله - شخصا -
امعانا فى اذلاله ، وحتى لا يكون قدوة لغيره من الوطنيين الأحرار ،
عندئذ وجد شريف باشا ان العزة الوطنية تجتم عليه ان يستقيل
ولا يحنى رأسه .. فاستقال .

وتبدو أهمية هذا التصرف ، الذى يتسم بالاباء والشمم ويرسخ
قيمة الأنفة الوطنية اذا قورن بمسلك غيره من أعمدة الحكم
الاسماعيلى الذين فرطوا فى كرامتهم أمام الأجانب ؛ وكانوا لا يرون
بأسا من التدخل الأوروبى فى شئون مصر بحجة أن هذا التدخل
سيقلم أظافر الخديو ويخفف من غلواء حكمه المطلق .



أما الاستقالة الثانية فقدمها شريف باشا وهو رئيس الوزارة
الوطنية التى شكلت فى أعقاب مظاهرة عرابى فى ميدان عابدين
(سبتمبر ١٨٨١) وكان من مطالبها اسناد الوزارة الى شريف باشا ؛
وكان شريف فى ذلك الوقت يتزعم جناح المثقفين فى الحركة
العرابية التى تبلورت فى حزب سياسى يحمل اسم (الحزب
الوطنى) ويضم فى صفوفه كل الأحرار على اختلاف نزعاتهم
السياسية والفكرية .

قد يكون من الغريب انضواء رجل مثل شريف يعتنق الفكر
الليبرالى بين صفوف العرابيين الثوار ، ولكن من السهل تفهم ذلك
إذا تذكرنا أن الحركة العرابية فى ذلك الوقت المبكر كانت تسلك
منهجاً سلمياً مع النظام الحاكم ، وتحاول تحقيق مطالبها بالتراضى
مع الخديو ، بدليل أن عرابى واخوانه اعلنوا ولائهم للخديو بغد

المظاهرة ، وكان الجناح الليبرالى فى الحركة يرى امكانية الحصول على المتطالب الشعبية دون حاجة الى تدخل الجيش . ولم يكن هؤلاء الليبراليون على استعداد لتقبل فكرة تدخل الضباط فى شئون الحكم . لأن ذلك سيؤدى - فى رأى الرافعى - الى انتقال الاستبداد من يدى الخديوى الى أيدى العصابة العسكرية وتحول الجيش عن مهمته الأصلية ويشجع على انتشار الخلل والاضطراب فى البلاد .

اذن فلم يكن من المتوقع ان يستمر التعاون بين شريف باشا رئيس الوزراء ، والجناح العسكرى فى المجلس ويمثله محمود سامى البارودى وزير الجهادية ، بل كان لا مفر من الشقاق بين الفصيلين مع تداعى الأحداث ، وردود فعل كل منهما ، ووقع الخلاف حين قدم شريف باشا نص الدستور للخديوى توفيق ، فثارت ثائرة بريطانيا وتابعتها فرنسا ، لأن الدستور كان يعطى مجلس النواب حق اقرار الميزانية العامة للدولة - الدولة المصرية وليس الدولة البريطانية (١١) - ورأى عتاة الاستعمار فى هذا النص مساسا بالنفوذ الأوروبى فأقنعوا الخديوى توفيق بالامتناع عن اعلان الدستور . وأراد شريف ان يتلافى الصدام بين الخديوى ومجلس النواب لعلمه أن الخديوى سوف ينحاز الى الانجليز ويخضع لأوامرهم . . فاقترح تأجيل البت فى البند الخاص بالميزانية . . ولكن العراقيين رفضوا الاستجابة لرأى رئيس الوزراء الذى رفض أن يكون أداة فى يد الجيش وزعمائه ، فاستقال من رئاسة الوزارة وخلفه محمود سامى البارودى وفى عهده مضت الثورة العراقية الى منتهاها .

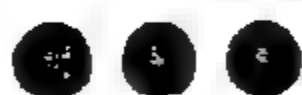


الوطنية والخيانة

ما هو الخط الفاصل بين الوطنية والخيانة ؟ وما هي
المساحة المشروعة التي يسمح لرجل السياسة بأن يتحرك فيها ؟
فاذا تجاوزها انتقل الى معسكر الخيانة ؟ وحقت عليه اللعنة ؟
وأين هو الميزان الذي نحتكم اليه قبل توجيه الاتهام بالخيانة الى
الخصوم ؟

ان موقف شريف باشا من أحداث الثورة العراقية يفتح الباب
لمناقشة هذه القضية الجوهرية . والذي حدث ان الرجل كان يمثل
الارستقراطية الزراعية في جبهة الثورة التي ضمت أشتاتاً من
العناصر الوطنية الطامحة الى نمط جديد في الحكم يقوم على انقاض
نظام الحكم المطلق الموروث عن محمد علي . وكان الجناح الليبرالي
في حزب الثورة بزعامة شريف يرى امكانية تحقيق هذا الهدف عن
طريق الدستور وقيام حياة نيابية ، ودون سيطرة الجيش على
الحكم ، وكان تصرف شريف وشيعته في هذه المسألة نابعا من
اقتناعهم المبدئي بأن انتقال السلطة الى العسكريين سيؤدي الى قيام
ديكتاتورية عسكرية على انقاض ديكتاتورية الخديو . وكان البلاد
سوف تنتقل من استبداد مدني الى استبداد عسكري ، لا تحمد

عواقبه .. فلما احتدمت الأمور بين العراقيين والخدّيو ، انسحب شريف من جبهة الثورة وظل يراقب الأحداث حتى تطورت على النحو المعروف : فشل الثورة ووقوع الاحتلال . « عندئذ انتقل شريف الى معسكر الأعداء الذين خانوا الثورة » فالى أى مدى يمكن تقبل هذا الحكم الذى انتهى اليه الاستياذ صلاح عيسى غير رحلة من البحث الشاق تضمنها كتابه المهم عن الثورة العراقية ؟



منذ البداية يرى صلاح عيسى ان شريف باشا تعاون مع الثورة وهو يضمّر احتواءها تمهيداً لاجهاضها .. ودليله على ذلك انه رفض ترشيح الثوار له لتشكيل الوزارة أثناء مظاهرة عابدين ، ولم يقبل الا بعد شروط اشترطها أهمها : ابعاد قادة الجناح العسكرى ، وحمل أعضاء مجلس النواب على الاعتذار فى مطالبهم ، وانتهاج سياسة الحزم مع الجيش والأعيان على السواء .. ويرى الباحث ان هذه الشروط تتلاقى مع مطالب الاستعمار لتهدة الأحوال فى مصر والانتقال بها من مرحلة الهدنة الى مرحلة الاستقرار . هذا هو دليل الإحتواء .. أما عملية اجهاض الثورة فقد تمت - فى رأى الباحث - عن طريق مخطط دبره شريف باشا يتمثل فى أنه « كان يعتزم ان يجمع حوله أعضاء مجلس النواب ليصبحوا بالتدريج اصحاب السلطة التنفيذية المشروعة لتصريف الشئون الداخلية ، ويجردوا الجيش - بهذه الطريقة - من الصفة التى ادعاها لنفسه فى الحركة الأخيرة (يقصد مظاهرة عابدين) بغير حق ، بحيث يصبح النواب هيئة ممثلة للأمة يستطيع الخديو والحكومة الاعتماد على تأييدها ضد سلطة الجيش .. »

وأنت حين تقرأ فحوى هذا الاتهام لا تملك الا أن تتساءل : هل اسناد السلطة الى مجلس النواب المنتخب جريمة في حق الشوار الذين كانوا يطالبون بقيام برلمان منتخب على النسق الأورؤبى ؟ وهل نعتبر قيام النواب بتصريف الشئون الداخلية خطوة نحو عملية اجهاض الثورة ؟ ام انه لا يجوز قيام « ثورة » الا على اكتاف العسكريين ؟ واذا امكن تحقيق المطالب الوطنية عن طريق مجلس النواب ودون تدخل المؤسسة العسكرية .. ألا يتم التغير وتتحقق الثورة ؟؟

وفى رأى صلاح عيسى ان اصرار شريف باشا على اقضاء العناصر المتطرفة عن جبهة الثورة كان يهدف الى أمرين ، الأول : منع انجلترا من استغلال سيطرة المتطرفين كحجة للاحتلال ، الثانى : القضاء على تخوف شريف باشا من أن تؤدى سيطرة المتطرفين الى تحقيق المكاسب للطبقات التى تمثلها هذه العناصر على حساب الطبقة الارستقراطية التى يمثلها شريف .. وللدرد على هذا التخريج نقول : ان الحيلولة دون وقوع الاحتلال البريطانى هدف مقدس : . يهون من أجله أى تصرف ، حتى لو كان ابعاد العسكريين عن الحكم . فقد كان الاحتلال البريطانى نكبة عصفت بالأنضر واليابس وامتصت رحيق مصر لمدة سبعين عاما أو تزيد ، أما عن مسألة المكاسب الطبقية ، فقد أثبتت الدراسات التى اجريت حول الأصول الاجتماعية للعسكريين العربيين أن معظمهم ينتسبون الى الشريحة الوسطى من ملاك الأراضى ، وكان يجمعهم بالارستقراطية الزراعية حلف هدفه المشاركة فى الحكم ، ونقل ملكية أكبر مساحة من الأرض الزراعية من أيدي الأجانب الى ايدي المصريين ، فلم يكن ثمة خطر على الشريحة الوسطى من الشريحة الأعلى ، وانما كان

الخطر من جانب الملاك الأجانب الذين اتسعت ملكياتهم في عصر
اسماعيل ، وبعد .. ألا ترى أن مسألة الاتهام بالخيانة ليست
بالبساطة التي نمارسها أحيانا ؟ ..



اسماعيل • • الأفريقي

كان الخديو اسماعيل يقول ان مصر قطعة من أوروبا ، وكان
يعنى بذلك أن تأخذ مصر حظها من ثمار الحضارة الأوروبية في
العلوم والفنون والثقافة والتقنين ، وأن تحقق مصر نفسها بالمصل
الحضارى حتى يشتد عودها ، وتقوى على مواجهة تيار الحضارة
العالمية الذى بلغ عنفوانه فى منتصف القرن التاسع عشر ، وبدهى ،
فان اسماعيل لم يقصد بهذا التعبير أن تنسلخ مصر من روحها
الاسلامية والشرقية ، أو تجتث جذورها الضاربة فى عمق التاريخ ،
فتصبح امتدادا لفرنسا أو تابعا لانجلترا • • فقد كان اسماعيل من
الحكام القلائل الذين أدركوا سر الموقع الذى تشغله مصر فى قلب
العالم القديم ، واستوعبوا رسالتها الحضارية الموروثة تجاه الشعوب
المجاورة لها •



لم يكن اسماعيل أوروبى النزعة ، كما يبدو من مظهره
المتفرنج ، ولكنه كان يؤمن بأن مصر قطعة من أفريقيا ، وأن مصر
هى النافذة الشمالية التى تطل منها القارة السوداء على العالم

المتمددين . وكان يؤمن بمصر القوية المعطاء ذات الاشعاع الحضارى
الذى يحمل مشاعل العلم والمعرفة والعمران والتقدم الى قلب
القارة ، وقد ورث عن جده العظيم محمد على طموحه الى تجديد
شباب مصر ، كما ورث عن أبيه - البطل المغوار ابراهيم - فكرة
الكيان الكبير فى عالم احتدم فيه الصراع بين القوى الأوروبية
الاستعمارية التى خرجت كالمارد تلتهم كنوز القارة الأفريقية ،
وتبنى مجدها وقوتها من ثروات الشعوب المقهورة ، لقد نجحت
القوى العظمى فى تدمير العسكرية المصرية التى دقت أبواب
القسطنطينية ، وأفلحت فى قص أجنحة ابراهيم باشا التى انتشرت
على روابى الشام وصحراء الجزيرة وساحل الخليج ، وأخذت النفوذ
المصرى المتوهج وتحصرته داخل حدوده الضيقة . فجاء اسماعيل بعد
ربع قرن ليستأنف حركة الفتوح المصرية ، ولكنه ولى وجهه شطر
أفريقيا لثقلته بأن البعد الأفريقى هو المجال الطبيعى للحضارة المصرية،
وتوالى الحملات المصرية فى عمق القارة وشرقها . . فى وادى النيل
وعلى ساحل البحر الأحمر ، تحمل مشاعل الحضارة ، وتقيم أسس
العمران والمدنية ، فارتفعت المآذن وبنيت المساجد والمدارس
والمستشفيات وشيقت الطرق البرية والسكك الحديدية ، وامتدت
أسلاك البرق والهاتف والبريد ، واستصلحت الأراضى وانتعشت
الزراعة والصناعة والتجارة ، واستتب الأمن والنظام ، وقامت نظم
الإدارة الحديثة حتى قال السير صمويل بيكر : ان السائح الأوروبى
يمكنه أن يجوب تلك الأصقاع البعيدة دون أن يخشى على نفسه
أكثر مما يخشاه من يتنزه بعد غروب الشمس فى حديقة هايد بارك
بلندن .



لم تكن حملات مصر على عهد اسماعيل استعمارا بالمعنى

الأوزوبى البغيض ، ولكنها كانت تعميرا وتنويرا بالمعنى المصرى الموروث ، ويكفى هذه الحملات فخرا أنها استهدفت إزالة أحط وضمة فى تاريخ القارة الأفريقية ، وأعنى بها تجارة الرقيق ، فأخذت تتعقب هذه التجارة المقوتة ، وتتصدى لمن يقف وراءها من أمراء وشيوخ قبائل وزعماء يتمتعون بالسطوة والنفوذ ويجنون منها ثروات طائلة ، ويكفى أن تعلم أن الدور المصرى فى مقاومة تجارة الرقيق كان من أسباب قيام الثورة المهدية وانقضاى الزعامات المحلية على الوجود المصرى فى السودان ، فقد هال كبار المزارعين التغير الفجائى فى النظام الاجتماعى والاقتصادى السائد الذى كان يعتمد اعتمادا رئيسيا على سواعد الرقيق ، وبعض المؤرخين يرى أنه كان ينبغى على اسماعيل أن يعالج مسألة الرقيق بالتدريج حتى لا تؤدى الطفرة الى هزة فى النظام الاقتصادى .



وأيا كان رأى فى مسألة الرقيق ، فان الدور الحضارى المصرى مضى فى طريقه المرسوم طوال السنوات الأولى من حكم اسماعيل ، وملت مصر نفوذها الى قلب القارة حتى منطقة البحيرات الكبرى (فكتوريا وألبرت) وفتحت مديرية فاشنودة فى جنوب السودان ، واكتشفت بحيرة اطلقت عليها اسم (ابراهيم) ، وفتحت اقليم خط الاستواء ومملكة (اونيورو) وبسطت حمايتها على مملكة أوغندا وأعرب ملكها (أمتميسى) عن ولائه للعرش المصرى ، وعقد مع ممثل مصر معاهدة فى سنة ١٨٧٤ اعترف فيها بوضع مملكته تحت حماية مصر ، وأرسلت المعاهدة الى اسماعيل الذى أبلغ الدول أن مصر ضمت اليها جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت ، وفتحت مصر اقليم بحر الغزال ثم سلطنة دارفور ، واتسعت أملاكها بين الحبشة والبحر الأحمر وضمت محافظتى زيلع وبربرة

الواقعتين على خليج عدن فيما وراء باب المندب ، كما ضمت محافظتي
سواكن ومصوع (عاصمة ارتيريا) ثم سلطنة (هرر) في الجنوب
الشرقي من الحبشية . ودخلت سواحل الصومال-الشمالية في أملاك
مصر حتى رأس (جردفون) على المحيط الهندي ، وبذلك انفسحت
رقعة الأملاك المصرية سواء في وادي النيل حتى منطقة البحيرات ،
أو على ساحل البحر الأحمر حتى المحيط الهندي ، وأصبح الساحل
الغربي للبحر الأحمر من السويس حتى باب المندب ، ومن باب
المندب الى ساحل المحيط الهندي من ممتلكات مصر .



تلك كانت حدود مصر في عهد اسماعيل ، فاستحق تمجيد
المؤرخين الوطنيين له ، ومنهم الرافعي ، الذي وصف فتوح اسماعيل
في أفريقيا بأنها من مآثره التي تخلد ذكره في تاريخ مصر القومي ،
واستحق نقمة بريطانيا التي كانت ترقب بفزع تحركات مصر في
أفريقيا ، ولم يرقا لها جفن حتى أجهضت هذه الفتوح بعزل اسماعيل
وبطرده من مصر عام ١٨٧٩ ثم باحتلالها مصر عام ١٨٨٢ ، وبدأت
عملية تصفية ممتلكات مصر في أفريقيا ، وعادت مصر الى عزلتها ..
تعلق جراحها .. وتبكي حظها .. وتتذكر أيام مجدها القديم ..

صعيدية من لندن

كانت (لوسى دف جوردون) من الأجانب القليلات اللاتي
وقعن في غرام مصر فاحبينها حبا خالصا واتخذتها موطنها وسكنها ،
وقد حتمت الأقدار على لوسى ان تقضى في مصر السنوات السبع
الآخيرة من عمرها فيما بين سنتي ١٨٦٢ - ١٨٦٩ فاندمجت في
نسيج المجتمع ، وخالطت الفلاحين في قراهم الكثينة ، وغاشت
أوجاعهم وبؤسهم بلا استعلاء أو غطرسة ، حتى وصفت نفسها بأنها
مصرية عربية ، ووصفها البعض بأنها مسلمة ، ورغم أنها عاشت
في الأقصر بين أحضان الآثار القديمة ، إلا ان هذا الآثار لم تقع في
بؤرة شعورها مثلما حدث لمعظم الأجانب الذين استوطنوا مصر ،
ولأنها كانت تؤمن بأن الأحياء أجدي من الأموات فقد صرفت كل
همها في مخالطة أحفاد الفراعنة وهم يعانون الضنك والشقاء
والتعاسة ، وكانت تدفعها رغبة جياشة في التشبث بالحياة ،
والانتصار على المرض اللعين الذي ينهش صدرها ، وجمعت بينها
وبين أهل مصر وحدة الأثم ، وقوة الانتصار على العدم ، فأقبلت
على الحياة بكل طاقتها ، ورحب بها أهل الأقصر ترغيبا حارا ،
وأنزلوها منزلة التكريم ، وأطلقوا عليها من الألقاب ما يتكافأ مع
قبلها ، فقد كانت تستقبلهم في بيتها والبشاشة تملأ وجهها

فسموها « البشوشة » ، ورأوها تشاركهم احتفالهم بموالد الأولياء
فسموها « الشيخة » وتلقوا العلاج على يديها فسموها « نور » .

كانت لوسى تنتمى الى عائلة انجليزية ارسقراطية ، فقد كان
أبوها أحد رجال الفقه القانونى بجامعة لندن ، وكانت أمها على
درجة عالية من الثقافة وكان بيتها ملتقى كبار رجال الفكر
والسياسة والأدب من أمثال شارلز ديكنز وتوماس كارليل وجيمس
ميل والد المفكر السياسى الشهير جون ستيوارت ميل الذى كان
رفيق صباها ، وهيات هذه البيئة للفتاة نضجا عقليا وذهنيا ،
وأسببتها خصالا راقبة تتمثل فى حب العدل والتسامح وشجاعة
الرأى والنظر الى الأمور نظرة موضوعية خالية من التعصب والهوى .
فلما بلغت لوسى سن الزواج اقترنت بالسير اكسندر دف جوردون
وأنجبت منه ابنة ، وطافت الأسرة فى أنحاء القارة الأوروبية وهى
يومئذ تفور بالجدل والصخب فى أعقاب الزوبعة التى خلفتها حروب
نابليون ، وشاركت لوسى فى هذه الحياة الفكرية الحسبة ، وبينما
هى تخوض هذا المعترك الثقافى تمكن منها داء السل اللعين وهى
فى ريعان الشباب فى وقت لم يكن الطب قد توصل بعد الى علاجه
علاجا ناجعا ، فنصحها الأطباء بالابتعاد عن الأجواء الباردة فذهبت
الى جنوب افريقيا ، ولكنها لم تتقدم صحيا ، فعادت الى انجلترا
فنصحوها بالذهاب الى مصر ، فشدت الرحال الى الاسكندرية ومنها
الى القاهرة ، ثم أقلها مركب نيل الى صعيد مصر حيث استقر بها
المقام فى الأقصر وأقامت فى بيت يسمى (بيت فرنسا) يقع على تل
من الرمال كان يغطى معبد الأقصر ويطل على مسجد أبى الحجاج من
ناحية ، ويطل على النيل من ناحية أخرى .

وفى هذا البيت العتيق الذى كان أشبه بالمدوار عاشت لوسى
حياة غاية فى البساطة ، تتودد الى الناس ، وتعطف على الفقراء ،
وتعالج المرضى ، وتناقش العلماء والمشايخ ، وتشارك الناس أفراحهم

فتغمر نفسها السعادة ، وتقاسمهم تعاستهم فتذوب روحها أسي
ولوعة ، وعلى مدى السنوات السبع التي عاشتها ظلت رسائلها
تتوالى على زوجها وأمها وابنتها تحكى فيها كل صغيرة وكبيرة من
حياتها فى قاع المجتمع المصرى ، وتقدم صورة واقعية للحياة الريفية
بلا زيف أو مبالغة ، وقد بقيت هذه الرسائل وديعة عند أسرته
فى انجلترا حتى أخرجها الى النور أحد أحفادها فنشرها فى مجلد
أنيق فى عام ١٩٦٩ بمناسبة مرور مائة عام على وفاتها ، وقد ترجمها
الى العربية المؤرخ المعروف أحمد خاكي ونشرها فى كتاب تحت عنوان
(رسائل من مصر) وهو يرى فى الرسائل وثيقة قيمة للتاريخ
الاجتماعى تصف قطعة من حياة الريف المصرى فى أواسط القرن
التاسع عشر ، بل يراها من بعض نواحيها وثيقة دينية وسياسية
يجدر بالباحثين فى التاريخ ان يعيروها دراسة دقيقة ، لأن دراسة
المجتمع نفسه واحساسات أفرادهِ وتصرفاته من الزم ما يكون
للمؤرخ ، وقد استطاعت رسائل (لوسى دق جوردون) ان تقدم
لنا هذه المعلومات الدقيقة لأنها كانت تحكى الأحداث الصغيرة التى
كانت تصادفها ، وكانت لوسى دائبة على التجوال فيما حواها من
القرى ، والاستماع لما يلقى عليه القوم من قصص فتكتبها الى زوجها
أو أمها أو ابنتها . وباحث التاريخ يستطيع ان يجد انه كان هناك
تفاعل بين الحكومة المركزية فى القاهرة وهذه القرى النائية فى
صعيد مصر ، فقد كان الأهليون متأثرين بسياسة الحكم فى بداية
عصر اسماعيل ، فالرسائل اذن وثيقة سياسية اجتماعية تعرض
خبرات شخصية مباشرة ، وهى من ناحية أخرى وثيقة دينية لأنها
تتحدث عن أثر الاسلام فى المصريين - ولكن وراء هذا الأثر ما تأصل
فى ثقافة المجتمع المصرى من أثر التاريخ الفرعونى ومعتقدات
الفراعنة .

وعندما أدركت لوسى ان الموت يسرى فى جسدها ، تقبلت حكم القضاء بروح راضية ، وأبحرت بها السفينة شمالا من الأقصر الى حيث توقفت قبالة حلوان ، والتفت من حولها بحارة السفينة وخادمها الأمين (عمر أبو حلاوة) الذى ظل الى جوارها طيلة السنين السبع ، وكتبت آخر رسائلها الى زوجها تقول فيها : لا تبتئس ولا ترسل الى ممرضة ، فأنا ألقى من العناية ما هو فى الأمكان ، والريسان (رمضان) ، و (يوسف) قويان عطوفان ، أما (عمر) فهو كما كان دائما ، لقد بلغ بى الألم الجثمانى ما لا أود أن يشهده الآخرون .. بارك الله فيك يا أعز الأحباب .. كم هو مؤسف انك لم تقم بما كنت قد عزمت عليه من قدومك الى أعلى صفحة نهر النيل .. قبل لى كل أحبائى .. وتشارلى العزيزة .. اننى أشفق على عينيها .. أظن اننى لا أستطيع ان أجيد الكتابة - فخطى ردى - فأنا مجتهدة مسهدة فارقنى النوم وصدرى يتمزق من السعال .. اغفر لى أخطائى .. كم وددت لو اننى رأيت وجهك العزيز مرة أخرى .. لكنى لست أود ذلك الآن .. لست أريدك الآن هنا بآية حال من الأحوال ..

وفى اليوم التالى كتبت صورة برقية الى زوجها تنعى فيها نفسها .. وتركت فراغا بين الكلمات يكتب فيه تاريخ الوفاة .. وانتابتها نوبة شديدة من السعال فاستسلمت لأمر الله .. وكانت آخر كلماتها « ليتكن مشيئتك » وبعدها أسلمت الروح .

عصر الشهداء

كانت الكنيسة المصرية منذ نشأتها حصنا للوطنية ، ورمزا للصلاية والصمود في وجه السيطرة الأجنبية الدخيلة ، ومقاومة العقائد الوثنية الفاسدة ، وعلى امتداد عهود القهر الروماني ، التي استطالت سبعة قرون الا ربع قرن ، كان المصريون يلوذون بكنيستهم كلما أوجعتهم ضربات الرومان ، فيجدون في رحابها طمأنينة الايمان واستقلال الرأي والضمير ، ورفض الذل والمهانة ، والتمرد على جبروت الحاكم مهما كانت فظاعة البطش والتنكيل .

في كنيسة الاسكندرية امتزجت العقيدة الدينية بالحماسة الوطنية ، فأكسبها ذلك قوة روحية ومادية جعلت منها ندا مناوئا للامبراطورية الرومانية في وقت بلغت فيه هذه الدولة غاية القوة والاقتدار وآلت الى ممتلكاتها دول ذات مجد عريق ومنها مصر ، وتحول أبناء العز القديم الى اتباع وعبيد للأراض ، يعملون ويكدحون من أجل مجد روما ، ورفاهية السادة الأشراف الذين جعلوا من الامبراطور الها يعبد وتقدم له القرابين ، ولفقوا من بقايا العقائد الوثنية الرجعية دينا فرض على شعوب الامبراطورية أن يعتنقوه .

في ذلك العصر الوثني الكثيب ، كان المصريون ينكفئون على

ذواتهم فيجدون نفحات الايمان تسرى فى اوصالهم منذ عرفوا عقيدة التوحيد قبل قرون من ظهور نجم روما وبيزنطة ، فلما ظهرت النصرانية دينا الهيا يدعو الى عبادة الاله الواحد الصمد ، ونبت عبادة البشر لاذ به المصريون واعتنقوه . وأصبحت مصر مصدر قوة واشعاع للدين الجديد ، منها تخرج قوافل التبشير ، وفى صحاريها الصامته تقام صلوات وصوامع وبيع يذكر فيها اسم الله ، وظهرت الرهبانية احتجاجا عمليا على السلطة الوثنية التى ترغمهم على ما يكرهون ، وهج الرهبان الى فجاج الصحراء فرارا بدينهم من طغيان دولة لا يضمنون لها سوى البغض والاحتقار ، ولا تضرهم لهم سوى المهانة والاذلال .

عندئذ أدرك الأباطرة أن المسيحية هى الأفعى التى تهدد مجد الامبراطورية . وأن رأس الأفعى هى مصر ، ولذا كان نصيبها من العنت والاضطهاد متناسبا مع دورها الطليعى فى زعزعة أركان الامبراطورية سواء فى مجال العقيدة الدينية أو فى مجال السلطة الزمنية ، فانهالت مطارقهم على رأس الكنيسة لما كانت تحمله من روح العناد وبث نزع التمرد فى نفوس المصريين ، فلما جاء عام ٢٨٤ ميلادية اعتلى عرش بيزنطة الامبراطور دقلديانوس ، فاقسم برأس آلهته الوثنية أن يؤدب المصريين أدبا يجعلهم عبزة لكل متمرّد جسور ، وجاء بنفسه الى مصر شاهرا سيفاً ظل يعمل به فى رقاب المسيحيين حتى سالت دماؤهم انهارا ، وبر بالوعد والوعيد الذى قطعته على نفسه بأن تغوص سنابك خيله فى بحر من دمائهم ، ولقد تحمل المصريون هذه الجزرة الرهيبة بما فطروا عليه من صبر على المكاره ، وثبات فى الشدة ، حتى اذ انجلت المحنة كان حريا بالأقباط أن يجعلوا من سنة ارتقاء هذا الامبراطور المفترس عرش بيزنطة بداية للتقويم القبطى ، وأن يجعلوا من دماء الشهداء التى أريقَت

بداية حلقة جديدة من التاريخ المصرى المجيد ، وهى الحلقة المعروفة
بعصر الشهداء .

ولقد ذهب دقلديانوس ، وجاء من بعده أباطرة اعترفوا
بالنصرانية بعد أن رفعوا عنها الاغلال ، ثم جاء من بعدهم أباطرة
اعتنقوا النصرانية ، وجعلوا منها ديناً رسمياً للامبراطورية ، وقامت
فى بيزنطة كنيسة خلعت على نفسها صفة القيادة والريادة لما سبقها
من كنائس ، وكان المفترض أن يتوقف اضطهاد المصريين بعد هذا
التحول الكبير فى ديانة الدولة المتسلطة ، ولكن الاضطهاد لم يتوقف
من جانب الرومان ولم يتوقف السخط والعناد من جانب المصريين ،
وكان سبب الصراع الجديد يرجع الى الخلافات المذهبية التى نشأت
بين الفرق المسيحية حول طبيعة السيد المسيح ، لقد تغير سبب
الاضطهاد ولم يتغير نوع الاضطهاد الذى شقى به المصريون فى ظل
دولة تزعم أنها تعتنق المسيحية ، كانت كنيسة بيزنطة الرسمية
تستنكف أن يبقى لكنيسة الاسكندرية سلطانها الروحى والأدبى
الذى صنعه عبر أجيال وأجيال من صمودها وثباتها فى وجه
الطغيان . وكانت الكنيسة المصرية تتمسك باستقلالها الدينى
والوطنى وتأبى ان تساوم على رأيها فى قضية تتعلق بالعقيدة لمجرد
الاذعان والخضوع لسلطان الكنيسة الامبراطورية .

وحين اكتشف الأباطرة ان هذا الخلاف المذهبى هو غطاء يخفى
تحتة ضغائن المصريين تجاه الدولة الحاكمة ضاعفوا من ضرباتهم
لأتباع الكنيسة الوطنية وأبعدوهم عن الوظائف العامة حتى يضيروهم
فى أرزاقهم ويرغموهم على النزول عن كبرياتهم ، ولكن كل هذه
الضغوط لم تفلح فى زحزحة المصريين عن عنادهم أو تغيير موقفهم
الرافض للسيادة الرومانية على مقدراتهم الدينية والوطنية وفى ذلك
يقول الكاتب الكبير عباس محمود العقاد .

« ان اللازمة التى لا فكاك منها تبرز على الأثر كلما اجتمعت

الأسباب اللاهوتية والأسباب القومية في جانب ، وهذه القوة المتجمعة من غيرة الدين وحماسة القومية هي التي اعتصم بها المصريون زمنا في وجه الدولة الرومانية قبل ايمانها بالمسيحية ، وبعد ايمانها بالمسيحية ، لقد اضطهد المصريون من قبل من جانب الأباطرة والقيصرة الوثنيين والمتدينين ، ولم يكن هذا الاضطهاد خلوا من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية ، فلما وجدت للمصريين كنيسة قائمة .. وكانت هي الدين والدولة في وقت واحد ، أو كانت هي الزعامة التي تلتف بها الأمة وتثبت فيها كيانها ومشيتها في وجه القوة المفاجئة ، ..

حتى اذا أوشكت شمس الامبراطورية على الغروب ، كان الخلاص منها قد أصبح حلما يساور زعماء الكنيسة الوطنية ، وساد الناس شعور واحد وهو شعورهم بالغضب الالهى على هذه الدولة الظالمة وانتظار الجزاء العادل من الله ، فلما تقدم المسلمون لحرب الروم شاع في المشرق كله أن هزيمتها حق ، وإن غلبة المسلمين عليها عدل ، وإن القضاء الالهى ينفذ في مستحقه بما قدمت أيديهم من ظلم ومعصية .

خير أجناد الأرض

كان المصريون على موعد مع الفتح الاسلامى بحكم الجوار للارض المقدسة وقد ترامت الى اسماعهم أنباء الهزائم المتواترة التى منيت بها الجيوش الرومانية فى الشام وفلسطين ، وبلغتهم مأساة هرقل وقد أرغم على الجلاء عن القدس فوقف على أسوارها يلقي عليها نظرة الوداع الأخير وفى عينيه دموع الذل والانكسار ، وتناقل المصريون فيما بينهم قصة الخليفة عمر بن الخطاب الذى حضرته الصلاة وهو فى صحن الكنيسة الكبرى ببیت المقدس فغادرها ليصلى على درجها منفردا حتى لا تؤول الى ملكية المسلمين ذكرى لصلاة الخليفة فيها ، وتسامع المصريون بصيغة العهد الذى كتبه الخليفة المنتصر لبطارقة بيت المقدس واعطاهم فيه الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم : لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، حتى الروم المهزومون شملهم العهد فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه ، ومن أقام منهم فهو آمن .

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يسمع فيها المصريون عن الاسلام والمسلمين ، فقد تلقى المقوقس رسالة النبى صلى الله عليه

وسلم التي يدعوه فيها الى الاسلام ، وتلقى النبي جواب المقوقس مؤذنا بالأمل غير قاطع بالاباء ، اذ يقول فيها : « فهمت ما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبيا بقى وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام .. » وقد أكرمت رسلك وبعثت اليك بجاريتين لهما مقام فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت اليك بغلة لتركبها والسلام » . وقال النبي لصحابته الأقربين « ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما » ثم قال : « اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض » فقال أبو بكر رضى الله عنه : ولم يا رسول الله . قال : « لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة » .

فمصر لم تكن بعيدة عن الدعوة المحمدية منذ البداية ، ولم يكن الاسلام طارئا مفاجئا لمصر عندما أشرفت عليها جيوش المسلمين « فما كان من مسلم فى حياة النبي عليه السلام ، أو بعد وفاته ، الا وهو يعلم أن مصر مفتوحة للمسلمين على يقين ، وانما هو الأوان المحتوم ، فى يوم غير معلوم » على حد تعبير الأستاذ العقاد . ولقد جاء الأوان المحتوم وليس فى مصر من يود بقاءها فى حوزة الدولة الرومانية بعد الذى كان منها من طغيان وجور وظلم ، كل ذلك أسماء الى المصريين فى دينهم ودنياهم وجعلهم يتعجلون اليوم الذى تزول فيه هذه الدولة الظالمة ، فلما تقدم جيش الخلاص بقيادة عمرو بن العاص رحب به المصريون وقدموا له كل ما فى مكننتهم من عون . وفى ذلك تقول الدكتورة سميرة بحر فى كتابها (الأقباط فى الحياة السياسية المصرية) : ولا شك أن أقباط مصر قدموا العون للمسلمين أثناء فتحهم لمصر ، وان كان هذا لا ينفى حدوث بعض المقاومة ، فمن الواضح انه لم يكن للأقباط مصلحة فى الدفاع عن سيد (الدولة البيزنطية) الذى أذاقهم مر العذاب فى محاولته القضاء على استقلالهم .

ومع الفتح الاسلامى بدأت حلقة جديدة من حلقات التاريخ
المصرى أهم ما يميزها روح التسامح وحسن العشرة بين أتباع محمد
وأتباع المسيح ، واختفت صور الاضطهاد التى شغلت التاريخ القبطى
طوال عهد الاحتلال الرومانى ، ولم نسمع على مدار التاريخ الاسلامى
عن حادث مشابه لتلك الفظائع التى أودت بحياة الكثير من الأقباط
وجعلتهم فى عداد الشهداء الذين تعتر الكنيسة بسيرهم ، وتحرص
على ذكر بطولاتهم فى اجتماعات الصلاة الدورية ، فلا يمضى شهر
دون الاحتفال بذكرى واحد منهم ، وكان موقف الحكام المسلمين فى
ذلك متمشيا مع مبادئ الاسلام التى تقوم على أساس من احترام
العقائد ، ورفض القسر والاكراه فى أمور الدين ، وجاء النص القرآنى
صريحا فى تحريم الاكراه ، ولم يكن لأمى حاكم مسلم مهما بلغ من
الجبروت أن يجبر أحدا على الاسلام .

وفى ظل الاسلام استعاد المصريون نزعتهم الأصيلة فى الاعتدال
وكراهة التعصب ، وتشربوا عناصر التراث الاجتماعى والثقافى فى
العادات والتقاليد حتى ليصعب على الغرباء تمييز المسلم عن المسيحي
فيما يمارسه من عادات فى أفراح الزواج والولادة والمآتم والجنازات
والمعيشة اليومية ، وقد لفتت هذه الظاهرة نظر جبار الاحتلال
البريطانى - كرومر - فأشار اليها فى كتابه (مصر الحديثة) بهذه
الكلمات : القبطى الحديث من قمة رأسه الى أخمص قدميه فى السلوك
واللغة والروح مسلم ، وان لم يدر كيف ؟ فالقبطيات محجبات
كالمسلمات ، والأطفال الأقباط تاقلموا بشكل عام ، وعادات الزواج
والوفاة مشابهة لتلك المتبعة لدى المسلمين .

ويضيف الدكتور ميلاد حنا الى هذه الصورة بعض الرتوش
الفولكلورية فيقول : ولقد أوجد التاريخ المشترك والتواجد المتداخل
أعيادا دينية مشتركة ، فالأيام الأولى للسنة الهجرية (عاشوراء)
يحتفل بتقاليدها فى أغلب بيوت الريف المصرى الأقباط والمسلمون

وعندما يحل المولد النبوى يطالب الطفل القبطى بالحصان وتبكي
الطفلة القبطية لتحصل على (العروسة الحلاوة) ويجمع شمع النسيم
الذى يأتى عقب عيد القيامة مباشرة كلاً من الأقباط والمسلمين انطلاقاً
من تراث يعود الى أيام الفراعنة وعيد الحصاد . وحول ضريح سانت
تريزا تتجمع المسلمات والقبطيات وفاء لنذر أو طلباً لحاجة .

وعلى اختلاف عهود الحكم الاسلامية كان الأقباط موضع التقدير
والاعزاز من جانب الحكام ، وبلغ بعضهم فى المناصب العليا شأواً
عظيماً ، مثل عيسى بن نسطوروس الذى كان وزيراً للخليفة الفاطمى
العزیز بالله بن المعز لدين الله ، وفى الحكم التركى المملوكى
شغل بعض الأقباط مناصب رفيعة ، يقول الدكتور زاهر رياض
فى كتابه (المسيحيون والقومية المصرية) ان الأقباط كانوا من أشد
المقربين الى على بك الكبير والى مصر فى الثلث الأخير من القرن الثامن
عشر ، فقد كان المعلم رزق اليه اليمنى لعل على بك ، واليه يرجع الفضل
فى التنظيم المالى الذى استند اليه على بك سواء فى مصر أو فى
سوريا ، كما كان المعلم يعقوب والمعلم الياس بقطر أكبر عون لمعاد
بك فى محاولة الخروج على السلطان .

ومن الشخصيات القبطية المرموقة قبل عصر محمد على المعلم
ابراهيم الجوهري الذى يصفه الجبرتى بأنه كان رجلاً عظيماً فى خلقه
وفى عمله سخياً كريماً .

أما أخوه جرجس الجوهري فقد كان أحد البارزين فى دولة
محمد على الى جانب المعلم رزق أغا الذى تولى حكم الأقليم الواقع
وراء فرع دمياط ، والمعلم غالى الذى عهد اليه بمسح عموم أراضى
مصر ، وبطرس غالى أغا ناظر شونات الغلال ، وعيد فرج أغا حاكم
دير مواس ، وميخائيل عبده حاكم الفشن ، ومكرم أغا حاكم أطفيج ،
وتكلا سيداروس حاكم بهجورة وأنطون أبو طاقية فى الشرقية ،

وعبود كاتب الخزانة ، وكان الباشا يحبه ويثق به ويقول له « لولا
الملاية لقلدتك الدفتردارية » وهو المنصب الذى كان يتولاه ابنه
ابراهيم باشا •

يا بهية وخبرينى ٠٠ !

انتشرت فى أرجاء مصر فى بداية هذا القرن أسطورة (ياسين وبهية) ، وشاعت على السنة الجماهير أغنية : يا بهية وخبرينى ٠٠ .
عالى قتل ياسين ٠٠ ! حتى باتت جزءا من التراث الشعبى كسيرة
أبى زيد الهلالي وأدهم الشرقاوى وحسن ونعيمة ٠٠ يتغنى بها شاعر
الربابة فى المقاهى الشعبية ، وفى حلقات السمر التى يقيمها
الفلاحون فى جرن القرية خلال أمسيات الصيف الندية ، وتتملكهم
النشوة وهم يتابعون بطولات ياسين وأعماله الخارقة من أجل مقاومة
الظلم ونصرة البؤساء ، ثم يخيم عليهم الحزن حين يفجعون بمصرعه
على أيدي « السودانية من فوق ظهر الهجين » .

وظلت أسطورة ياسين وبهية مجالا خصبا لخيال المؤلفين عبر
الأجيال ٠٠ كل جيل يضيف إليها ما يوافق ظروفه السياسية
والاجتماعية ، ويحقق حلم الشعب فى ظهور البطل حتى لو كانت
القصة الأصلية خالية من كل عناصر البطولة والشرف ، وقد يدهش
أصدقاء ياسين اذا عرفوا أن بطلهم الأسطورى لم يكن سوى مجرم
سفاح يحترف مهنة القتل بالأجر ويتعيش من دماء الضحايا
والأبرياء ٠٠ وسوف تزداد دهشتهم اذا عرفوا ان قاتل ياسين هو

المجاهد الاسلامي المعروف اللواء محمد صالح حرب باشا وزير الحربية
ورئيس جمعية الشبان المسلمين يرحمه الله .

وقبل الحديث عن القتل .. نتحدث عن القاتل .

ولد اللواء محمد صالح حرب في إحدى قرى (دراو) بمديرية
أسوان من أب كان يعمل مديرا للخبثانة (مخزن السلاح) في
أسوان ، وينحدر من أصل سوداني من دنقلة . ودخل الصبي
المدرسة الابتدائية في أسوان وكان زميله في الفصل الكاتب العملاق
عباس محمود العقاد ، وبعد حصولهما على الشهادة الابتدائية عام
١٩٠٣ انطلق العقاد نحو العاصمة باحثا عن المجد في عالم الأدب
والصحافة ، أما صالح حرب فقد آثر الجيش ليحقق أمنيته في أن
يكون قائدا مرموقا ، فالتحق بمدرسة خفر السواحل ، وبعد تخرجه
فيها اشتغل في الصحراء الغربية وذاق الأمرين من صلف الضباط
الانجليز الذين كانت لهم السيادة الكلية على الجيش مما غرس في
نفس الضابط الشاب بذور الكراهية للاستعمار خصوصا بعد قيام
الحرب العالمية الأولى ، وفي عام ١٩١٥ ظهرت الحركة السنوسية
في ليبيا بقيادة أحمد الشريف السنوسي لمقاومة الاحتلال الإيطالي ،
ففر صالح حرب الى بنى غازى واندمج في الثورة السنوسية ، حتى
أصبح قائدا لجيوشها فحكمت عليه السلطات البريطانية في مصر
بالاعدام ، وكانت الخلافة العثمانية في ذلك الوقت تعاني سكرة
الاحتضار في مواجهة قوات الحلفاء ، وأصبحت في حاجة الى مساندة
الحركات الاسلامية الفتية ، فبعث الخليفة وحيد الدين غواصة تركية
حملت الشريف السنوسي وصالح حرب وأعوانهما الى استانبول ،
ولكن الأحداث تلاحقت بسرعة رهيبه فانهارت المقاومة العثمانية
ودخلت جيوش الحلفاء عاصمة الخلافة ، ففر السنوسي وصالح حرب
الى الأناضول ، وعملا مع قوات كمال أتاتورك في مقاومة الاحتلال
البريطاني ، وظل صالح حرب - وكان له من اسمه نصيب كبير -

يحارب في صفوف الثورة الكمالية حتى تم لها النصر على الحلفاء وأطاحت بالخلافة الهزيلة ، وفي تلك الأثناء كانت ثورة مصر ١٩١٩ قد أتت ثمارها ، وشكل سعد زغلول أول وزارة وطنية ، وكان من أوائل أعماله إصدار مرسوم بالعفو عن السياسيين المسجونين والمنفيين ، فعاد صالح حرب الى وطنه ، وانضم الى صفوف الوفد ورشحه سعد زغلول في انتخابات مجلس النواب سنة ١٩٢٦ في مسقط رأسه أسوان فنجح واستطاع أن يحصل لابناء دائرته على مرسوم بمجانبة التعليم ، وبعد حل المجلس عين وكيلاً لمصلحة السجون ثم مديراً لخير السواحل ثم وزيراً للحربية في حكومة علي ماهر التي تشكلت عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية ، ثم اختتم حياته العامة رئيساً لجمعية الشبان المسلمين التي تحولت في عهده الى بؤرة للاشعاع الديني والثقافي حتى لقي وجهه ربه في عام ١٩٦٨ فكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من الجهاد ضد الاستعمار والكفاح من أجل رفعة الاسلام .



أما عن قصة الرجل مع ياسين فقد تضمنتها مذكراته التي نشرها الدكتور محمود دياب في كتابه (أبطال الكفاح الاسلامي المعاصر) وقد وقعت أحداثها حين كان صالح حرب في بداية حياته العملية بالجيش وذهب الى وادي حلفا ضمن بعثة عسكرية لشراء سرب من الجمال للخدمة في سلاح الهجانة . وفي أثناء عودة الضابط الشاب على رأس قطيع الجمال تسامع عن قصة ياسين . . أعنف شقي وأجراً مجرم مشى على أرض مصر في زمنه ، فقد اتخذ القتل حرفة ، وازهاق الأرواح تسليية . . وكان يطرب كل الطرب عندما يسمع اسمه يردده الناس في خوف وفزع وهلع ، ويتمنى أن يكون مثل أبو زيد الهلالي . . وامتد نشاطه الاجرامي على طول مديرتي قنا

وأسوان .. وفشلت جميع الحملات التي أوفدها الحكومة للقبض على ياسين حيا أو ميتا .

وبينما كان الضابط الشاب صالح حرب يستريح مع قطيعه من الجمال في بعض الأودية المتاخمة لجبال أسوان ، أبلغه أحد أتباعه أنه رأى بدويا نائما على بطنه عند إحدى المغارات وفي يده بندقية ، فلما ذهب يستطلع الخبر فوجىء بوابل من الرصاص ينهمر من ناحية المغارة فأدرك على الفور أن القدر وضعه وجهها لوجه أمام ياسين ، وأنه لن يخرج من المنطقة كما دخلها .. فاما قاتلا واما قتيلا .. وخطرت للضابط الشاب فكرة جريئة .. فاستدار نحو قمة التل الذي يعلو فتحة المغارة وأسقط حبلا تتدل منه حزمة من البوص المشتعل ، وحملت الريح الدخان الى فوهة المغارة وشعر ياسين بالاختناق فاضطر الى الخروج منها ، ودارت معركة حامية الوطيس .. « وكان سلاح الهجانة في ذلك الوقت سلاحا بارعا في التنشين الماهر واصابة الهدف ، فاذا أربع رصاصات في المليان .. ورأينا الشقى يلقي بسلاحه ، فجرينا نحوه ، فاذا به قد انتهى بعد أن استقرت إحدى الرصاصات في قلبه .. ودخلنا المغارة المظلمة على أعواد الثقاب .. فقوجدنا بامرأة تصرخ ومعها طفل يولول .. فأخرجناهما ، واتضح ان المرأة المسكينة زوجة الشقى ، والولد ابنه ، فلما علمت الزوجة بمقتل ياسين اندفعت تزغرد وتقول في حماس : بركة لي .. بركة لي .. وحسبت أنها تتصنع الفرح خوفا منا .. ولكنى علمت انها جادة لأنها كانت تعيش معه في خوف وبلاء .. »

وانتهت حياة ياسين .. السفاح المحترف .. وبقيت أسطورة في وجدان الجماهير التي تبحث دائما عن بطل يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا ، فاذا لم تجده في الحقيقة .. صنعتها في الخيال ..

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

فى غضون العام الأخير من القرن التاسع عشر طالع الرأى العام المصرى على صفحات (المؤيد) سلسلة من المقالات الجريئة تتحدث عن طبيعة الاستبداد السياسى وأثره فى انحطاط الأمم حيث تتحول الشعوب الى قطع يسوسها مستبد غشوم . وكانت المقالات مجهولة المؤلف الذى رمز لاسمه بحرف (ك) . وكان هذا الإبهام مشيراً للشغف والفضول ، وتساءل الناس عن يكون هذا الكاتب المقدم الذى يطرق موضوعاً طالما تجنبه الكتاب خشية التنكيل ، وإشاراً للسلامة والتعايش مع حكام ظلمة لم يتعودوا سوى سماع عبارات التمجيد والتعظيم والتسبيح بحمدهم .

كانت الدول العربية آنئذ تخضع لسيادة الدولة العلية التى يجلس على عرشها أستاذ فى الاستبداد :- السلطان عبد الحميد الذى تنكر للدستور ورجاله وزج بهم فى غياهب السجون ، وبث عيونهم فى أنحاء الممالك والولايات يطاردون الأحرار ويخمدون أنفاسهم بالسم قارة ، والخنق قارة ، وكان نصيب الشام من أذى السلطان كثيراً . . . أما مصر فكانت قد تخلصت من قيود الرق العثمانى . وسرى فيها لهيب البوغى الوطنى ، وترددت فيها صيحات الحرية

والعدالة منذ وقت مبكر ، وظهرت فيها رموز الاستقلال متشكلة في دستور عصرى وصحافة حرة وتمثيل برلمانى ، وأصبحت مصر قبله الأحرار والمفكرين الشوام الذين ضاقت عنهم أوطانهم ، فشددوا الرحال الى أرض الكنانة حيث الحرية والسعة والأمن والرخاء .

وكان السيد عبد الرحمن الكواكبي من طليعة المفكرين الأحرار الذين ظهوروا في الشام فحركوا ركود الحياة السياسية ، وأيقظوا بنى قومهم من سباتهم فأصدر العديد من الصحف في مسقط رأسه (حلب) ، وجعل منها سوط عذاب على الظلم والظالمين ، وصوتا طليقا للمستضعفين والمنكوبين ، وكان جواسيس السلطان بالمرصاد لكل ما يكتبه الكواكبي ، فالصحف التي يحررها تصدر أو تجمع لنحرق ، والولاة العثمانيون يلفقون له القضايا ليقتضى معظم أيامه في السجون ، فلما بلغ به اليأس مبلغه راودته نفسه بالرحيل عن وطنه ، ولكنه كتم وجهته عن أهله وأخوانه ، وزعم لهم انه سيقصد استانبول للسياحة ، ومع ذلك ساورهم الخوف من أن يذهب الى مصر فيحرم الى الأبد من العودة الى وطنه ، فلما جن الليل جمع الكواكبي أوراقه وغادر وطنه مشملا قول الشاعر :

واذا نكرتني بلدة ونكرتها
خرجت مع البازي على سواد

وما هي الا أيام حتى كانت مقالات الكواكبي تتصدر الصفحات الأولى من (المؤيد) فيتردد صداها في انحاء الشرق . . ويهتز منها عرش السلطان فزعا . . يقول كامل الغزى الصديق المقرب من الكواكبي : « وبعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوما لم نشعر الا وبصدى مقالاته في صحف مصر ، وأخذت جريدة (المؤيد) تنشر له حلقات كتاب « طبائع الاستبداد » الذي لم يطلعنا عليه مطلقا ، بخلاف كتاب « جمعية أم القرى » فقد أطلعنا عليه مرارا ، ثم انه طبع الكتابين المذكورين ، وقام لهما في البلاط

السلطانى ضجة عظيمة ، وصدرت ارادة السلطان بمنع دخولهما الى
الممالك العثمانية . . . وبلغنا انه بعد دخوله مصر بأيام قلائل ، التفت
حوله جماعة من أدباء الأتراك زعموا أنهم من طائفة « تركيا الفتاة »
وما هم فى الحقيقة الا جواسيس يرقبون حركاته وسكناته ويكتبون
بها الى استانبول . . .

وعاش الكواكبى فى القاهرة معززا مكرما فى جوار الامام
الحسين ، وقد أحاط به كوكبة من أحرار الشرق الذين يتطلعون الى
اليوم الذى تتخلص فيه أوطانهم من أكفنان الذل والاسعبداد ،
ويعبرون عن آمالهم بالكتابة والخطابة وبكل ما يملكون من وسائل
البيان ، وسرت أفكار الكواكبى فى الجماهير العطشى الى الحرية مسرى
الماء فى الأرض القاحلة ، وتلهف الناس على مطالعتها لما كانوا يجدون
فيها من صدق وجرأة فى نقد الحكام الطغاة ، وبرغم القيود المحكمة
التي فرضتها السلطات العثمانية فقد وجدت كتابات الكواكبى
طريقها الى الشعوب العربية فى الشام والعراق واليمن والبحرين
وشمال افريقيا . . . وباتت مقالاته عن الاستبداد بمثابة مشاعل تهدى
المقهورين الى طريق الخلاص ، ولم يكن الخلاص سوى الثورة على
الاستبداد فى كل أشكاله السياسية والاجتماعية والتربوية ، ولم
يكن من المعقول أن يستمر هذا القلم الجرىء فى إثارة الغافلين وتنبيه
النائمين ، وانما المعقول فى ظل تقاليد الاستبداد والبطش أن يخفت
الصوت قبل أن يعلو ضجيجهم ، وفى مساء الخميس ١٤ يونيو ١٩٠٢
كان السيد عبد الرحمن الكواكبى يجلس فى مقهى يلدز قرب حديقة
الأزبكية ومعه من أصدقائه المقربين : السيد رشيد رضا والأستاذ
محمد كرد على والشيخ ابراهيم سليم النجار ، وطلب الكواكبى -
كعادته - فنجانا من القهوة المرة فارتشفه ، ولم تمض نصف الساعة
الا وقد أحس بالآلم يمزق أحشاءه ، فنهض فى الحال ومعه ابنه كاظم
فى عربة حنطور الى الدار ، وظل يتقيأ حتى قارب الليل منتصفا ،

ثم أصابته نوبة قلبية فأحس ابنه بالخطر فذهب يستدعى أقرب طبيب
بالحي ، فلما عاد بصحبة الطبيب وجد أباه قد فارق الحياة ، بعد
أن طوى فيها خمسين عاما ، كانت من أقصر الأعوام زمنا .. ولكن
من أخصبها جهادا ونضالا في سبيل الحرية والعدل والكرامة
الإنسانية .

وسرى الخبر صباح الجمعة في مدينة القاهرة . فأمر الخديو
عباس الثاني أن يدفن الكواكبي على نفقته الخاصة وأن يعجل بدفنه
في قرافة باب الوزير بالقرب من القلعة ، وارتجل شاعر النيل
حافظ إبراهيم بيتين من الشعر نقشا على شاهد قبره .

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى . هنا خير مظلوم هنا خير كاتب
قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

أما السلطان عبد الحميد فلم يكده يتلقى نبأ وفاة الكواكبي
حتى تنفس الصعداء ، وأوفد أحد أعوانه في مهمة سرية إلى القاهرة ،
فقصده إلى البيت الذي كان يقيم فيه بالحسين ، وجمع ما تبقى في
مكتبه من أوراق ، وبعث بها إلى قصر يلدز ، وظن عبد الحميد أنه
استراح إلى الأبد من ازعاجات الكواكبي ، ولكن الأقدار خيبت ظنونه ،
فما هي إلا بضعة سنين حتى أتهار عرش عبد الحميد ، وأطاحت به
ثورة جارية ألقت به في أعماق السجون ليقتضى ما تبقى له من عمر
مقهورا منحورا ، وبقيت أفكار الكواكبي شعلة وضياء في قلوب
الأحرار ، وانشودة يتغنى بها عشاق الحرية في أنحاء الشرق .

المستبد عدو الحق

كان السيد عبد الرحمن الكواكبي مفكرا تقدميا بالقياس ، الى عصره ، فقد شغل نفسه بقضية كانت مركونة في أخصاب العقل العربي منذ عصر ابن خلدون ، فجاء احياؤها نشازا اذا قورنت بالقضايا التي كانت تشغل بال علماء الدين في أخريات القرن التاسع عشر ، فقد كانت اهتماماتهم موزعة بين التصوف وبحوث البلاغة والبيان والبديع والنحو والصرف والخلافات الفقهية في الفروع ومدى مشروعية استخدام الصنوبر (الحنفية) في الموضوع ، فاذا تبحروا عقليا بحثوا في أمور الحياة الأخرى ولا يقربون شيئا من شئون الحياة الدنيا .

وكان هذا القصور العقلي يلقي تشجيعا من الحكام لأنه يصرف الرعية عن التفكير في القضية الأساسية : قضية نظام الحكم ومدى تطابقه مع المبادئ الأساسية التي جاء بها الاسلام كالعدالة والحرية والشورى والمساواة والوفاء بالعهد واحترام الكرامة الانسانية ، وهي القضية التي استحوذت على تفكير الكواكبي فجعلها قضية عمره ، ومحور كتابه العظيم (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) فظهر كنقطة ضوء في عتمة الفكر السياسي وكان أثره في العقل العربي

لا يقل عن أثر (العقد الاجتماعي) لروسو (وروح القوانين)
لمونتسكيو فى العالم الغربى ، فقد بدأت الشعوب العربية تتنبه الى
واقعها المرير من خلال التشريح الذى قدمه الكواكبي للعلل والأمراض
التي تعاني منها الأمة الاسلامية ، وقدم لنا هذا المفكر الجريء
تشخيصا واقيا استقاه من قراءة عميقة للتاريخ الاسلامى كما استقاه
من الواقع الذى لمس به بنفسه بعد سياحة عريضة فى البلاد الاسلامية ،
لم تكن سياحة للترويح عن النفس ، ولكن لتقصى الحقائق والتعرف
على حال هذه الشعوب ، فكان اذا هبط بلدا خالط أهله فى معاشهم
وفكرهم وسلوكهم ، وتعرف الى مصادر أرزاقهم وكوامن ثرواتهم
الزراعية والمعدنية وأسلوبهم فى العمل ونظام حكمهم .

ومن حصيلة هذه المعارف النظرية والعملية توفرت للكواكبي
رؤية عميقة لواقع الشعوب الاسلامية انتهى فيها الى ان أصل الداء
يكمن فى نظم الحكم المطلق التي أطبقت على رقاب الشعوب وخنقتها
بالذل والاستعباد ، وصاغ الرجل أفكاره فى عبارات واضحة جريئة
لا تحتمل لبسا ومقازها أن ما أصاب الدول العربية من انحطاط
وتخلف إنما مرجعه وقوعها تحت وطأة حكومات غاشمة وحكام طغاة
مغتصبين معتدين وضعوا كعوب أرجلهم على أفواه الملايين من الناس
فمعنوها النطق بالحق والمطالبة به .

وكم كنت أود أن أقدم للقارئ العزيز ملخصا واقيا للأفكار
التي تضمنها كتاب (طبائع الاستبداد) ، لولا أن رفوف مكتبتى
لا تضم هذا السفر الخطير الذى يعرض كل عاشق للحرية وكل
مبغض للاستبداد على اقتنائه . فالكتاب اختفى منذ عشرات السنين
ولم تحفل دور النشر بإعادة طبعه اتقاء لبطش الحكومات العربية فهي
بطبعها لا تحب ذبوع مثل هذه الكتب التي توقظ الغافلين وتنبه
المظلومين الى حقوقهم المهدرة ، ولذلك سأقدم ملخصا للعرض الوافى

الذى كتبه العلامة الكبير أحمد أمين عن الكواكبي ضمن فصول كتابه
(زعماء الإصلاح الاجتماعى فى العصر الحديث) .

فكتاب طبائع الاستبداد يدور حول تعريف الاستبداد بأنه
صفة للحكومة المطلقة العنان التى تتصرف فى شئون الرعية كما
تشاء ، بلا خشية حساب ولا عقاب ، ويأتى هذا من كون الحكومة
مطلقة التصرف ، ولا يقيدوها قانون ولا ارادة أمة ، وربما كانت
الحكومة مقيدة بشئ من ذلك ولكنها تملك بنفوذها ودهائها ابطال
هذه القيود والسير على هواها ، والحكومات بطبيعتها ميالة الى
الاستبداد ، لا يصدها عنه الا وضعها تحت المراقبة الشديدة .
ومحاسبتها محاسبة لا تسامح فيها .

فالمستبد عدو الحق ، وعدو الحرية وقاتلها ، وهو يود أن تكون
رعيته بقرا تحلب ، وكلابا تتذلل وتتملق ، وعلى الرعية ان تدرك
ذلك فتعرف مقامها منه : هل خلقت خادمة له . أم هى جاءت به
ليخدمها فاستخدمها ؟ والرعية العاقلة مستعدة ان تقف فى وجه
الظالم المستبد ، تقول له : لا أريد الشر ، ثم هى مستعدة لأن تتبع
القول بالعمل ، فان الظالم اذا رأى المظلوم قويا لم يجرؤ على ظلمة .

وقد بحث الكواكبي بحثا مستفيضاً فى علاقة الاستبداد
بالدين ، ونقل عن الفرنج رأيهم فى ان الاستبداد فى السياسة متولد
عن الاستبداد فى الدين أو مساير له ، فكثير من الأديان تبث فى
نفوس الناس الخشية من قوة عظيمة لا تدرك كنهها العقول ، وتهددهم
بالعذاب فى الحياة الأخرى ، ثم تفتح باباً للخلاص والنجاة بالالتجاء
الى الأحبار والقسس والمشايخ ، بالذلة لهم ، وطلب الغفران منهم ،
والمستبدون السياسيون يتبعون هذه الطريقة فيستترهبون الناس
بالتعالى والتعظيم ويذلونهم بالقهر والقوة وسلب الأموال حتى لا يجدوا
ملجأ الا التزلف لهم وتملقهم ، وعوام الناس يختلط عليهم فى

أذهانهم الاله المعبود والمستبدون من الحكام ، فيتشابه عندهم استحقاق التعظيم ، وينزهونهم عن سؤالهم عما يفعلون ، ولا يرون لهم حقا في مراقبتهم على أعمالهم كما انه ليس لهم حق في مراقبة الله فيما يفعل !! ولهذا خلعوا على الحاكم المستبد صفات الله مثل ولى النعم ، والعظيم الشأن ، والجليل المقتدر .. وما الى ذلك ، وما من مستبد سياسى الا ويتخذ له صفة قدسية يشارك فيها الله ، أو تربطه برباط مع الله ولا أقل من أن يتخذ بطانة من أهل الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله .. !!

ولقد رأى الكواكبي ان الاسلام فى جوهره الاصيل لا ينطبق عليه هذا القول ، فهو مبنى على قواعد الحرية السياسية متوسطة بين الديمقراطية والارستقراطية ، فهو مؤسس على أصول ديمقراطية (أى مراعاة المصلحة العامة) وعلى شورى ارستقراطية (أى شورى الخواص وهم أهل الحل والعقد) ، فالقرآن مملوء بتعاليم تقضى بامانة الاستبداد والتمسك بالعدل والخضوع لنظام الشورى ، ثم لا يعرف الاسلام سلطة دينية ، لا اعترافا ، ولا بيع غفران ، ولا منزلة خاصة لرجال الدين ، ولكن دخل عليه من الفساد ما دخل على كل دين ، ففرقت كلمة المسلمين ، وانقسموا شيعة ، وتحول الحكم من نظام شورى الى استبداد ، فصغرت نفوس الناس وخفت صوتهم ، وأضاعوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو المبدأ الذى به يراقب أولو الأمر فى الأمة ، فصار أمر المسلمين الى ما نرى .

ويلاحظ أحمد أمين أن الكواكبي لم يتعرض للرد على الشرط الأول وهو ما يوحى تصوير الله بالقوة والعظمة من خضوع النفوس للمستبد ، ويرى أحمد أمين أن الاسلام - بجعله (لا اله الا الله) محور الدين - كان كفيلا أن يذكر المسلمين دائما بأن العزة لله وحده ، وأن النفوس لا يصح أن تذلل لأحد سواه ، وان هذه الكلمة توحى بالضعف أمام الله ، والقوة أمام من سواه ، ولكن بتوالى القرون

وبفساد العقائد . أصبحت (لا اله الا الله) عند أكثر المسلمين
كلمة جوفاء لا روح فيها ، تبعث الضعف ولا تبعث القوة ، وتبيح
أن يشرك مع الله الحاكم المستبد والرئيس المستبد ، بل المال والجاه
والمنصف ، فكل هذه وأمثالها أصبحت آلهة مع الله .. !!

الاستبداد أصل كل فساد

عكف السيد عبد الرحمن الكواكبي على دراسة أحوال الشعوب الإسلامية ، فهاله ما كانت عليه في أخريات القرن التاسع عشر من تخلف وانحطاط واملاق .. وانتهى من نظراته التشريعية الدقيقة الى أن الاستبداد هو أصل كل فساد ، وسبب كل نقیصة ، والسوس الذي ينخر جسد الأمة فيسلبها رواءها ونضارتها ويحيلها جلدا على عظم .

قالحاكم المستبد يخشى العلم ، لأن العلم نور ، وهو يريد أن تعيش الرعية في الظلام لأن الجهل يمكنه من بسط سلطانه ، وهو لا يخشى علوم اللغة والأدب ولا علوم الدين المتعلقة بالحياة الآخرة ، بل هو يستخدم العلماء من هذا القبيل لتأييده في استبداده ، يسد أفواههم بلقيمات من فتات مائدته ، انما ترتعد فرائضه من علوم السياسة والاجتماع والتاريخ والفلسفة العقلية ونحو ذلك من العلوم التي تنير الدنيا وتثير النفوس على الظالم ، وتعرف الانسان حقيقته كإنسان له حقوق ومطالب ، وكيف ينالها ويستخلصها من الحاكم السارق .

والحاكم المستبد تسره غفلة الشعب ، لأنه يتمكن بغفلتهم من

الصولة عليهم : ينصب أموالهم فيحمدونه على ابقاء حياتهم ،
ويضرب بعضهم ببعض فيصفونه بحسن السياسة والكياسة ،
ويسرف في أموالهم فيقولون انه كريم ، ويقتلهم ويمثل بهم
فيقولون انه رحيم ، وان تقم عليه بعض الأباة ، قاتلهم بهم كأنهم
بغاة .

ويضع الكواكبي أيدينا على حقيقة غريبة تقول ان الحاكم
المستبد يخشى رعيته كما تخشاه رعيته ، بل خوفه منهم أشد ،
لأنه يخافهم عن علم ، وهم يخافونه عن جهل ، وقد اعتاد المؤرخون
المحققون قياس درجة استبداد الحاكم بمقدار حذره ، وقياس درجة
عدله بمقدار طمأنينته ، كما يستدلون على أصالة الاستبداد في
الامة بتurf حكامها ، وامعانهم في البذخ ، وقد تكون اللغة دليلا
على تفشى الاستبداد بما تحويه من ألفاظ التعظيم والتفخيم وعبارات
الخنوع والمذلة كاللغة الفارسية .

ويرى الكواكبي أن الاستبداد لا يكون مقصورا على الحاكم
الفرد ، ولكنه يتفرع منه الى المستويات الدنيا : الى الشرطى . . الى
الكناس . . الى الفراش . . ولا يكون كل صنف من هؤلاء الا من
اسفل طبقتة لأنه لا يهمهم الترفع باستجلاب محبة الناس ، انما يهمهم
اكتساب ثقة رئيسهم المستبد ، والوزير فى الحكومة الاستبدادية هو
وزير المستبد الأعظم لا وزير الامة ، وكذلك من تحته من أعوانه ،
فالهيئة كلها شركاء فى جريمة الضغط على الامة وظلمها وقتل روح
الاباء والعزة فيها ، وخلق نوع من السيادة الكاذبة ، وتجعل أولى
الأمر سلسلة تبدأ من المستبد الأعظم الى الشرطى فى الشارع ، كل
ينخضع لما فوقه ، ويستبد بمن تحته ، وعلى العكس من ذلك الحكومة
الديمقراطية ، فهى تشعر كل شخص فى الدولة بالعزة التى يحميها
العدل ، وبأن له نصيبا فى حكم بلاده ، وصوتا مسموعا فيما يجب
أن يعمل ، وما يجب أن يترك ، وأن حكومته ليست قائمة الا برأيه

ورأى أمثاله . ان شعروا يوما بجورها اسقطوها ، سلطة الراى العام فيها فوق سلطان الحكومة والبرلمان وكل سلطان .

وعرض الكواكبي بعد ذلك لأثر الاستبداد فى فساد الأخلاق ، فالاستبداد يضعف الأخلاق الفاضلة ويفسدها ، لأنه يفقد الانسان عاطفة الحب ، فهو لا يحب قومه لأنهم عون الاستبداد عليه ، ولا يحب وطنه لأنه يشقى فيه ، وهو ضعيف الحب لأسرته لأنه ليس سعيدا فيها ، وهو لا يركن الى صديقه لأنه قد يأتى عليه يوم يكون فيه عونا على الاستبداد ومصدر شر له .

الانسان فى ظل الاستبداد لا ينعم بلذة العزة والشمم والرجولة ، فلا يذوق الا اللذة البهيمية لأنه لا يعرف غيرها ، والاستبداد يقلب الأخلاق ، فيحيل النصيح تطاولا ، والشهامة تجبرا ، والحمية تطرفا وطيشا ، والانسانية حمقا ، والرحمة ضعفا ، والنفاق سياسة ، والتحایل كياسة ، والدناءة لطفا ، والبذاءة دماثة وظرفا .

والاستبداد أفسد عقول المؤرخين ، فسموا الجبايرة الطغاة عظماء أجلاء ، كما أفسد اخلاق الناس فأرغمهم على ألفة الرياء والنفاق ، وأعان الأشرار على فجورهم وجعلهم فى مأمن حتى من الانتقاد والفضيحة ، ولأن معظم أعمالهم تظل مستورة ، لا يجرؤ الناس على قول أمامهم خوف العقاب .

ثم عرض الكواكبي لأثر الاستبداد فى تربية الأمم والأفراد . فالحكومة العادلة تعنى بتربية الفرد منذ كونه جنينا ، وذلك بسن قوانين للزواج الصالح ثم بالعناية الصحية للطفولة ، ثم بإنشاء المدارس وتسهيل الاجتماعيات والاهتمام بالقدرات الجسمانية والنفسية والعقلية للأفراد . وفى ظلها يعيش الانسان حرا نشيطا يسره النجاح ولا تحزنه الخيبة ، وفى الحكومة المستبدة يعيش « طفلا

خادمًا ضائع القصص حائرا .. ويصير كالأسير المعذب يسلى نفسه
بالسعادة الأخروية ، ويبعد عن فكره أن الدنيا عنوان الآخرة ،
وقد جنى على المسلمين علماؤهم فافهموهم أن الدنيا سجن المؤمن ،
وأن المؤمن مصاب ، وإذا أحب الله عبدا ابتلاه ، وهكذا مما ابتدعوه ،
ويتغافلون عن الأثر « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » ، وحديث
« إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها » وكان من أثر
هذه المثبطات أن حولت الأذهان من معرفة أسباب الشقاء الى القائها
على عاتق القضاء والقدر ، وقد أحكموا هذه المكيدة باختراع الأحاديث
التي تجعل الخضوع للحاكم المستبد .. دينا ، وعلى الجملة فالترقية
الصحيحة عند الكواكبي لا تتحقق في ظل الاستبداد .

ولا يقف هذا المفكر الجليل عند حد تشریح طبائع الاستبداد ،
انما يرشدنا الى سبيل الخلاص من هذا الداء الويل ، فيرى أن
الاستبداد لا يقاوم بالقوة ، انما يقاوم باللين ، وبالتدریج ، يبيث
الشعور بالظلم ، وهذا بالتعليم والوعی ، ذلك لأن الاستبداد محفوف
بأنواع القوات : قوة الجند ، وقوة المال ، وقوة رجال الدين ، وقوة
الأغنياء ، فاذا قوبل بالقوة كانت فتنة تحصد الناس ، وانما الواجب
المقاومة بالحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة ، والاستبداد
مع اعتماده على هذه القوات كلها يضعف أمام الوسائل المحكمة في
قلبه ، كما قيل : كم من جبار عنيد صرعه مظلوم صغير .. !!

ويجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة البديل ، ومعرفة الغاية
معرفة دقيقة واضحة ، ومتى وضحت الغاية المرسومة يجب السعى
في اقناع الناس بها واستجلاب رضاهم عنها وحملهم على النداء
بها ، ويجب أن ينشر ذلك في كل الطبقات حتى يصبح عقيدة فيتلهموا
جميعا على نيل الحرية وتحقيق المثل الذي ينشيدونه .. عندئذ لا
يسمع المستبد إلا الاجابة طوعا أو كرها .

هذا مجمل لأفكار الكواكبي حاول أن يوقظ بها قلوبا غلفا ..
وأسماعا صما .. وليس من شك في أنها آتت ثمارها فازالت
أصناما وأطاحت بطواغيت .. ورسخت معاني الحرية والكرامة في
خفوس أبناء الشرق *

تحرير المرأة المصرية

كان صدور كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين بمثابة القاء حجر فى بركة راكدة فتحركت مياهها الآسنة واهتزت أمواجها ، وتطاير رذاذها لينال من سمعة الرجل وكرامته ، حتى ان الحديو عباس الثانى أمر بوضع اسمه على قائمة الممنوعين من دخول قصر عابدين بالرغم من مركزه القضائى الرفيع . . . وبعدها انهال الطاعنون يسبقون الرجل بالسنة حداد . . . ويرمون به بأبشع التهم التى بلغت حد الالحاد والمروق من الدين .

انظر الى هذه الصورة الوصفية التى يسجلها الدكتور محمد حسين هيكل فى مذكراته عن الزوبعة التى صاحبت ظهور الكتاب : « فى سنة ١٩٠١ وقع حادث لفت أنظار الناس جميعا وأثار ضجة كبرى ، ذلك أن قاسم بك أمين المستشار بمحكمة الاستئناف نشر كتابا عنوانه « تحرير المرأة » طلب فيه تعليم المرأة ورفع الحجاب عنها ، وكان تعليم المرأة يومئذ أمرا ادا ، لا يقوم عليه رجل حريص على احترام الجمهور المصرى له ، أما رفع الحجاب وخروج المرأة سافرة الى المجتمعات فكان القول به أدنى الأشياء الى تحليل ما حرم الله ان لم يكن الشرك بالله (!!) فقد كانت المرأة يومئذ محكوما عليها .

يألا تتعلم والا تخرج من بيتها الا لضرورة ملحة ، والا محجوبة الوجه ، والمرأة المصرية التى كان يجرى عليها هذا الحكم لم تكن المرأة الفلاحة المضطرة بحكم الحياة الى مشاركة زوجها فى عمله ، بل المرأة التى يستطيع زوجها أو أهلها أن يعفوها من مشقة الخروج من البيت . فكان ظهور هذا الكتاب حادثا - بل حادثا خطيرا - اضطربت له آراء الهيئات الدينية واضطرب له كثير من المتعلمين أنفسهم .



واذا كان قاسم أمين قد دخل تاريخ مصر الاجتماعى على أنه محرر المرأة حتى أطلق اسمه على كثير من مدارس البنات ، الا أن الدراسات الحديثة تكشف عن أن قاسم أمين لم يكن أول الرواد الذين ارتادوا هذا الحقل الملىء بالألغام ، وإنما سبقته جهود حثيثة قام بها آباء الاستنارة الفكرية الذين وضعوا اللبنات الأولى فى صرح المجتمع المصرى الحديث وهو يعانى آلام المخاض ، ويشق طريقه بصعوبة من خبايا العصر التركى الى مشارف العصور الحديثة ، وكان على رأس هؤلاء جميعا أبو الرواد رفاعة رافع الطهطاوى الذى حمل راية التنوير فى شجاعة وثبات ، ودعا الى تعليم المرأة واثابة الفرصة أمامها لتعمل الى جانب الرجل ، ورأى فى تعليمها وعملها تكريما لها ورفعها لمكانتها .

يقول الدكتور محمد كمال يحنى فى كتابه (الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية فى العصر الحديث) ان قضية تعليم المرأة لم يكن مقيضا لها النجاح لو لم يتصد لها المفكرون والكتاب من عامة المصريين ومثقفهم بالتحليل والاقناع ، ويأتى على رأس هؤلاء رفاعة الطهطاوى الذى طالب فى كتابه (تخليص الابريز) بتعليم المرأة قائلا : لقد اقتضت التجزبة فى كثير من البلدان أن نفع تعليم البنات أكثر من ضرره . . بل لا ضرر فيه أصلا . . ودخول البنات والغلمان

للمدارس واجب قانونا في جرمانيا - بل ان أوروبا كلها تعلم البنات -
والبنين على قدم المساواة وان لم يكن ذلك بقانون - وهذا هو السر
في أن بلادهم الآن هي أقوى البلدان .

ولم تكن دعوة الطهطاوى الى عمل المرأة صادرة عن رؤية خيالية
أو شطحة فكرية بل عن ايمان عميق بهذه القضية ، خاصة عندما أكد
في كتاب له بعنوان (المرشد الأمين للبنات والبنين) وخصص فيه
فصلا كاملا عن « تشريك البنات مع الصبيان في التعلم والتعليم
وكسب العرفان » ، واذا كانت دعوة الطهطاوى الى تعليم المرأة قد
لقيت استجابة محدودة من جانب مؤسس مصر الحديثة ، واذا كانت
مصر قد شهدت في عهد محمد علي أول نواة لتعليم البنات ، فان
أفكار الطهطاوى وجدت صداها العميق عند اسماعيل ، ذلك العاهل
المستنير الذي قاد النهضة الثقافية والعلمية بلا منازع ، وفي عهده
انتشرت مدارس تعليم البنات بمعاونة رشيدة من رائد آخر هو علي
باشا مبارك الذي كان يرى أن من حق الفتاة أن تتبحر في العلم الى
غايتها ، وكان يرى أن الحياة بين الزوجين شركة يتعاونان فيها على
العيش بالعمل والكسب ، فقرر بهذا حقها في التعليم ، ثم في العمل
الذي تقدر عليه . وحين يتعرض على مبارك لقضية الحجاب والسفور
ينتهي فيها الى أن القدوة الصالحة والنصح الرشيد هما منبع الخير
وأصل الفضيلة ، وكان في نفس الوقت يميل الى سفورها وان لم
يصرح بذلك ، وترك لغيره بعده أن يجهر به ، فلم يمض ربع قرن
حتى قام قاسم أمين يدعو الى « تحرير المرأة من وقر الحجاب وقيوده
التي تعزل المرأة عن الحياة العامة وتحول بينها وبين أن تكون عوناً
لزوجها وشريكا له في مواجهة الحياة » .

ويقدم لنا الدكتور كمال يحيى رائداً ثالثاً من رواد تحرير
المرأة في القرن التاسع عشر هو عبد الله النديم مما يدل على أن
قضية المرأة كانت هدفاً من أهداف إصلاح المجتمع في مفهومه العام ،

ولم يتخلف النديم عن مفكرى عصره فى تأييد تعليم البنات ، ومع أنه كان من مؤيدى سياسة الحجاب والتمسك به ، فقد أيد تعليم البنات أمور الدين وشئون الأسرة وأصول الحياة الزوجية والتدبير المنزلى ، وعارض تعليمهن الموسيقى والرقص واللغات الأجنبية .

ان الحديث عن موقف رائد الرواد رفاعة الطهطاوى من قضية المرأة يتطلب القاء الضوء على تلك الوثيقة الهامة التى تكشف بوضوح عن الارتباط العميق بين أفكار رفاعة وسلوكه الشخصى ، لقد كان الرجل يكن احتراماً عميقاً للمرأة ويؤمن بحقوقها فى المساواة والعدل ، فلما تزوج بنت خاله حرر لها هذه الوثيقة الموجودة فى دار المحفوظات ونصها كما يلى :

« التزم كاتب هذه الأحرف رفاعة بدوى رافع - لبنت خاله المصونة ، الحاجة كريمة ، بنت العلامة الشيخ محمد الفرغنى الأنصارى أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من نساء أو تمتع بجارية أخرى - فان تزوج بزوجة أيا كانت - تكون بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة - وكذلك اذا تمتع بجارية ملك اليمين ، ولكنه أوعدها وعداً صحيحاً لا ينقص ولا يحل أنها ما دامت معه على المحبة المعهودة مقيمة على الأمانة والعهد لبيتها ولأولادها ولخدمها وجوارها ، ساكنة معه فى محل سكناه ، لا يتزوج غيرها أصلاً ، ولا يتمتع بجوار أصلاً ، ولا يخرجها من عصمته حتى يقضى الله لأحدهما بقضاه » .

وهذه الوثيقة واضحة الدلالة على أن الطهطاوى لم يكن من أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون .

عبيد وجوار

كان الرقيق يشكل عنصرا أساسيا فى كيان البيت المصرى خلال القرن التاسع عشر ، وكلما كان يخلو بيت ارسى قراطى من العبيد والجوارى الذين يتناسب عددهم ، مع ثراء رب البيت ، وقدرته على دفع أثمانهم والاتفاق عليهم ما داموا ملك يمينه ، فثمن الصبى أو البنت السوداء كان لا يزيد على ١٢ جنيها ، أما الرقيق الحبشى فأعلى درجة ، اذ يتراوح ثمن الصبى بين ٢٠ و ٣٠ جنيها ، و ثمن الفتاة الحبشية تحت سن ١٨ يصل الى مائة جنيه ، وأما الرقيق الأبيض من الجوارى الشراكسيات الجميلات فكان باهظا ثمنه ، اذ يختلف ثمن الجارية بين ٢٠٠ و ٥٠٠ جنيه ، ويصل فى حالة جمالها الأخاذ الى ألف جنيه ، فلا يقدر على اقتنائهن سوى غلاة الموسرين كالأمراء ومن يلوذ بهم من الشرائع العليا فى المجتمع .

وقد وجد بين المصريين من كان لديه القدرة على تملك مئات الجوارى من شتى الأصناف والألوان والأجناس ، مثل اسماعيل صديق باشا « المفتش » الصعلوك الذى رفعتة الأقدار من حضيض الفاقة الى مجتمع الملوك ، فعاش عيشة البذخ والسفاه ونسى حياة الحوارى والجحور ، فلما انقلب عليه الحديو اسماعيل ، أخوه من

الرضاعة ، وقتله غيلة ، وجدوا بين تركته الاسطورية سبعمائة
جارية « ٠٠ ما بين حورية شركسية بيضاء ذات ثمن يفوق كل
تقدير ، وخمرية مسكرة ، وسمراء غانجة ، وحبشية شعرية ذات
عين بقرية ، وبرونزية موشومة ذات نهود سفرجلية ، وسودانية
فحماء متقدة الدم « على حد وصف المؤرخ الياس الأيوبي ، وقد
أشرف الخديو اسماعيل بنفسه على توزيع هذا القطيع الانثوى ،
فاختار أجملهن خلقا وأخفهن دما ، وأمهرهن صناعة والحقهن بالحريم
الخاص بالخدو ، وأهدى بعضهن الى أصفياؤه من كبار ضباط الجيش
وكبار رجال الدولة ، « اما لكى تقع نقطة من دم صديق على كل
منهم ، واما - وهو الأقرب الى المعقول فى رأى الأيوبي - لكىلا يفوت
البغاث شىء من فضلات النسر ، أما الباقيات فقد عرضن للبيع فى
سوق النخاسة ليشترين من يريد أن يقتنى أثرا من آثار فرعون
الصغير . أما الخديو نفسه فكانت قصوره تحوى حوالى ألفين من
الجواري الحسان .

وكان لتجارة الرقيق تنظيم محلى فى مصر ، على ما يذكر
الدكتور محمد كمال يحيى ، وكان معظم هؤلاء التجار من أبناء مصر
العليا أو السودانيين المقيمين فى مصر ، وفى القاهرة بصفة خاصة .
كما كان هناك بدو وقرويون من مديرية البحيرة ومغاربة اشتغلوا
بهذه التجارة ، وفى بعض الأحيان اجتذبت هذه التجارة بعض
النساء فاحترفنها - وكان تجار الرقيق الأسود يختلفون عن مستوى
زملائهم تجار الرقيق الأبيض ، فالأولون كانوا ينتمون الى مجموعة
من طوائف الحرب ذات الوضع الاجتماعى المنخفض ، بينما كان
المشتغلون بتجارة البيض من تجار خان الخليل .

وكان جلب الرقيق الأسود يجرى عن طريق القنص والخطف
بواسطة عصابات تقوم بهذا العمل الاجرامى فى حملات شبيهة
عسكرية ثم تبيع ايرادها الى شركات تجارية تتولى حمل الرقيق عن

طريق النيل فى مراكب ترفع رايات دول أجنبية لكى تحتوى بامتيازاتها ، أو عن طريق الصحراء الى أسىوط ومنها الى القاهرة والاسكندرية والمدن الكبرى ، أما جلب الجوارى البيض فكان فى معظمه يتم بالتراضى عن طريق الشراء من الآباء الذين يعرضون أولادهم وبناتهم للبيع تخلصا من نفقاتهم ، وعلى أمل أن تتاح لهم فرص الحياة الرغدة فى قصور السلاطين والأمراء ، فلربما بلغ أحدهم مركزا مرموقا فى وظائف الدولة ، ولربما أصبحت أحداهن السيدة الأولى فى قصر سيدها اذا نجحت فى الاستئثار بقلبه واضمحلت محظيته المفضلة ، أو زوجته اذا أنجبت فاعتقت .

•

وكان هناك صنف ثالث من الرقيق لا هو من العبيد ولا من الجوارى ، أولئك هم (الحصيان) الذين كان الأمراء يعهدون اليهم بخدمة « الحريم » دون خوف على أعراضهن بعد أن أزيلت من أجسام الصبية أعضاء التناسل وكانت عملية الخصى البشعة تجرى داخل بعض الاديرة فى صعيد أسىوط يقوم بها الرهبان المتمرسون مقابل أجر كبير يتناسب مع خطورة هذه العملية التى كانت تنتهى غالبا بوفاة الصبى ، فمن نجا منهم من الموت سيق الى سوق النخاسة لبيع بسعر يفوق سعر غيره من أصناف الرقيق .

أما الجارية البيضاء فكانت تخضع داخل بيت النخاس لبرنامج طويل المدى تلقن أثناءه مبادئ الدين والقراءة والحساب . ثم تتعلم شئون التدبير المنزلى كالطهى والحياكة وأصول التعامل مع السادة ، فاذا كانت تتمتع بموهبة خاصة كالصوت الجميل جاءواها بمعلمين متخصصين يدرّبونها على الغناء والعزف على العود ، وكل إضافة الى قدراتها ترفع من سعرها ، فاذا انتهت مرحلة التدريب والاعداد يبدأ عرضها على سمسرة يبحثون عن هذا النوع المتميز لتحتل مكانها فى قصور العلية الموسرين .

أما بقية الجوارى اللاتي لا يتمتعن بمواهب خاصة ، فكان يعهد اليهن بالأعمال التافهة وفق تقاليد العصر ، فواحدة وظيفتها « قهوجى كالفه » لتقديم القهوة ، وأخرى لحمل الملابس على اليد ، وثالثة لتقديم الشراب ، ورابعة وظيفتها « سفيرجى كالفه » أى اعداد المائدة للطعام ، وهناك « شمورجى كالفه » ووظيفتها تحضير الملابس للسيد .

وكان اقتناء الرقيق فى البيت المصرى من مظاهر الإبهة والفخفة والرغبة السقيمة فى تقاليد الارستقراطية التركية ، فتحول البيت المصرى الى مسخ من الحريم التركى يموج بألوان من الجوارى والعبيد والخصيان لمجرد التشبه بالسيادة الترك دون أن تكون هناك حاجة عملية لحشد هذا الكرنفال المتعدد الألوان اذ كان رب البيت لا يعرف فى الغالب أسماء جواريه ولا يعيرهن التفاتا ، خاصة اذا كانت سيدة البيت من الحرائر فلا تسمح لزوجها بأن يلعب بذيله مع هذه الفراشات الجميلة . ولذلك كانت الزوجة تتفانى فى ارضاء زوجها وتقوم على خدمته بنفسها دون جواريه حتى لا تسمح لواحدة منهن باغرائه والاستحواذ على قلبه .

فلما أوشك القرن التاسع عشر على الغروب ، كانت الدعوة الى عتق الرقيق قد أصبحت مطلبا انسانيا تردد فى كل أنحاء العالم الذى كان يعترف بالرق ووصل صدهاء الى مصر ، واستجابت الدولة لدواعى العصر فأصدرت التشريعات التى تحرم جلب الرقيق . وقامت الحملات لمطاردة النخاسين ، وأنشأ الخديو اسماعيل مدرسة خاصة لتعليم عدد من الفتيات الريفيات الفقيرات شئون الخدمة المنزلية ليكن بديلات عن الجوارى المرغوب فى عتقهن . وبدأ المجتمع المصرى يجد فى التخلص من الرقيق . ولكن المشكلة التى لم يفكر فيها أحد هى : أين تذهب الجوارى بعد عتقهن ، وليس لهن جذور

فى المجتمع ولا يعرفون لهن آباء ولا أمهات ولا أخوة ؟؟ وكانت النتيجة
المؤسفة هى اضطرار معظم الجوارى الى احترام البغاء !!

●● نفس المازق الذى وقع فيه سبارتاكوس قبل ١٧ قرنا
عندما قاد ثورة تحرير العبيد دون أن يفكر فى مصيرهم بعد
التحرير !! فعادوا الى الرق مرغمين ٠٠ !!

مصر الجديدة

كانت ضاحية مصر الجديدة أول امتداد صحى مدروس للتوسع العمرانى الذى شهدته مدينة القاهرة فى مطلع القرن العشرين ، فجاء تأسيسها على نمط الضواحي التى أقيمت حول العواصم الأوروبية لامتناس الزيادة الطبيعية فى عدد سكانها وتلافى حدوث انفجارات داخلية فى بنية المدن القديمة ، ويقوم مفهوم الضاحية فى غرف علماء العمران على أساس أن تكفل الضاحية لسكانها المسكن الصحى النظيف ، وتوفر لهم كل احتياجات المعيشة الطبيعية من علاج وتعليم وترفيه بحيث لا يهبطون قلب المدينة الا مرة واحدة فى اليوم عن طريق ترام سريع (مترو) يحمل سكان الضاحية فى الصباح الى أعمالهم ويعود بهم بعد انتهاء العمل ، ومعنى ذلك أن التفكير فى انشاء ضاحية مصر الجديدة جاء مصاحبا لظهور الترام فى شوارع القاهرة عام ١٨٩٦ وما أثاره هذا الترام من طفرة اجتماعية وعمرانية هائلة .

وفى عام ١٩٠٥ أسست شركة بلجيكية لإنشاء حى جديد فى المنطقة الصحراوية التى تقع شمالى القاهرة ، والأمر الجدير بالتسجيل والتقدير أن هذه الشركة الأجنبية - ومعها الحكومة المصرية - اتجهت

الى تعمير الصحراء ، ولم يخطر ببالها أن تعتدى على المناطق الزراعية المتاخمة للقاهرة ، والتي كانت مصدر الغذاء الرئيسى لسكانها ، والمؤسف أن ما حرصت عليه الشركة الأجنبية هي والحكومة الوطنية - كان مجال تفريط من جانب الحكومات المصرية بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، حيث تركت الحبل على الغارب لظهور الأورام السرطانية فوق الأرض الزراعية فى مدينة الأوقاف والهرم وعلى امتداد النيل من بنها الى حلوان . .

واختارت الشركة البلجيكية منطقة صحراوية كان لها وجود تاريخى فى العصر البطلمى ، وهى منطقة (هليوبوليس) التى قامت على أرضها جامعة فلسفية تخرج فيها أساطين الفكر اليونانى : أبقراط وأفلاطون وأرسطو وجالينوس فضلا عن نوابغ العلماء فى الطب والسياسة والبلاغة والحكمة ، وكان اطلاق اسم هليوبوليس (أى مدينة الشمس) على الضاحية الجديدة بهدف اصفاء الصبغة التاريخية عليها ، ولكن الأهالى استثقلوا الاسم فأطلقوا عليها من تلقاء أنفسهم اسم : مصر الجديدة .

وبدأت الشركة مشروعها العمرانى على مساحة ٢٥ كيلو مترا مربعا أى ما يوازى حوالى ٦٠٠٠ فدان اشترتها من الحكومة المصرية بسعر جنيه واحد للفدان ، ثم قامت بتقسيمها وطرحها للبيع لمن يريد بسعر أربعين قرشا للمتر الواحد على أن تشكّل الشركة بأعمال بناء العمارات والفيلات ويسدد الملاك الجدد ثمن الأرض والبناء على أقساط متهاوذة بفائدة ٣٪ للأرض و ٥٪ للبناء ، ولقيت الشركة اقبالا منقطع النظير لدرجة أنها حين طرحت أسهمها للاكتتاب العام تهافت المصريون والأجانب على شرائها حتى تمت تغطية ثمن الأسهم ٨٣ مرة ، منها ٤٥ مرة فى الاسكندرية وأربع مرات فى انجلترا وبلجيكا ، والباقيات فى القاهرة ، وبلغت قيمة الأموال التى جمعتها الشركة أكثر من مليونين ونصف مليون جنيه ، وشرعت الشركة

فى تشييد المساكن وتأجيرها واغراء أهالى القاهرة على سكن
الضاحية الجديدة عن طريق الاعلانات فى الصحف • وهذه صيغة
إعلان نشرته الصحف فى شهر سبتمبر ١٩٠٩ :

« واحة عين شمس - هليوبوليس » للإيجار بجانب الجامع
الجديد والترامواى الذى سينشأ قريباً ، بيوت على الطراز التركى ،
مؤلفة من ثلاث غرف ، أو أربع ، وفسحة وفرن ، الأجرة من ٦٠ الى
١٤٠ قرشاً •

ويبرز لنا الباحث المعروف محمد سيد كيلانى فى كتابه
(ترام القاهرة) مراحل نشوء هذه الضاحية الجميلة ، فقد بدأ
تسيير الترام السريع (المترو) سنة ١٩١٠ ليربطها بقلب العاصمة ،
بالإضافة الى خط الترام (الأبيض) الذى كان ينتهى عند العباسية ،
وخط آخر الى الزيتون • وكان ثمن التذكرة فى المترو من ميدان
الحازندار الى مصر الجديدة سبعة مليمات للدرجة الثانية ، وعشرة
مليمات للدرجة الأولى ، ثم زاد بعد الحرب العالمية الأولى الى عشرة
مليمات للدرجة الثانية و ١٥ مليمات للأولى • ثم يقدم لنا وقائع
الاحتفال الذى أقامته الشركة بمناسبة افتتاح مسجد مصر الجديدة
برئاسة الأمير حسين كامل نائباً عن الحديو عباس الثانى ، وبحضور
جمهور من كبار العلماء والموظفين والأعيان الوطنيين والأجانب وبعض
السياح والسبائحات • وبعد تلاوة القرآن الكريم وقف بوغوص
باشا نوبار نائباً عن رئيس مجلس إدارة الشركة البارون أو مبان
والقى خطبة شرح فيها الغرض من انشاء مدينة صحية فى ضواحي
القاهرة وسط الصحراء ، تتمتع بجفاف الهواء وتتوافر لها كل
أسباب المعيشة والرفاهية والاحتياجات الصحية ، وتتصل بالقاهرة
بقطارات سريعة تمكن سكانها من الوصول الى مقر أعمالهم فى بضع
دقائق •• (!!)

وقال بوغوص باشا نوبار : « مع أن العمل فى هذه الضاحية لم يبدأ الا من نحو أربع سنوات ، فانه قد ظهرت فى عالم الحقائق مدينة عصرية تسطع فى أرجائها شمس الكهرباء ، ورفعت فيها القصور السامقة وتوافرت فيها أنواع الرياضات ، واجتمع لهذه المدينة الحافلة بالسكان ما يربو عدده على الثلاثة الآلاف (!!) وهذا العدد يزداد كل يوم زيادة مطردة ، ونظرا الى أن أغلب سكان مصر الجديدة هم من المسلمين الذين أحلهم فى هذا البلد ما وجدوه فيه من أسباب الراحة ، رأينا ان نقدم لهم شيئا أجل من هذا كله ، فأقمنا لهم مسجدا يؤدون فيه فرائض دينهم وهو المسجد الذى نفتتحه اليوم ، وتجاوزنا عن ادارته الى ديوان الأوقاف » .

ولم تغفل الشركة عناصر الترفيه والترويح عن سكانها فأقامت لهم مدينة للملاهى أطلقت عليها اسم « لونا بارك » وجمعت فيها كل ما هو عجيب ومثير حتى تقاطر عليها أهل القاهرة ، فكانت وسيلة ذكية لجذبهم وإطلاعهم على معالم المدينة الجديدة وإقناعهم بسكنائها بدلا من التكدس فى الأحياء القديمة . وينقل محمد سيد كيلانى وصف صحيفة « المقطم » للمدهشة التى علت وجوه المصريين وهم يتنقلون من فرجة الى فرجة ومن لعبة الى لعبة . . فكان قوم يمشون فى كهوف وهم يهتزون اهتزازا شديدا ، بقوة خفية ، قيل انها الكهربائية ، فيضحكون من رؤية بعضهم البعض ويضحكون سائر الناظرين اليهم ، وقوم يمشون على شبه نول الحائك ، فيتحرك بهم الى الأمام ، ويطورا الى الوراء ، كأنهم يرقصون وما هم براقصين ، وقوم يمشون أمام مرايا مستوية ومقعرة ومحدبة ، فتريهم صورهم مشوهة تشويها مضحكا ، فتارة يكونون صغارا كالقزم ، وتارة طوالا كالجبابرة . . وكلما مروا أمام مرآة ضحكوا وقهقهوا . . وأضحكوا الذين حولهم أيضا . . .

ولما كانت الأجواء المصرية المشمسة قد شجعت عالم الطيران

الفرنسي لويس بيير موليا على أبحاثه فقد حرصت شركة مصر الجديدة
على تخليده ذكره في نصب تذكاري ، ولم تغفل أن تخلد معه ذكرى
رائد الطيران العربيين : الجوهرى وعباس بن فرناس ، ونقشت
على قاعدة النصب تلك الأبيات التي نظمها شاعر النيل حافظ
ابراهيم :

ان يركب الغرب متن الريح مبتدعا
ما قصرت عن مداه حيلة الناس

فان للشرق فضل السبق نعرفه
للجوهرى وعباس بن فرناس

قد مهدا سبلا للناس تسلكها
الى السماء بفضل العلم والباس

سلطان المادحين

لا أذكر أننى ذهبت الى الاسكندرية دون أن تقودنى قدمائى
الى تلك البقعة الطاهرة من أرضها ، حيث تتلاصق المساجد العنيقة
وتنطلق المآذن السامقة كأنها القلاح الساهرة على حماية المدينة ..
فهذا مسجد مولاي أبى العباس المرسى سيد الثغر وحارسه بلا منازع ،
والى جواره مسجد تلميذه ومريده سيدى أبى عبد الله شرف الدين
محمد بن سعيد بن حماد بن محسن البوصيرى ، الذى يعرفه العامة
باسم « الأباصيرى » .

ولا أذكر أننى دخلت مسجد البوصيرى دون أن تكتحل عينائى
بقراءة « برده » المسطورة بماء الذهب على جدران المسجد - ولا
أذكر أننى قرأت البردة أو سمعتها الا انسابت من عيني الدموع ،
وارتج القلب واهتز الوجدان .. احتراماً وتعظيماً وخشوعاً لمقام
سيدى وسيد البشر أجمعين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه
عليه .

البردة : تلك المنظومة التي فتح الله على صاحبها فى لحظة من
لحظات التجلى ، فدخلت قلوب المؤمنين فى كل أرجاء الأرض ،
وشعشت فى نفوسهم كما يشع النور فى جنبات الظلام ، من منكم

يسمع البردة دون أن يهيم اشتياقا الى الملاء الأعلى ، ويحن حنيننا الى
عالم الطهر والنور . . نحن لسنا بازاء أبيات من الشعر مرصوفة
وهزيلة كما تبني البيوت في أيامنا . . ولكننا بازاء عاشق عفيف
جرفه الحب الالهى فغاص فى بحر الحقيقة وعاد لينثر أمامنا هذه
اللالء المشعة حبا وجمالا . . رجل كانت متعته الوحيدة فى هذا
العالم مدح الرسول ، والتقرب الى الله بهذا الحب المستكن فى شغاف
القلب :

هو الحبيب الذى ترجى شفاعته لكل هول من الأهوال مقتحم
مبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

ولا تحسبن البردة هى القصيدة الوحيدة التى صاغها
البوصيرى فى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهو صاحب
« الهمزية » التى مطلعها :

كيف ترقى رقيقك الأنبياء يا سماء ما طولتها سماء

وكان يعلم أن كعب بن زهير قد حظى بالشرف الأسنى عندما
ألقي قصيدته الشهيرة أمام الحضرة النبوية الشريفة ، والتى مطلعها
(بانت سعاد فقلبي اليوم منبول) فتدفق نفس البوصيرى الى هذا
المقام الشريف . وتشرب روحه الى الطلعة المحمدية فينشئ قصيدة
على نفس الوزن والقافية التى صاغ بها كعب قصيدته ويسمىها
(ذخر المعاد فى معارضة بانت سعاد) ويقول فى مطلعها :

الى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول
فى كل يوم ترجى أن تتوب غدا وعقد عزمك بالتسويق محلول

وتمضى الأيام وينتظر الرجل لحظة التجلى كى يطفى لواعج
الظلم الذى يكوى فؤاده ، ولكن الأيام تمضى ولا يدرك مناه ،

فيعلم أنه لا يزال مشغولا بأمور الحياة ، وأن عزيمة لا تزال في حاجة الى مجاهدة ورياضة ، فلا ييأس ، وإنما يزداد قربا وتوسلا من الحبيب بقصيدة مطلعها :

أمدائح لي فيك أم تسبيح لولاك ما غفر الذنوب صفوح

ومرة أخرى يطول ليل الرجل ، ويتضاعف عذابه ، وتثقل الهموم قلبه ، ويعلم أنه لا سبيل الى غايته الا بالتجرد عن متاع الدنيا ، فيهاجر الى الله بقلبه ووجدانه ، عندئذ تتجلى له أنوار الحقيقة ، ويشعر البوصيرى بأنه ولد من جديد ، ويطلق البوصيرى على قصيدته « البردة » تشبيها بما فعله كعب وتطلعا الى القرب من الذات النبوية .

يقول الرواة ان البوصيرى نظم قصيدته بعد أن أصيب بالشلل ، واستشفع بها الى النبي وإلى الله أن يعافيه . وكرر انشادها ثم نام فرأى النبي صلى الله عليه وسلم يمسح على وجهه بيده المباركة وألقى عليه البردة فانتبه . . فاذا بالحياة تدب في جسمه المشلول . .

لقد كان الامام البوصيرى موصول الصلة بالسماء ، ولكنه لم يكن مقطوع الصلة بدنيا الناس ، فبعد تخرجه في الأزهر عمن موظفا بجهاز جباية الضرائب في مدينة بلبيس كبرى مدن الشرقية في القرن السابع الهجري ، وهي وظيفة تغرى من يشغلها بأن يصبح من أصحاب الثراء العريض بين عشية وضحاها . . ولكن البوصيرى - الشاعر الصوفي الرقيق - كان يحمل بين جنبيه قلبا يقظا وضميرا حيا ويذا عفيفة . . فنشأ من كل ذلك حجاب بينه وبين المال الحرام .

ولكن يبدو انه كان من الصعب على موظف صغير يتمتع بهذا السمو الخلقى - ان يمكث طويلا بين حيتان البيروقراطية المصرية التي تستحل الرشوة والاختلاس ، وترى في نهب أموال الدولة

عملا مشروعا لا يوقع صاحبه في دائرة الاثم والتجريم ، فترك
البوصيرى جهاز الضرائب وتقلب بين عدد من الوظائف الحكومية ،
عساه أن يجد الوظيفة التى تكفل له حياة شريفة فى إطار القيم التى
يعتقها ، ولكن موجة الفساد الادارى التى انتشرت فى العصر
المملوكى لم تحقق له أمنيته ، فترك سلك الحكومة واتجه الى العلم
والفقه بعد أن سجل تجربته فى هذه الأبيات :

خبرت طوائف المستخدمينا	فلم أر فيهمو رجلا أمينا
فكتاب الشمال همو جميعا	فلا صحبت شمالهم اليهينا
فكم سرقوا الغلال وما عهدنا	بهم فكأنما سرقوا العيونا



ولكن الشاعر الزاهد لم يجد مبتغاه فى مجتمع العلم والعلماء ،
واصطدم بتلك الزمرة الفاسدة من أدعياء العلم وتجار الدين
واكتشف ان هذا المجتمع لا يختلف كثيرا عن سابقه ، فضاقت
نفسه بضعاف النفوس من ذوى الضمائر الميتة الذين يسخرون
علمهم لمن يدفع ، ويؤولون نصوص الشرع خدمة لأصحاب الجاه
والمال .

عندئذ أدركه اليأس من اصلاح الحال ، فهاجر بدينه الى
الاسكندرية ليجد الملاذ والأمان والسكينة عند أستاذه ورائده أبى
العباس المرسى ، وكانت تلك بداية الطريق الصحيح لمن أراد أن
يعيش طاهرا فى مجتمع الذئاب .

وللبوصيرى قصائد طريفة فى وصف أدعياء العلم لا تخلو من
روح الفكاهة والسخرية واليك نموذجا منها :

تنسك معشر منهم وعدوا من الزهاد والمتورعينا
وقيل لهم دعاء مستجاب وقد ملأوا من السحت البطونا
وما أخشى على أموال مصر سوى من معشر يتأولونا

وأنت تلمس في هذه الأبيات روح السخرية والتنكيت التي كانت ظاهرة واضحة عند كل شعراء مصر الصوفيين ، لقد كانوا على درجة رفيعة من الزهد والورع والتقوى والصلاح ، ولكنهم لم يتخلصوا من مصريتهم الأصيلة في حب الدعاية والمرح .. وليس أدل على ذلك من تلك القصيدة الطريفة التي نظمها الشاعر الصوفي العظيم عبد العزيز الدريني ، وحكى فيها متاعبه وأوجاعه لزواجه من امرأتين ، ظنا أنه سينهل من بحر العسل .. ولكنهما اجتمعتا عليه وأذاقناه طعم الحنظل :

تزوجت اثنتين لفرط جهلي عسى بزواجهن تسر عيني
فقلت أعيش بينهما خروفا أنعم بين أكرم نعجتين
فجاء الحال عكس الحال دوما عذابا مؤلما بين اثنتين
رضا هذه يحرك سخط هذي نثار دائم في الليلتين
إذا ما شئت أن تحيا سعيدا من الخيرات مملوء اليدين
فعش عزبا وإن لم تستطعه فواحدة تكفى عسكرين

قصيدة الاستقبال

عاد الخديو عباس حلمي الثاني من رحلة الحج عام ١٩٠٢ فوجد في استقباله قصيدة مجهولة المؤلف من أعنف شعر الهجاء ، وأقوى ما قيل في التهجم على الأسرة العلوية التي اعتبرها الشاعر نكبة على مصر والمصريين وأخذ يعيرها بأصلها الوضع في (قوله) ، وينهال على عباس تهكما اذ طمح في أن يكون خليفة للمسلمين ! وذاعت القصيدة على ألسنة الناس ، وباتت حديث المقاهي والمنتديات بعد أن قراوها على صفحات مجلة (الصاعقة) التي كان يصدرها الصحفي أحمد فؤاد المشهور بالصاعقة نسبة الى صحيفته التي تخصصت في اقذع ألوان الهجاء والسخرية .

يقول كاتب القصيدة التي دخلت تاريخ الأدب الحديث باسم قصيدة « الاستقبال » مخاطبا الخديو بعد قدومه من الأقطار المجازية :

قدم ولكن لا أقول سعيد	وملك وان طال المدى سيبيد
يذكرنا مرآك أيام أنزلت	علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم « مقدونيا » فأصابنا	سهام بلاء وقعهن شديد

فلما توليتم طغيتم وهكذا اذا أصبح « القولى » وهو عميد
أعباس ترجو أن تكون خليفة كما ود آباء ورام جسدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنا نكون ببطن الأرض حيث تسود

وئارت نائرة الخديو ، وطلب من سلطات التحقيق أن تبشر
مهامها ، فالقت القبض على صاحب المجلة فقال انه لا يعرف اسم
مؤلف القصيدة ، وادعى انه نقلها سمعا عن الأديب الكبير مصطفى
لطفى المنفلوطى ، وبعد القبض على المنفلوطى نفى انه ناظم القصيدة ،
ولكنه لم يكشف النقاب عن اسم صاحبها ، وازاء هذه المعلومات
المبتورة لم تجد النيابة بدا من تقديمهما الى المحاكمة فكان نصيب
كل منهما السجن ستة شهور مع النفاذ .

ولم يقنع عباس الثانى بهذه النهاية ، وانصرف همه الى معرفة
المؤلف المجهول ، وكان عباس كائى حاكم شرقى يعتمد على الجواسيس
الذين ينقلون اليه همسات الناس فى مخادعهم ، كما كان بارعا فى
تدبير الدسائس والمؤامرات وهو الذى وصفه اللورد كرومر بأنه كان
أستاذًا فى هذا الفن . وأطلق عباس عيونه فى سوق الأدب حتى
عرف ان كاتب القصيدة هو السيد توفيق البكرى شيخ مشايخ
الطرق الصوفية وتقيب الاشراف وزعيم بيت السادة البكرية أحد
بيوت العلوية الذين يحظون بشرف الانتساب الى الخليفة الأول أبى بكر
الصديق رضى الله عنه ، ويضعون أنفسهم فى منزلة تضارع منزلة
البيت المالك نفسه ، ان لم تعل عليه .

وكان توفيق البكرى أدبيا وشاعرا وباحثا يجمع بين الثقافة
العربية الرصينة ، والثقافة الغربية الحديثة ، وقد تلقى تعليمه
المبكر فى المدارس الأجنبية جنبا الى جانب عباس حلمى وغيره من
امراء البيت العلوى ، وان كانت هذه الزمالة القديمة لم تمنع سليل
بيت الصديق من أن يطمح الى ما هو أكبر من المناصب الدينية

الرفيعة ٠٠ ويرنو الى عرش مصر ، وكان قصره الفخيم بالخرنفش
مثابة يؤمها عليا القوم ، وسفراء الدول الأجنبية ، وعلى رأسهم
المعتمد البريطاني ، يحرصون على غشيانه في المناسبات والأعياد
الدينية حرصهم على الذهاب الى قصر عابدين ، ولقد أدت كل هذه
الملايسات بنقيب الاشراف الى أن يعامل صاحب العرش معاملة اللند
للند ، وليس معاملة التابع لسيدته ، وكان عباس من جانبه يرقب
بحذر مطامح النقيب وما يمثله من خطر على عرش تنوشه سهام
الاحتلال من جانب ، ودسائس الخلافة من جانب آخر ، ولكن ماذا
عساه أن يفعل مع رجل هذه مكانته ؟!



لقد كان من العسير على الخديو عباس أن يعامل عميد البيت
البكرى معاملة السوق حين يتناولون على الذات العلية ، فهؤلاء
ينتظرهم سيف القانون ، أما هذا السيد السند فلا مناص من أن
يكون جزاؤه متكافئا مع منزلته السامية ، وكانت جعبة عباس عامرة
بشتى ألوان الدسائس التي تناسب كل المستويات ، فكان حظ
النقيب دسياسة مفادها الحظ من كرامته ، وتلويث سمعته الخلقية
عند أتباعه ، واستقاط هيئته الدينية عند من يراهنون به في مجال
السيادة والشرف سواء في عاصمة السلطة الشرعية (استانبول) أو
عاصمة السلطة الفعلية (لندن) ، وجادت قريحة الخديو بفكرة
خبیثة فأوعز الى احد أدباء القصر أن يستدرج البكرى الى كتابة
قصيدة في أحد موضوعات الغزل الفاحش ، واليكم تفاصيل المؤامرة
كما يرويها شيخنا عباس محمود العقاد :

كان حفي ناصف أقرب الأدباء صلة بالسيد البكرى ينشده
ويستمع اليه ٠٠ فلما ذهب يزور السيد واقبل هذا ينشده من جديد
نظمه ، تعمد حفي أن يستثيره وقال له : أيها السيد ! انك ممن

لا ينبغي لهم الشعر ، فدعه لنا وحسبك فخار الشرف والجاه ! وحسب
غضب السيد فتحداه ان يجاريه في نظمه ان استطاع ، وقبل حفى
التحدى على شريطة أن يكون موضوع القصيدة شخصيا لا يستعار
من ناظم آخر في باب من الغزل المحظور ، فكتب البكرى أبياتا في
المعنى المقترح بخطه وكتب حفى أبياتا في معناها ، ثم أخذ أبيات
البكرى فأظهر الاعتراف برجحانه عليه في فن الشعر فوق رجحانه
عليه في الحسب والنسب ! وذهب الى النافذة يوههم السيد انه يمزق
الورقتين ويلقيهما حيث تلقى المهملات ، ولكنه مزق ورقته وأبقى
الورقة الأخرى في جيبه ، ثم أسرع بها الى القصر ليسلمها الى الخديو
فاسلمها الخديو الى لورد كرومر في أول لقاء بينهما ، فكانت آخر
العهد بدعوة السيد البكرى الى حفلات الوكالة البريطانية ، وآخر
عهد بزيارة العلية من رجال الدولة لقصر الخرنفش .

دنشواى الصغيرة

ينفرد حادث دنشواى (١٣ يونية ١٩٠٦) بمكانة خاصة فى تاريخ الكفاح المصرى بسبب الفظائع التى ارتبطت به ، والبشاعة التى تم بها تنفيذ أحكام الجلد والشنق فى الفلاحين المصريين على مشهد من أهليهم فى أحد اجران القرية البائسة ، فظل دوى الحادث يتردد فى أنحاء مصر والعالم حتى أفاق المجتمع الدولى على وحشية الاحتلال البريطانى ، واستخدمه أحط وسائل القمع والتنكيل بالفلاحين العزل ، وكان حادث دنشواى من الأسباب الرئيسية التى عجلت برحيل جبار الاحتلال ايفلين بيرنج - الشهير باسم لورد كرومر - عن مصر فى العام التالى مباشرة . وصدق فيه قول أمير الشعراء أحمد شوقى :

أيامكم أم عهد اسماعيل	أم انت فرعون يسوس النيل ؟
أم حاكم فى أرض مصر بأمره ؟	لا سائلا أبدا ولا مستولا !
يا مالكا رق العباد بباسه	هلا اتخذت الى القلوب سبيلا
لما رحلت عن البلاد تشهت	فكأنك الداء العيىء وببلا

ولكن تاريخ مصر الحديث ينطوى على حادث شبيه بحادث دنشواى دون أن يكون له حظ شهرته ، ربما لأن حادث دنشواى الصغيرة وقع بعد خمس سنوات فقط من كارثة الاحتلال ، وهى الفترة التى بلغ فيها الاحتلال ذروة عنفوانه ، وخمد بالتالى صوت المقاومة الوطنية ، وربما لأن الأحكام التى صدرت عقب حادث دنشواى الصغيرة خلت من أحكام الاعدام ، وهو الفارق الرئيسى بين الحادثتين وباستثناء هذا الفارق ، فقد تطابقت وقائعهما جملة وتفصيلا .

وقد بدأت أحداث دنشواى الصغيرة فى اصيل يوم ٢٧ مارس ١٨٨٧ عندما توجه ضابطان من جيش الاحتلال من لواء ويلز لصيد السمان فى الحقول المتاخمة لأهرامات الجيزة ، وأثناء الصيد أصاب الرش بعض الأهالى تصادف مرورهم على ظهور الجمال ، فتوجهوا نحو الضابط المعتدى فحاول منحهم بعض البقشيش ، ولكنهم رفضوا محاولة الاسترضاء ودارت بين الطرفين مشادة حامية هجم أثناءها الفلاحون على الضابط لانتزاع البندقية من يده ، ولكن دفعة من الرش انطلقت واستقرت فى رأس أحد الفلاحين فأردته قتيلًا . . وسرعان ما طار الخبر الى أهالى قرية « الكنيسة » فهرع أهل القرية الى موقع الحادث ، وانقض أهل القتل على الضابطين ، فأطلق أحدهما بندقيته فأصابت أشخاصا آخرين ، ولكن الأهالى تغلبوا عليهما واقتادوهما الى القرية حيث انهالوا عليهما ضربا . . ثم تدخل الخفراء لحماية الضابطين حتى وصول رجال البوليس وأطلقوا سراحهما .

وبمجرد وصول أنباء الحادث الى علم السلطات البريطانية ، توجه كولينز باشا نائب مفتش عام البوليس على رأس مفرزة من رجال البوليس الجبلنى والسرى وقاموا باعتقال ٤٥ شخصا من مشايخ وأهالى القرية اشتبه فى اشتراكهم فى الحادث ، وعقد نوبار باشا

رئيس الوزراء ووزير الداخلية اجتماعا طارئا حضره وزير الخارجية ومدير الجيزة وشفيق بك منصور نائب المدعى العام لدى المحاكم الأهلية للتشاور فيما ينبغي عمله لاسترضاء سلطات الاحتلال ، واستقر الرأي على أن يعهد بالقضية الى محكمة مخصوصة تشكل من مدير الجيزة ونائب المدعى العام وضابط انجليزى كان يشغل منصب الملحق العسكرى .

ويعلل الدكتور محمد جمال الدين المسدى فى كتابه عن (دنشواى) احالة القضية الى محكمة مخصصة بعدة أسباب : منها عدم الثقة فى امكان خضوع المحاكم الأهلية للضغط ، واصدار أحكام فيها ترضية كافية لسلطات الاحتلال ، كما كان يفترض ان تتعرض تلك المحاكم لمسئولية الضابطين عن الحادث مما يجعل المحاكمة عامل اثاره ضد الاحتلال البريطانى فى مصر ، يضاف الى ذلك أن سلطات جيش الاحتلال كانت تصر على أن تلقى الخناقات بين المصريين وأفراد جيش الاحتلال معاملة خاصة تكفل السرعة والشدة فى توقيع العقاب .

ورغم أن تقرير الطبيب الشرعى عن تشريح جثة الفلاح القليل قد أسفر عن وجود سبع عشرة (رشة) فى رأسه ، مما يدل على انه أصيب من مسافة قريبة جدا . . . الا أن السلطات لم تبحث فى مسئولية الضابطين القاتلين ، ولم توقع عليهما أى عقاب . . . وانتهت المحاكمة بادانة ستة من الأهالى وثلاثة من مشايخ القرى ، فحكم على المشايخ بالسجن والغرامة ، وعلى الأهالى بالسجن والجلد عددا يتراوح بين ٢٥ و ٥٠ جلدة بواسطة (القطة الانجليزية) وهى تختلف عن الكرباج المصرى المصنوع من الجلد المزدوج ، ويضرب به على الرجلين والاليتين ، أما القطة فلها تسعة أفرع فى كل منها عقدة والضرب بها على الظهر ، وقد وصف مراسل جريدة (ستاندرد) البريطانية وقائع تنفيذ الأحكام على النحو التالى :

« فى الساعة الثالثة من بعد ظهر الخميس اتجهت فصيلتان من لواء ويلز الذى ينتمى اليه الضابطان اللذان وقع عليهما الاعتداء الى القرى التى ينتمى اليها المحكوم عليهم ، واصطفوا لمشاهدة تنفيذ الأحكام ، كان هناك أيضا بليغ بك على رأس البوليس السوارى المصرى ، والنقيب فريمان على رأس بعض رجال البوليس الحربى البريطانى ، وهم مجموعة من الرجال فارعى الطول تم اختيارهم من بين فرق الفرسان المختلفة . . . وقد قيد المحكوم عليهم الى العروسة المعروفة ، ونفذ فيهم أحكام الجلد سجانون انجليز أشداء من سجن الجيزة ، وكان التنفيذ علنا على مشهد من الفلاحين بالقطة الانجليزية . . . وبعد أن تم جلد بعض المحكوم عليهم عند احدى القرى ، تحرك الجميع الى قرية أخرى وجلد عدد آخر من المحكوم عليهم أمام أهالى القرية ، وبعد أن تم تنفيذ أحكام الجلد ألقى قائد لواء ويلز كلمة قصيرة قال فيها : ان الانجليز حضروا الى مصر لحماية الأوروبيين بالإضافة الى حماية الوطنيين ، وانهم بذلوا دماءهم فى سبيل هذا البلد وتملاهم الرغبة فى حفظ النظام فيها ، لذلك فلو وقعت اضطرابات أخرى فان المتسببين فيها سيلقون عقابا أشد مما لقيه المحكوم عليهم » .

وعقب مراسل الصحيفة الانجليزية على الحادث بقوله انه بمجرد بدء موسم الصيد يهرع الأوروبيون من مختلف الجنسيات الى الحقول ويتلفون مزارعات الفلاحين ، وقد تكررت شكوى الفلاحين من ذلك دون جدوى ، لأن الامتيازات الأجنبية تحول دون عمل شئ ، وهذا ظلم صارخ ، ثم أضاف : « وقد سمعت اليوم أن بعض مشايخ القرى قالوا انهم سيشنقون بدون رحمة أول أوروبى يسئ التصرف ، وهو يصطاد وذلك انتقاما لما حدث للأهالى . . » .

ويبدو ان تقسيم الحظوظ ينطبق على حوادث التاريخ كما
يجرى على البشر ، فقد اندثر حادث دنشواى الصغيرة من ذاكرة
التاريخ ، ولم يحفل به أحد من الباحثين باستثناء الدكتور المسدى ،
وبقى حادث دنشواى الكبيرة ماثلا فى الأذهان محفورا فى وجدان
المصريين يذكرون دائما بالتضحيات الجسيمة التى بذلوها دفاعا عن
أموالهم وكرامتهم وأعراضهم .

نشأة الأحزاب المصرية

كان في مصر - قبل ثورة ١٩١٩ - ما لا يقل عن عشرة أحزاب سياسية توائى ظهورها بدءاً من عام ١٩٠٧ ، ولو ان الساحة المصرية قد شهدت محاولات مبتسرة لتشكيل أحزاب سياسية في غضون الثورة العرابية مثل (جمعية مصر الفتاة) و (الحزب الوطنى) القديم ، وكلاهما كان يضم نخبة المثقفين والضباط الذين حملوا في قلوبهم حلم الثورة والاصلاح ، ولكن هذه التشكيلات المبكرة لا ينطبق عليها وصف الحزب السياسى بالمفهوم الليبرالى على النحو الذى عرفته أوروبا الحديثة باعتبار الحزب « جمعية » تم تنظيمها على أساس تحقيق مبدأ معين أو بلوغ غاية سياسية بعينها وذلك بواسطة السيطرة على الحكم بالوسائل الدستورية » .

هذا المفهوم الليبرالى للأحزاب السياسية لم تعرفه مصر عملياً الا فى مطلع القرن الحالى ، وان كانت الظاهرة التى تستلقت النظر هى ان كبار هذه الأحزاب ولدت فى أحضان الصحف الوطنية التى كانت تصدر بالفعل قبل سنوات من نشأة الأحزاب ، وكانت الصحف قد ضربت جذورها فى التربة المصرية وهيات الأرض لاستقبال النبت الجديدة وبذلك كانت الصنف بمثابة الرحم الذى تخلقت فيه

نظرة الأحزاب السياسية حتى حان وقت مخاضها مما يؤكد أهمية الدور التاريخي للصحافة المصرية في ظهور الأحزاب .

فصحيفة (المؤيد) التي أصدرها الشيخ على يوسف عام ١٨٨٩ أفرزت حزب (الإصلاح على المبادئ الدستورية) الذي لم يظهر الى الوجود رسميا الا في ٩ ديسمبر ١٩٠٧ ، وصحيفة (اللواء) التي أصدرها الزعيم الشاب مصطفى كامل عام ١٩٠٠ سبقت اعلان قيام (الحزب الوطنى) بسبع سنين ، وكذلك (الجريدة) التي نطقت باسم كبار ملاك الأراضي وجماعة المثقفين المتغربين كانت الوجه الوحيد المعبر عن (حزب الأمة) الذي لم يتعد نفوذه الصالون الأنيق المملى الذي كان يتردد عليه قادة الحزب .

واذا كان من المستحيل نشوء الاحزاب السياسية من فراغ ، فقد وقعت أحداث هامة جعلت من ظهور الأحزاب ضرورة تاريخية للقيام بدورها في مرحلة زمنية معينة ، ويضع المؤرخون حادث (طابا) في عام ١٩٠٦ علامة البداية لولادة الأحزاب المصرية ، عندما حاولت تركيا سلخ طابا عن السيادة المصرية فتدخلت انجلترا لاحتياط المحاولة وابقاء الحال على ما هو عليه ، ومع ذلك وقف الرأى العام المصرى الى جانب تركيا ضد انجلترا !!

وكان هذا الموقف الغريب - فيما يرى أستاذ الصحافة الدكتور عبد اللطيف حمزة - دافعا لعدد كبير من المثقفين المصريين الى اصدار صحيفة مصرية تنطق بلسان مصر وحدها دون أن يكون لها ميل خاص نحو تركيا أو احدى السلطتين الشرعية (الخديو) والفعلية (الاحتلال) وان تكون ملكا لشركة من الأعيان أصحاب المصالح الحقيقية الذين ظن كرومر انهم راضون عن الاحتلال . وهكذا ولدت (الجريدة) كرد عملى على حادث طابا ، وبعدها بإيام ولد حزب الأمة في ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ ولكن الدكتور يونان لبيب رزق أستاذ

التاريخ الحديث يرى أن اتخاذ حادثة معينة كأساس لظهور فترة جديدة من الحياة السياسية تختلف عن الفترة السابقة ، إنما هو اغفال لطبيعة التطورات التي تمخضت أخيرا عن هذا التغير أو جهل بها ، وبناء على ذلك يرى أن نشأة الحياة الحزبية في مصر كانت في النهاية نتاجا وتعبيرا عن تطورات اجتماعية وتغييرات فكرية واضحة ، وهو لا ينكر أهمية حادث طابا كسبب مباشر في ظهور الأحزاب ، ولكنه يضيف إليه أحداثا سياسية واقتصادية منها خطاب الوداع الذي ألقاه لورد كرومر في حفل تكريمه بعد عزله عن منصب العميد ، فقد كشف في خطابه عن حقيقتين كان لهما أثرهما في تحريك نوازع القلق في نفوس المصريين ، فأول مرة أعلن ممثل الاحتلال أن الاحتلال باق إلى الأبد ، وأن الحكومة البريطانية ستبقى مسئولة عن إدارة الشئون المصرية ، وكان من الطبيعي أن تستثير هذه المفاجآت حماس أولئك الذين لم يكونوا مقتنعين بأهمية قيام أحزاب سياسية ، وأعرب الشيخ على يوسف في خطاب علني عن أن أهم أسباب انشاء حزب الإصلاح ما ورد في خطاب كرومر .

ومن الحوادث التي كانت سببا في التعجيل بظهور الأحزاب ، تلك الخطبة النازية التي ألقاها مصطفى كامل في ١٤ سبتمبر ١٩٠٧ ووجه فيها أعنف الكلمات إلى رئيس وزراء بريطانيا وتساءل عما إذا كانت إنجلترا « تصر على العناد وتجاهد ضد أمة تفيض بالحياة ومصممة على نيل حريتها » وكان من أثر هذه اللهجة العنيفة أن ثارت مخاوف كبار ملاك الأراضي وقد اشتموا فيها رائحة الثورة العرابية وما تحمله من مخاطر على مصالحهم التي ترسخت في ظل الاحتلال ، مما دفعهم إلى سرعة التحرك . ولم يمر أسبوع على ذلك الخطاب حتى أعلن هؤلاء الأثرياء قيام حزب الأمة لمواجهة تطرف مصطفى كامل .

ولم تكن الدوافع الاقتصادية بعيدة عن العوامل السياسية في

نشأة الأحزاب المصرية ، ففي عام ١٩٠٧ أمسكت الازمة الاقتصادية بخناق البلاد بسبب جفاف السيولة النقدية مما أدى الى افلاس بعض المؤسسات المالية الى جانب الخراب المالي الذي أصاب كثيراً من الملاك الزراعيين الذين ضاربوا في البورصة . . وقد أراد هؤلاء المضاربون أن يضعوا مسئولية الازمة على كاهل صاحب (اللواء) واتهامه بالاثارة والتهيج مما أدى - في رأيهم - الى انعدام الثقة باقتصاد البلاد .

وكرر فعل لهذه الازمة وملابساتها ظهر (حزب الاحرار) لصاحبه محمد وحيد الدين بك الأيوبي في ١٨ مارس ١٩٠٨ فكان بمثابة « الصورة السلبية » للحزب الوطني من حيث النشأة والكيان والبرنامج والتصرفات . كان مصطفى كامل يهاجم كرومر بشراسة ، فظهر الأيوبي ليرد على هجوم مصطفى كامل ويصفه بأنه « جرثومة التعصب والفتن » ومن حيث البرنامج فقد اشتمل برنامج الحزب على ست نقاط تدعو كلها الى المسالة الكاملة للمحتلين الانجليز وبقيتهم في البلاد بهدف الاستفادة منهم (!!)

وفيما يتعلق بكيان هذا الحزب العجيب يقول الدكتور يونان ان الحزب لم يكن له كيان على الاطلاق ولم يكن له جماهير أو أعضاء باستثناء رئيس الحزب وحيد بك الأيوبي ووكيله محمد بك نشأت ، وبالرغم من أن بعض الصحف قدرت وقتئذ مجموع أعضاء الحزب بعشرين عضواً فقط !! الا أن صاحب الحزب انكر ان للحزب أعضاء على الاطلاق فيما عداه ووكيله نشأت بك ، وكان بعض الناس قد طلبوا الانضمام الى الحزب فأجابهم وحيد بك بأن كل من يريد الانضمام اليه ، ما عليه الا أن ينضم الى الحزب بقلبه ووطنيته الصحيحة الرشيدة ويسعى في نشر مبادئ الحزب خدمة لوطنه (!!)

هذا نموذج لبعض الأشخاص الذين أصابتهم (حمى) تشكيل

الأحزاب فى مطلع القرن ، على حد تعبير الدكتور أحمد زكى الشلق ، حيث بلغت هذه الحمى حدا جعل كل مجموعة من الأفراد يلتفون حول مصلحة فتوية أو مهنية يقيمون حزبا .. ومن المؤكد انك سوف تبتسم حين تقرأ فى صحيفة (الأخبار) بتاريخ ١٩٠٨/٧/١٥ عن قيام حزب للدفاع عن حقوق قرية « الفكرية » مركز أبو قرقاص ..

حزب التبادل والحزب الجمهورى

شهدت السنوات الأولى من القرن العشرين مولد حركة البعث الجديد التى عمت أرجاء البلاد بعد طول رقاد ، لقد انتفضت مصر الخالدة من سباتها وهزقت أستار الخمول التى سادتها فى أعقاب الاحتلال البريطانى فى ١٨٨٢ ، وكان الظن ان مصر استسلمت نهائيا لقدرها وان سطوة الاحتلال قد قضت على عناصر القوة والمقاومة الكامنة فى الشعب ، واستناب الانجليز الى هذه الفكرة الخاطئة وأطلق كرومر صيحته المشهورة بأن الاحتلال باق الى الأبد ، ولكن هذا الدأهية - الذى قضى فى مصر حوالى ربع قرن قام خلاله بإعادة تشكيل الحياة المصرية بما يضمن دوام الاحتلال - خانه ذكاؤه فلم ينظر الى النار التى كانت تتوهج تحت الرماد ، ولم يفتن الى التفاعلات التى كانت تتخمر فى قاع المجتمع المصرى فكان من أثرها ظهور قوى اجتماعية جديدة وتيارات فكرية حديثة عبرت عن نفسها عن طريق الأحزاب السياسية والصحف والنوادي وغيرها .

لقد شهدت هذه الفترة الخصبة فى مطلع القرن العشرين ، صداما علنيا بين القديم والحديث ، ومعارك سافرة بين القوى الرجعية التى تشبث بمصالحها وامتيازاتها الموروثة ، والتيارات

الجديدة التى كانت تسعى الى اكسب أرض جديدة وتحلم بقيام نظام سياسى واجتماعى حديث يختلف فى تركيبه عن صورة المجتمع فى القرن التاسع عشر .

وكانت الأحزاب السياسية هى المظهر العملى لهذه المعركة المحتدمة بين القديم والحديث . كان كل منهما يعبر عن نفسه عن طريق التشكيلات الحزبية ومعها الصحف التى كانت بمثابة منابر للرأى فى شتى الاتجاهات ، فلم يكن غريبا أن يظهر حزب يمثل الشراذم التركية والشركسية وقد شعرت بأفول نجمها وزوال سلطانها امام الارستقراطية المصرية المتنامية ، وفى نفس الوقت يظهر حزب جرى يدعو الى الغاء نظام الحكم الملكى والدعوة الى النظام الجمهورى ، دون اكتراث بغش الاتوقراطية العتيد ويتربع على عرشها عباس حلمى الذى كان امتدادا لنظام الحكم المطلق الذى ساد مصر منذ مئات السنين .



كان (حزب النبلاء) هو الارتعاشة الأخيرة فى جسم الارستقراطية التركية قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة مع اندلاع ثورة ١٩١٩ ، وفى سبتمبر ١٩٠٨ أعلن حسين حلمى ، زاده وصديقه محمود طاهر حقى عن تأسيس هذا الحزب برئاسة الأول وسكرتيرية الثانى وهما من خلاصة الترك جنسا ومزاجا وهوية ، وقد أفزعهما ما تعرض له بتى جنسهما من انكماش ازاء النزعة المصرية المتعاطفة فلم يجدا من وسيلة سوى الاعلان عن تشكيل حزب يحمل اسم (النبلاء) تعبيرا عن مصالح هذه الفئة المستغلية التى توارثت الامتيازات بحكم انتمائها الى الطبقة الحاكمة وارتباطها المباشر برأس الدولة . بل ان السبب المباشر لقيام هذا الحزب هو تلك الحملة الشعواء التى شنتها صحف الحزب الوطنى على الخديو عباس والتى بلغت ذروتها

بمقالات نشرها الزعيم محمد فريد في اللسواء تحت عنوان « ماذا يقولون » . وبما نشره أحمد حلمى فى جريدة (القطر المصرى) من مطاعن فى أسرة محمد على ، وبرغم أن أحمد حلمى نشر هذه المطاعن نقلا عن جريدة (العدل) التركية ، الا أن النقل لم يحل دون تقديمه الى المحاكمة والحكم عليه بالحبس لمدة سنة ، فكان أول صحفي مصرى يسجن بتهمة العيب فى الذات الملكية . ولما كان الخديو هو زعيم الارستقراطية التركية ، فقد كان من الطبيعى أن يهب بعض الترك للدفاع عنه وعن الدولة العلية (الأم) التى يدين لها جميعهم بالولاء والانتماء ، عن طريق كتابة المقالات الحماسية فى صحيفة (المؤيد) .

وإذا كان صحيحا ان حزب النبلاء كان حزبا بلا جماهير وبلا وجود حقيقى فى الساحة السياسية ، الا أن مجرد الاعلان عن قيامه يمثل دلالة تاريخية عن حالة الارستقراطية التركية ومحاولتها المستميتة لاثبات وجودها قبل ان تجرفها دوامة الوطنية المصرية .



أما الحزب الجمهورى فهو النقيض الطبيعى لحزب النبلاء . وقد وردت أول اشارة عن قيام هذا الحزب فى جريدة الاجبشيان جازيت عندما ذكرت أن جماعة من الوطنيين يبحثون انشاء حزب يدعو الى الجمهورية وتلقفت النبأ جريدة (الأخبار) لصاحبها أمين الخازن السورى - وكانت فى الصف المعادى للخديو عباس - واعلنت عن ترخيصها الشديد بقيام الحزب . « على أساس أن الحكومة الجمهورية أقرب الحكومات الى مبادئ العدل والانصاف وأكثرها مراعاة لكرامة الانسان ، وكان هذا الترحيب مشجعا لمؤسس الحزب - محمد غانم - للكشف عن نفسه ، وبعث الى (الأخبار) بعدة مقالات أوضح فيها أفكاره فنجح فى استمالة بعض انصار الأحزاب الأخرى اليه .

وفى رأى مؤرخى الأحزاب السياسية المصرية ان هذا الحزب تكون أساسا من مجموعة من المثقفين الذين تأثروا بالثقافة الفرنسية، ويبدو ذلك واضحا من شعارهم الذى استمدوه من شعار الثورة الفرنسية ، « حرية - اخاء - مساواة » وبلغ من اعتدادهم بالثورة الفرنسية انهم كانوا يشاركون الجالية الفرنسية احتفالها بعيد ثورة ١٤ يوليو فى حديقة الأزبكية ، وكان أصحاب هذا الحزب يرون أن تدرج الأمة الطبيعى يمر بثلاث مراحل : أولاها نيل الدستور ، وثانيها الاستقلال التام الخالص من محاولات التسلط الخارجى سواء آكانت بريطانية أم تركية . وثالثتها أن تبلغ الحركة الوطنية قمة نضجها فتعلن الجمهورية « وهو أرقى المطالب وأعزها على النفس الوطنية العالية » .

ويصف الدكتور يونان لبيب رزق الحزب الجمهورى بأنه كان حزبا راديكاليا بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالة التغيير . ويستدل على ذلك بعدة شواهد ، منها ان الحزب اتخذ موقفا عدائيا صريحا من حكم أسرة محمد على ولم يجبن عن الهجوم عليها هجوما شديدا فى الوقت الذى كانت فيه الأحزاب الأخرى تحرص على أن يكون خلافها مع الخديو ضمن حدود معينة لا تصل الى حد الاتهامات . كان محمد غانم يهاجم محمد على هجوما عنيفا ويصفه بان « همه فى جميع أعماله كان طلب المنفعة لشخصه وحصر الملك والثروة فى ذريته فنجح فى سعيه وترك عائلة متشعبة الفروع ذات ملك واسع وثروة طائلة ولكنها لم تأخذ الحيلة لصيانة هذا الملك وأصبحت فى الحالة التى نراها الآن » ويهاجم أحد أعضاء الحزب واسمه « محفوظ » الخديو اسماعيل ويؤكد انه اغتصب مليوناً وربع المليون فدان من مجموع أراضى مصر ومساحتها ٥ ملايين فدان .

ويرى الدكتور يونان ان الحزب الجمهورى هو الحزب الوحيد

الذى لم يخرج من دائرة « الأعيان والمثقفين » وان مؤسسى الحزب كانوا من جماعات المثقفين الذين ليست لهم انتماءات طبقية بجماعات الأعيان ، وكانت صحيفة (الأحرار) لصاحبها وحيد بك الأيوبي تفتح صدرها لكتاب الحزب الجمهورى وهم يهاجمون الأسرة العلوية فلما امتد هجومهم الى الاحتلال البريطانى أوصدت الصحيفة الباب فى وجوههم .

وكان هذا الاغلاق - فى رأى الدكتور محمد أنيس - بمثابة خنق لا لحرية الحزب الجمهورى فقط ، بل لوجوده أيضا . وكما يبدو فان الموقف سواء من جانب الاحتلال أو الخديوية أو الدول الكبرى لم يكن يحتمل قيام مثل هذا الحزب الذى ظهر قبل أوانه بنصف قرن كما أن الموقف الداخلى نفسه فى مصر لم يكن يسمح بنمو مثل هذا التيار ، ولكل هذه الأسباب تقوقع الحزب داخل مجموعة من المثقفين سرعان ما أطيع بهم .

جعانين يافندينا

فى ٢٥ مارس ١٩٠٩ شهدت حديقة الأزبكية بالقاهرة أول مؤتمر جماهيرى من نوعه فى تاريخ المجتمع المصرى الحديث ، فقد احتشد (الفعلة) من عمال البناء والنقش والنجارة والحدادة والسباكة والبلاط للبحث عن حل لمشكلة الكساد والبطالة التى سادت حركة البناء بسبب الأزمة الاقتصادية الخانقة التى اجتاحت البلاد ودفعت بالطبقات الكادحة الى مزيد من الفقر ، وفى هذا الاجتماع الصنّاع ترددت لأول مرة كلمة (الاشتراكية) كحل للأزمة الراهنة ، وكانت كلمة الاشتراكية حتى ذلك الوقت محصورة فى نطاق الكتابات الصحفية التى ينشرها بعض المثقفين المتأثرين بالفكر الاشتراكى من أمثال : شبلى شميل ونقولا حداد وسلامة موسى ، وكان طرح الحل الاشتراكى فى هذا المؤتمر دلالة على انتقاله من مجال الفكر الى مجال الواقع العملى ، كذلك طرح رؤساء العمال اقتراحا بتشكيل لجنة من بينهم « لتدبير أعمال للعاطلين » فكان ارهاصا بظهور أول تنظيم للعمال ، وانتهى المؤتمر بخروج العمال من حديقة الأزبكية فى مظاهرة طأقت شوارع القاهرة وهى تهتف « جعانين يافندينا »

وأفندينا .. هو اسم التدليل لخديو مصر عباس حلمي



كان مؤتمر عمال المعمار في حديقة الأزبكية هو أول مظهر احتجاجي عملي قامت به فئات عمالية خارج جدران العنابر والمصانع والفابريكات التي أخذت في النمو في مطلع القرن ونشأت معها بروليتاريا مصرية ذات مصالح ومطالب تتعلق بالأجور وساعات العمل التي بلغت في بعض المنشآت ١٥ ساعة يوميا ، فلما زادت حدة المشاكل مع تفاقم الازمة الاقتصادية وسلبية الحكومة ؛ لم يجد العمال من وسيلة للتعبير عن مطالبهم سوى الاضراب .

وكانت قيود الامتيازات الأجنبية تشل يد الحكومة عن التدخل لمصلحة العمال المصريين والزام أصحاب الأعمال بتنفيذ القوانين المصرية التي تحمي العمال .

وكان من شأن هذه الفورة العمالية الوليدة ان تطرح على الساحة السياسية فكرة انشاء حزب للعمال يرعى حقوقهم في وقت ازدهم فيه سوق العمل السياسي بالأحزاب من شتى النحل ، عندئذ تشجع شباب من أبناء التجار اسمه السيد محمد واعلن عن قيام « حزب العمال بالقطر المصري والسودان » ، ووصفه بأنه « جامعة عمومية تجمع أواصرها كل طوائف ونقابات العمال ، وتكون هذه الجامعة عصمة أدبية اجتماعية لحقوقهم » . ولم يقدم الرجل برنامجا تفصيليا يضع هذه العبارات الانشائية موضع التنفيذ . كما ان الظروف لم تسمح له بذلك .. فقد تعرض الحزب لحملة كتمت أنفاسه وهو لم يزل في المهد ، وكان اللافت للنظر ان الحملة لم تأت من جانب السلطة ولكن من جانب القيادات العمالية ؛ فقد استنكر بعض زعماء العمال أن يتصدر أحد أبناء التجار قيادة الحركة

العمالية ؛ وقال بعضهم ان هذا الحزب لا يمثل الا صاحبه ؛ وأبدى دهشته من التفكير فى قيام حزب يطمح الى جمع جميع العمال تحت لوائه فى الوقت الذى عجزت فيه ثلاث جمعيات عمالية عن اجتذاب الطبقة العاملة اليها ، وكان يعنى بذلك جمعيات عمال المطابع ، ولفافى السجائر ، والترزية ، وبذلك وثدت أول محاولة لإنشاء حزب ينظم الطبقة العاملة فى مصر .

ويبدو أن حزب العمال الذى دعا اليه « السيد محمد » لم يكن هو الحزب العمالى الوحيد الذى ظهر فى هذه الفترة المبكرة ، اذ يحكى لنا الدكتور عبد العزيز رفاعى فى كتابه (الديمقراطية والأحزاب السياسية) قصة حزب آخر اسمه « حزب المقاصد المشتركة » وتبدأ قصته بدعوة وجهها محمد أحمد الحسن فى صحيفة الأهرام يوم ١١ يوليو ١٩٠٨ الى أرباب المهن والصناع اليدويين لسماع خطبة عمومية سيلقيها سيادته فى حديقة الأزبكية موضوعها وجوب انضمام أصحاب الحرف المصرية والأجنبية على اختلاف طبقاتها الى حزب واحد مشترك ليتكون منه جماعة قوية مسموعة الرأى فى الأعمال النافعة واقامة جريدة « الوضاح » للتعبير عن حال الحزب .

وكان العمل المجيد الوحيد الذى قام به حزب المقاصد المشتركة هو اصدار بيان احتجاج على حكومة بطرس غالى بسبب اصدارها قانون المطبوعات المقيد للحريات الصحفية فى ٢٥ مارس ١٩٠٩ فنشر الحزب بيانا فى الأهرام قال فيه : بالنيابة عن حوالى ٥٠ ألفا من العمال نحتج على ظهور قانون المطبوعات القاتل للحريية وتطلب الغاءه فورا ، ان مجلس الحزب سيعقد اجتماعا يشكل مظاهرة كبرى تكون احتجاجا فعليا اذا لم تتدارك الحكومة الأمر وتحترم ضووت الشعب ، وان العمال ربما طافوا جميعا على بيوت النظار وقصر الإمارة العام . . .

ثم نقرأ عن تكوين حزب ثالث للعمال عن طريق بيان منشور في الأهرام يوم ١٦ يوليو ١٩٠٩ بتوقيع مجموعة « أبو عثمان » يقول فيه تحت عنوان (حزب العمال) : كلنا يعلم مركز العمال في أوروبا . والعامل هناك لا فرق بينه وبين القاضى والمحامى ، ولما كان الانسان من فطرته الطبيعية ميالا الى الارتقاء فقد قامت مجموعة من خيار العمال المصريين الذين يقدرون الأشياء وأسسوا حزبا باسمهم .

فتشبهوا أن لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالرجال فلاح

وانعقدت الجلسة الأولى فحضرها جمع كبير من العمال والوجهاء فانتخب السيد أفندى على (والد الاذاعى المعروف أحمد سعيد) مديرا له .

ولكن كل هذه الارهاصات العمالية الناشئة لم يكتب لها البقاء ، ويعزو الدكتور يونان لبيب هذا الفشل الى أمرين أولهما : خلو الساحة العمالية من قيادات قادرة على تنظيم البروليتاريا المصرية النامية ، وقد أتاح هذا الفراغ للعناصر البورجوازية ان تقوم بهذا الدور القيادى بقصد الوجاهة والزعامة المظهرية وليس من أجل الدفاع عن حقوق العمال كما ظهر فى محاولة السيد محمد الذى كان ينتمى الى طائفة التجار وكما بدا فى قبول الأمير حسين كامل لرئاسة جمعية مستخدمي الشركات والمصارف والمحال التجارية ، واطافة الى تحليل الدكتور يونان أقول ان ظاهرة استيلاء العناصر الارستقراطية على الحركة العمالية ستبقى ملازمة لنمو الطبقة العاملة حتى بعد قيام ثورة ١٩١٩ وظهور الأحزاب الليبرالية وكان أبرز مثال على ذلك النبيل عباس حليم الذى تزعم حزبا للعمال فى الثلاثينات بالتعاون مع بعض العناصر الماركسية .

أما الأمر الثانى الذى كان سببا فى فشل قيام حزب العمال فى مطلع القرن فهو نقص « التصور الطبقي » لدى العمال المصريين .

فلم يبلغ بهم الأمر حد اعتبار أنفسهم طبقة ذات سمات مميزة لها مصالح تتناقض مع مصالح غيرها من الطبقات وليس أدل على ذلك من عجز الجمعيات العمالية التي قامت في ذلك الوقت عن اقناع العمال بالانضمام اليها ، وهناك مثل آخر عندما قامت جماعة من (الاشتراكيين المتطرفين) بدعوة عمال المعامل ومستخدمى المحال التجارية على اختلاف نحلهم لتأليف رابطة للدفاع عن حقوق العمال ودفع مظالم أصحاب الأعمال وأرباب الأموال فكانت المفاجأة ان الذين لبوا الدعوة كانوا من اليونانيين والايطاليين والفرنسيين والأرمن .. « ولم نر واحدا من المصريين اقترب منها أو شجعها كأن الجمعية ليست فى مصر » كما سجل ذلك توفيق حبيب فى مقال له بصحيفة (الأخبار) يوم ٢٣/٩/١٩٠٩ .



لقد كان أمرا طبيعيا أن تلفظ هذه
المحاولات المبتسرة أنفاسها .. شأنها
شأن كل كائن يولد قبل أوانه .

الحزب الاشتراكي المبارك

كان من أثر الاصلاحات التي أدخلها الاحتلال الانجليزي على نظام الري في مصر ، أن زادت رقعة الأرض الزراعية خلال عشر سنوات (من ١٨٩٦ الى ١٩٠٦) حوالي ٣٠٠ ألف فدان في وقت تزايد فيه عدد السكان بمقدار ٤٣٪ ، وقد آلت معظم هذه الأراضي الجديدة الى طبقة كبار الملاك بما كان ميسرا لديهم من سيولة نقدية مكنتهم من الاقبال على شراء الأراضي والمضاربة على أسعارها ، بينما انخفضت نسبة صغار الملاك وخرج الكثيرون منهم من صفوف الملاك الى طواير الأجراء والمعدمين .

وإذا كانت سياسة الاحتلال من البداية تسعى الى نشوء ارسنقراطية زراعية مصرية خالصة على أنقاض الطبقة التركية الشركسية ، التي كانت تحوز الملكيات الزراعية الكبيرة منذ عصر محمد علي ، الا أن تدعيم كبار الملاك المصريين لم يكن بلا حدود ، وإنما كانت تقف دونه محاذير ومخاوف من أن تتسع فجوة الفوارق بين الأغنياء والفقراء بما يهدد بقيام اضطرابات وزوابع في الريف المصري . وهو أمر كان الاحتلال يحرص على تلافيه حتى يتحقق الاستقرار اللازم للرخاء وبقاء الاحتلال الى الأبد ، وتكشف تقارير

كرومر السنوية خلال تلك الفترة عن قلقه من اضمحلال طبقة صغار الملاك المصريين ، فاتخذ عددا من الاجراءات مثل : الغاء بعض الضرائب والغاء السخرة وتخفيف أعباء الديون المتراكمة على صغار الفلاحين ، ومنحهم قروضا ميسرة جديدة على أمل أن تؤدي هذه الاجراءات الى تثبيت الملكيات الصغيرة وزيادة عدد ملاكها .

ولكن جاءت الأزمة الاقتصادية عام ١٩٠٧ لتفسد من مفعول هذه الاجراءات وتعمق من حدة الفوارق بين كبار ملاك الأراضي وصغارهم ، حتى اذا جاء عام ١٩٠٩ كانت الصحف تنشر يوميا مالا يقل عن ٤٠ اعلانا من البنك الزراعى بتوقيع الحجز على صغار الملاك وبيع أراضيهم فى المزاد . وكان معظم هذه القطع مساحات صغيرة تتراوح بين عشرة أفدنة ونصف فدان ، وكان من الطبيعى أن يتقدم كبار الملاك لشراء هذه الأراضي وإضافتها الى ممتلكاتهم ، وأن يتحول صغار الملاك الى مستأجرين أو اجراء يعملون فى الأرض التى كانوا يملكونها بأجور لا تكفى سد جوعتهم .



وكما شغلت هذه القضية بال كرومر وخلفائه بعد رحيله ، فانها شغلت - من زاوية مختلفة - عددا من المثقفين المصريين الذين أرقهم اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء فتحركوا من منطلق انساني بحث للعمل على اثارة نوازع الخير فى نفوس الأثرياء كي يحسنوا معاملة اخوانهم الفقراء ، فى ذلك الوقت كان مصطفى لطفى المنفلوطى ينشر أدبياته الانسانية الرائعة التى تحض الناس على العدل والفضيلة والخير وتحثهم على أن يرحموا من فى الأرض كي يرحمهم من فى السماء ، وكان الأديب الشاب محمد حسين هيكل يدرس القانون فى باريس دون أن تغيب عن خياله آلام الفلاحين

ومعاناتهم فيسجل ذلك في أول رواية مصرية له أسماها (زينب)
.. حتى الذين عالجوا مشكلة الريف من باب السياسة فعلوا ذلك
وهم يحملون في قلوبهم آمالا وردية وأمنيات براقية في ان يتحقق
العدل الاجتماعى وتحسن العلاقات بين الأثرياء والفقراء عن طريق
المودة والتعاطف ، ولم يخطر على أذهانهم طرح أفكار تتعلق
بتغيير نظام الملكية الزراعية تحت أى شكل من الأشكال .



وقد أقدم أحد هؤلاء المثقفين واسمه الدكتور حسن
جمال الدين على انشاء حزب سياسى أطلق عليه اسم (الحزب
الاشتراكى المبارك) هدفه تحسين أحوال الفلاحين الفقراء عن طريق
تحديد أوقات عملهم فى الحقول على أن يكون للفلاح نصيب سنوى
من عائد الأرض التى يعمل فيها وفق جهده وأن يحصل على معاش
فى حالة العجز والمرض ، ودعا الدكتور حسن جمال الدين فى
برنامج حزبه كبار الملاك الى الامتناع عن تشغيل زوجات الفلاحين
أو قريباتهم فى أراضيهم ، ومنع الفلاحين من تشغيل نسائهم فى
الأعمال الشاقة ، وعدم اجبار الفلاح على أن يعمل فوق طاقته أو أن
يقوم بعمل زوجته ، أما زوجة الفلاح فهى مسئولة عن خدمة
زوجها وأطفالها وإدارة بيتها .

وطلب برنامج الحزب الاشتراكى المبارك من كبار الملاك
معاملة الفلاح معاملة طيبة على أن يكون من حق الفلاح الشكوى الى
المحكمة أو العمدة اذا ساءت معاملته ، وطلب من الحكومة أن تقوم
بفحص حالات الشرك بين الفلاحين وكبار الملاك وتتدخل السلطات
فى حالة وقوع أى خلاف ينشب بين الطرفين ، وتعرض برنامج
الحزب الى نظام العمدة الذى ابتدعه كرومر فى عام ١٨٩٥ فطلب

من الحكومة أن تقيد نفوذ العمدة ونسب التشريعات التي تحد من
تسلطهم .

ولكى يكسب مؤسس الحزب الاشتراكي المبارك أنصارا من
بين الشرائع الزراعية ، فقد طاف الأقاليم يحاول اقناعات صغار
الفلاحين بالانضمام الى حزبه ، وكان أمرا طبيعيا أن يقف هؤلاء
الفلاحون من دعوة الدكتور حسن جمال الدين موقفا سلبيا لأن كل
الاجراءات التي تضمنها حزبه تعود في النهاية الى أريحية الأعيان
وكرمهم . . اذا شاءوا أعطوا . . واذا شاءوا رفضوا . . فظهرت
هذه الأفكار أمام الفلاحين أشبه بالمواعظ والخطب المنبرية . . فمن
يستطيع اجبار كبار الملاك على تنفيذها ؟ ومتى كانت الحقوق تؤخذ
عن طريق الوعظ والارشاد والعبارات العاطفية الخلافة . . !!



كل هذه المعاني دارت في أذهان صغار الفلاحين وهم
يستمعون الى هذا الرجل الطيب وهو يتحدث اليهم حديثا صادقا
عن فضيلة العدل وجدوى الرحمة . . دون أن يقدم لهم برنامجا
عمليا لوضع هذه الأفكار الجميلة موضع التنفيذ . . كان الفلاحون
يقدرون فيه نزعتة الانسانية فيصفقون له . . فاذا انفض السامر
عاد الرجل الى بيته في القاهرة . . وانصرف الفلاحون الى جحورهم
وهم يدعون له بالخير . . وكأن شيئا لم يكن .

الحزب القبطى

شهدت الفترة من ١٩٠٨ الى ١٩١١ أسوأ مظاهر الشقاق بين المسلمين والأقباط ، وبدأ الخلاف بين الفريقين فى شكل سجال علنى لم يلبث أن تطور الى حرب كلامية نفخت فيها أبواق الجهل والتعصب من الجانبين لتحقيق أغراض لا علاقة لها بطبيعة العلاقات بين جناحى الأمة .

وقد بدأ السجال بمقال نشرته صحيفة (مصر) المعبرة عن الفكر القبطى هاجمت فيه فكرة الجامعة الاسلامية التى كانت مطروحة وقتئذ ، كما تحاملت على « كل من وطشت أقدامهم أرض مصر من بدء الاسلام الى اليوم » (١٩٠٨) وبعد أسبوع نشرت زميلتها (الوطن) مقالا لأحد النكرات تهجم فيه على التاريخ الاسلامى فى مصر ، فما كان من الشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان يرأس تحرير (اللواء) الا أن شمر عن ساعده وشجذ سلاحه ، وشن هجوما عنيفا على الأقباط مما أثار خواطرهم .. وأخذت ردود أفعالهم تتصاعد فى شكل مقالات أشد وأقسى .. وفى هذه الهوجة الكلامية تسيل أنصار الشقاق والتعصب لاشعال النار فى الحطب

فظهرت فكرة تأسيس حزب قبطى يرعى مصالح الأقباط ازاء الأغلبية .

ورغم ان صحيفة (الوطن) كانت هى البسادة بالاستفزاز الا أن المؤرخ طارق البشرى يصف مسلك الشيخ جاويش بأنه « سقطة كبيرة » على اعتبار أن العبء الأساسى فى تحقيق سياسة الاخاء الوطنى يقع على الأغلبية لأنها الأقوى ، وعلى اعتبار أنه لم يحاول تهدئة الخواطر ، ولا أن يخاطب جموع القبط بما يعزل دعاة الشقاق عنهم ، انما وجد أمامه الفخ فقفز اليه بقدميه وسقط فيه ، وابتعد عن المنهج المستنير الذى دعا اليه الامام محمد عبده عندما نبه الى وجوب الاحتياط من مهاجمة أية جماعة أو ملة اذا أخطأ شخص منها . فحق على الشيخ جاويش قول الامام انه « اعتدى على غير معتد وناضل فى غير حرب » .

على أى حال فقد تلقف اخنوخ فانوس المحامى وزعيم الطائفة البروتستنتية الخيط من الشيخ جاويش وراح ينفخ فى الكير ، ويدعو الى انشاء حزب للأقباط ، أسماه (الحزب المصرى) ونشر فى ٢ سبتمبر ١٩٠٨ برنامج الحزب وأهدافه التى تتلخص فى : استقلال مصر ، وسعادة وفلاح سكان مصر ، واعتبار كلمة « مصرى » مطلقة على الأصل والمتجنس بالجنسية المصرية ووجوب تسهيل شروط التجنس . ويلاحظ الدكتور يونان لبيب رزق ان برنامج هذا الحزب كان يجمع بين العلمانية والاعتدال فى معاملة الاحتلال . أما عن العلمانية فقد تضمنتها المادة الثالثة من برنامج الحزب وتنص على « فصل الدين عن السياسة فصلا تاما والمساواة فى الحقوق العمومية بين سكان مصر وفى الحقوق الوطنية بين المصريين الوطنيين بلا تمييز بسبب الجنس والدين » واما الاعتدال فيعنى ايجاد نوع من الروابط مع بريطانيا يعقد معاهدة تضمن

حرية تجارة انجلترا فى مصر ، وتسهيل طريق الهند لها فى وقت السلم والحرب على أن تتعهد انجلترا بالمحافظة على استقلال مصر والمساعدة فى صد الغارت الأجنبية عنها .

وفى المجال الدستورى اقترح برنامج الحزب انشاء مجلس للنواب يمثل فيه الأقباط تمثيلا نسبيا ، وانشاء مجلس آخر أسماه (الأودة التشريعية) يتكون نصف أعضائه من الأجانب والنصف الآخر من المصريين . ويلاحظ الدكتور يونان ان برنامج هذا الحزب كان صورة حية للتناقض الذى وقع فيه بعض الأقباط فى ذلك الوقت ، ومحاولة للتوفيق بين رغبتهم فى عدم الذوبان فى خضم (الأكثرية) . وبين أن يتساووا فى الحقوق مع أفراد هذه الأكثرية ، ولعل هذه المحاولة هى التى دفعتهم الى طرح برنامج وطنى علمانى فى نفس الوقت الذى تمسكوا فيه بوجودهم العنصرى وهذا قمة التناقض ، وإن كان يؤكد حقيقة معينة وهى أن مثل هذا البرنامج لم يكن نابعا من (اقتناع فكرى) بقدر ما كان نابعا من (ضرورات دينية) مما يسلبه أى مضمون تقدمى .



وإذا كانت محاولة تأسيس حزب قبطى بما صاحبها من فوضى كلامية ودعاوى جدلية تمثل أقصى مظاهر الشقاق بين المسلمين والأقباط ، فإن طارق البشرى يرى فى هذا (الأقصى) أبلى دليل على الوحدة والامتزاج بين أبناء الوطن الواحد . لقد استعملت فى تزكية الخلاف جميع المثيرات الممكنة من الجانبين ، ومع ذلك فإن المتجادلين كليهما كانا يصدران عن أرضية فكرية واحدة . . . تاريخنا وتكويننا نفسيا . . . ومن أهم ما يلاحظ أن أحدا من المسلمين أو الأقباط لم يخرج عن إطار التاريخ الواحد والأفكار

الغامة الواحدة والشعب الواحد ، ومن ناحية أخرى لم يكن دعاة الشقاق من القبط يمثلون أغلبية فيهم ، ولا استطاعوا أن ينجحوا في جذب الكثيرين اليهم . وكذلك كان الشأن بالنسبة لذات الدعاة من المسلمين ، وغلبت كفة « العقلاء » من الفريقين يهاجمون أى تماد في الشقاق ويحذرون منه ، سواء كانوا من قادة الأحزاب أو العاملين في حقل الحياة العامة عموماً سياسة أو كتاباً أو أدباء ، وكان ضغط الرأي العام المصرى على كلا الجانبين يفرغ ما يراد اصطناعه من أزمات بينهم ، وكان مجرد احتمال قيام شقاق طائفى في مصر يستفز دوافع العمل على تصفيته ، وباستثناء بعض الكتابات التى تمادت في تزكية الخلاف ، فقد كان الطابع العام في الجدل ، وهو طابع العتاب والمجاملة ، يغلب على لغة المتحاورين العاملين على حصر الخلاف ، الناقدين لأى بادرة تهور أو جنوح ، ولم يعرف من أحد طعن في الدين ذاته ، أو تعرض له بما يمس التوقير اللازم له ، وكان حذر « العقلاء » دائماً من أن الخلاف لن يفيد الا المستعمر ، كما كان غالب الجدل المتبادل يصدر بلغة المصلحة الوطنية ومن أرضها ، وأقصى ما يوجهه أحد الكاتبين الى الآخر هو التشكيك في الولاء المشترك للوطن المصرى السابغ ظله على الجميع ، وهو اتهام يجده مضاه في الاتفاق المصرى العام على معاداة الاحتلال الأجنبى .



لقد أخذت موجة الشقاق مداها حتى تكسرت وذهبت مع الزبد جفاء ، وبقي ما ينفع الناس في الأرض ليواصلوا مسيرة الحياة الطبيعية ، وفي ظلال هذا المناخ المتعقل الذى ساد المجتمع المصرى بجناحيه الاسلامى والقبطى ، كان من الصعب على أى حزب

طائفي أن يجد مكانا له على الساحة المصرية .. ومضت الأيام
والشهور دون أن يرتفع صوت لحزب أخنوخ فانوس .. ولم يعرف
له مقر .. ولم يحفظ التاريخ اسما واحدا لعضو من أعضائه
باستثناء أخنوخ فانوس بالطبع .. !!

لقد كانت محاولة طائفية فاشلة جرفت بها رياح الوعي والرشد
والتنوير .

أخوان الوطنية

من المفيد أن نلقى الضوء على مفهوم « الوطنية » عند رواد الفكر السياسي الإسلامى فى العصر الحديث ، وفى طبيعتهم الأستاذ الإمام محمد عبده ، فيحكى تلميذه ونابشر أفكاره السيد رشيد رضا أن الإمام كان يرى الوطنية عبارة عن تعاون أهل الوطن الواحد ، المختلفى الأديان فى كل ما فيه عمران وإصلاح حكومته ، وأن الإسلام لا يعارض فى شيء من ذلك كما يثبتته شرعه فى العدل والمساواة ، وأن معلم الجيل السيد جمال الدين الأفغانى كان يرشد تلاميذه وحزبه السياسى الى وجوب اتحاد أهل كل قطر شرقى الى التعاون على الأعمال الوطنية السياسية والعمرانية ، وكان حزبه مؤلفا من أذكىاء الملل المختلفة . وكتب الإمام محمد عبده عن شعاع « مصر للمصريين » الذى انبثقت عنه الثورة العربية فقال : « ان الدين الإسلامى الحقيقى ليس عدو الألفة ، ولا حربا على المحبة ، ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من أشاركونه فى المصلحة ، وإن اختلفوا عنهم فى الدين ، ويقول ان العارف بحقيقة الإسلام يكون أبعد عن التعصب الجاهلى ، وأقرب الى الألفة من أبناء الملل المختلفة ، وإن القرآن منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل

الكتاب ، ولكن أعداء الدين أفسدوا قلوب أهاليه « ولا قلوب أقرب
الى الإصلاح من قلوب أهل مصر » .

ويروى الأستاذ طيارق البشرى فى كتابه « المسلمون
والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية » انه فى أعقاب تعيين بطرس غالى
باشا وكيلا لوزارة الحقانية اتهمته احدى الصحف بمحاباة الأقباط
فى الوظائف وغيرها وردت صحيفة أخرى مشيرة الى التحام
المسلمين والأقباط بالألفة والمحبة ، وتوارثهم ذلك عن أسلافهم ،
ووقوف القبط مع المسلمين فى الحروب ، وذكرت أن الخلاف
الدينى لم يحدث فى مصر شقاقا وطنيا فى زمن من الأزمان ،
ولذلك لا توجد للأقباط فى مصر « مسألة سياسية » كما يوجد
لغيرهم فى غير مصر من مسائل ، وفى ذلك الوقت كان الامام
محمد عبده منفيا فى بيروت بعد فشل الثورة العراقية فلم يلتزم
الصمت رغم بعد الديار عن هذه القضية ، فكتب مقالا فى صحيفة
« ثمرات الفنون » وأرسل الى تلميذه وصديقه سعد زغلول يطلب
اليه السعى فى نشره فى بعض صحف مصر .

وفى ذلك المقال عرض الاستاذ الامام لهذه المشكلة المصطنعة
ولخص رأيه فى قوله : « ان التحامل على شخص معين لا ينبغى أن
يتخذ ذريعة للطعن فى طائفة أو أمة أو ملة فان ذلك اعتداء على غير
معتد ومحاربة لغير محارب ، أو كما يقال جهاد فى غير عدو ، وهو
مما ضرره أكثر من نفعه وان كان له نفع » . ثم ذكر أن طائفة
الأقباط « أظهرت بحسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ما أهلها
لوجوب المحافظة على وصية النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد كان
حسن حال الأقباط لصدق نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام على أن
كثيرا من أسلاف هذه الطائفة كانوا أمناء على مال الحكومة المصرية
فى الدول الاسلامية المتعاقبة ، بما أجادوا من صناعاتى الحساب

والكتابة فى تلك الأوقات ، ولم تعهد لهم فتنة • أما ما تخلو طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين الى الشر فعلى الناقدين أن يقصروا نقدهم على حال أولئك الأشخاص ، ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم • • •

ويعرض الأستاذ البشرى نماذج لمقالات عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية حول مفهوم الوطنية عند المسلمين والأقباط ، فكتب فى صحيفة « الأستاذ » بعد عشر سنوات من فشل الثورة يقول :

المسلمون والأقباط هم أبناء مصر الذين ينسبون اليها وتنسب اليهم ، لا يعرفون غير بلدهم ولا يرحلون لغيره الا زيارة ، قلبتهم الأيام على جمر التقلبات الدولية ، وقامت الدنيا وقعدت وهم هم • • اخوان الوطنية يقصد بعضهم بعضا ويشد أزره فى مهماته ، يتزاورون تزاور أهل البيت ويشارك الجار جاره فى افراحه وأتراحه ، علما منهم بأن البلاد تطالبهم بصرف حياتهم فى أحيائها ، بالمحافظة على وحدة الاجتماع الوطنى الذى يشملهم اسم مصر •

ومضى النديم فى توضيح أفكاره فقال : ما أحوج المسلمين والأقباط الى الالتئام بعد أن عمتهم المعارف وتحلوا بالآداب ، وإن ذكاء نبهاء الفريقين يدفعهم الى التمسك بحبل الارتباط الوطنى ، ثم قال انه توجد جمعية اسلامية وأخرى قبطية « ونحن لا جمعية لنا تبحث فى الوطنية • • ان تكوين جمعية من الفريقين يحول بينهما وبين النزعات الأجنبية » •

ويستنتج البشرى من العبارة الأخيرة أن النديم كان يرمى الى الدعوة الى قيام تنظيم وطنى جامع يقف ضد سياسة الاحتلال

البريطاني في بذر بذور الفرقة لاحكام قبضته على البلاد .. ووعد
النديم بالعودة الى معالجة هذا الموضوع .. ولكنه لم يفعل ..
فقد امرت سلطات الاحتلال باغلاق الصحيفة وتفى النديم من
من مصر *

شهيد حلوان

كان ضابط البوليس مصطفى حمدى عضوا فى المجلس الأعلى للاقتيالات أثناء ثورة ١٩١٩ ، وكان المجلس يضم نخبة من الشبان المتحمسين الذين أصبحوا فيما بعد نجوما فى المجتمع السياسى مثل الدكتور أحمد ماهر باشا الذى أصبح رئيسا لمجلس النواب ثم رئيسا للوزراء واغتاله المحامى محمود العيسوى فى الجهو الفرعونى بدار البرلمان فى فبراير ١٩٤٥ ، ومحمود فهمى النقراشى باشا الذى أصبح رئيسا للوزراء واغتاله طالب الطب عبد المجيد حسن فى مصنع وزارة الداخلية فى ديسمبر ١٩٤٨ ، والمؤرخ والمحامى الشهير عبد الرحمن بك الرافعى ، وعبد اللطيف بك الصوفئانى ، والسفير محمد بك شرارة ، والقذائى القديم شفيق بك منصور المحامى وعضو مجلس النواب الذى نفذ فيه حكم الاعدام عام ١٩٢٥ فى قضية اغتيال السردار .

كان شباب الجهاز السرى من العمال وطلبة كلية العلوم يصنعون بأنفسهم القنابل المحلية لاستخدامها فى قتل رجال الاحتلال البريطانى وأعاونهم من الساسة المصريين الخارجين على

الاجماع الوطنى ، وكانت القنبلة عبارة عن قطعة من ماسسورة
محشوة بالمواد المتفجرة ومعها زجاجة صغيرة تحتوى على حامض
البكربك ، وكانت هذه القنابل شديدة الخطورة على حاملها لأنها
تنفجر بمجرد اهتزاز الزجاجاة واختلاطها بالمتفجرات .

وذاث يوم من عام ١٩١٠ ذهب الدكتور أحمد ماهر
واليوزباشى مصطفى حمدي الى صحراء حلوان لتجربة قنبلة جديدة
فى المنطقة المتاخمة للجباسات حيث تكثر أصوات الانفجارات فى
الجبيل ، والقى أحمد ماهر بالقنبلة بأقصى قوته ثم انبطح مع
زميله . . ولكن القنبلة لم تنفجر ، فنهض مصطفى حمدي وذهب
الى حيث سقطت القنبلة ليتفحصها فلم يكدها يمسكها بيديه حتى
انفجرت وأطاحت بالجزء الأمامى من جبهته ، وارتاع أحمد ماهر
وهرب الى زميله فوجد الدماء تنهمر بغزارة من رأسه فأخرج
منديله ليوقف النزيف . . ثم انتزع قطعة من قماش بطانة البالطو
الذى كان يرتديه محاولا وقف الدم . . ولكن محاولاته باءت
بالفشل ، ولفظ الضابط الشاب أنفاسه . . وانتاب الفرع أحمد
ماهر وهو يرى صديقه جثة هامدة فى هذا الفضاء العريض ،
فتركه حيث هو وعاد الى محطة حلوان وغسل يديه من الدم ،
ثم ركب القطار وعاد الى القاهرة ، وذهب من فوره الى بيت
عبد اللطيف الصوفانى حيث كان باقى أعضاء الجهاز مجتمعين فى
انتظار نتيجة اختبار القنبلة ، وأبلغهم ماهر بما جرى لزميله ،
وكان يحضر الاجتماع سليمان أفندى حافظ المحامى (وكيل
مجلس الدولة ثم وزير الداخلية فى عهد جمال عبد الناصر)
فاعطاه الحاضرون مبلغ ٢٠٠ جنيه جمعوها من بينهم ليعث بها الى
أم الشهيد فى حوالة بريدية عن طريق مكتب بريد الفيوم ، وكان
يحضر الاجتماع كذلك أحد شباب الفدائيين فى الاسكندرية واسمه

يعقوب أفندى صبرى جاء لتسلم حصة جهاز الاسكندرية من القنابل :

وفى اليوم التالى ذهب أحمد ماهر والأستاذ عبد الرحمن الرافعى ومعهما يعقوب صبرى الى مكان الحادث حيث دفنوا الجثة فى مكانها وعادوا الى القاهرة وقد ظنوا أنهم دفنوا سر صاحبها الى الأبد . وبقي اختفاء الضابط لغزا على رؤسائه . أما والدته فقد أفهموها أنه سافر فى مهمة طويلة الى استانبول ، وكانوا يرسلون اليها فى مطلع كل شهر حوالة بريدية بعشرة جنيهاً ، وبعد مرور خمس سنوات على الحادث وبعد اغتيال السردار وقع ما لم يكن فى الحسبان ، فقد اهتزت أعصاب رجل الارهاب الكبير شفيق منصور وهو فى السجن فكتب تقريراً تفصيلياً كشف فيه الستار عن قصة الجهاز السرى الذى ارتكب حوادث الاغتيالات أثناء الثورة ، وعجز الانجليز عن التوصل الى خيط يدل عليه بالرغم من المكافآت المجزية التى رصدها لهذا الغرض . وبلا أى مبرر حكى شفيق منصور قصة الضابط مصطفى حمدي والطريقة التى لاقى بها حتفه ، واهتز الانجليز طرباً لأنهم عثروا على أول اتهام يدين ماهر والنقراشى ، وقد كانت الشكوك تحيط بهما بشأن حوادث الاغتيالات ، ولكنها كانت تفتقر الى الدليل ، وجاءهم الدليل فى اعترافات شيخ الفدائيين شفيق منصور .

وكلفت السلطات الدكتور سيدنى سميث كبير الأطباء الشرعيين بمعاينة موقع الحادث الذى أشار اليه شفيق منصور ، فوجد بقايا عظام وقطعا من الملابس متناثرة فى الصحراء وقطعا من الزجاج والمعدن ، فأخذ كل هذه الأشياء لفحصها فى المعمل فتبين أن العظام لشخص واحد بين الخامسة والعشرين والثلاثين من العمر ، وعلى الجانب الأيمن من جبهته فجوة وكثير من الثقوب

فى الجانب الداخلى من الجمجمة مما يدل على أن صاحبها قتل عن انفجار قنبلة . كما عثر على بعض أضرار البدلة تحسب أنتم الترزى ، كما أن الطربوش يحمل اسم صانعه من الداخل . وكانت كل هذه المعلومات تنم عن اسم صاحبها وهو اليوزباشى مصطفى حمدي .

أما الشظايا المعدنية والزجاجية التى عثر عليها الطبيب الشرعى فقد كانت تتضمن قطعا من اسطوانة حديدية وقطعة صغيرة من قضيب حديدى وقطعة مفرطحة من الصفيح وعنق زجاجة صغيرة . وكان الدكتور سميث بحكم خبرته القديمة يعرف طريقة صنع القنابل التى استخدمت فى حوادث الاغتيال أثناء ثورة ١٩١٩ ، فاكتشفت أن هذه الشظايا تماثل تماما القنابل التى استعملت أثناء الثورة ، ومن سيء الحظ أن البوليس قام فى نفس الوقت بتفتيش منزل حفار كليشيات اسمه يوسف طاهر ، فعثر على ١٨ قنبلة فى بئر منزله ، وأرسلت القنابل الى الطبيب الشرعى لفحصها فوجدها مماثلة لشظايا قنبلة حلوان ثم اتسعت المفاجأة حين تبين أن يوسف طاهر هو خال مصطفى حمدي . الضابط الذى شتاء القدر ألا يموت سره معه فى ذاك الفضاء العريض من صحراء حلوان .

الشيخ ١٣ يولية

كان الحاج أحمد جاد الله يعمل خراطا في ورش السكة الحديد ، كان رجلا متدينا لا تفارق المسبحة أصابعه ، ولا تفارق الأذنين شفتيه ، ولا تظهر عليه علامات العنف أو التهور ولا يتصور أحد أن يكون هذا الشيخ الوقور عضوا في جهاز الاغتيالات التابع لقيادة ثورة ١٩١٩ ، وأن يستخدم خبرته الفنية في تصنيع القنابل اللازمة لعمليات اغتيال جنود الاحتلال والخونة المصريين المتعاونين مع سلطات الحماية البريطانية .

كان طلبة العلوم والطب الأعضاء في هذا الجيش الخفي قد نجحوا في تصميم قنبلة محلية وبقي عليهم البحث عن وسيلة لتصنيعها ، فطلبوا من قيادة الجهاز ترشيح بعض الخراطين لتنفيذ المهمة ، وكان المسئول عن جهاز العمال (جزمجى) اسمه محمد عثمان الطوبجى فرشح اثنين من عمال العنابر أولهما الشيخ أحمد جاد الله ، والثانى هو الأسطى ابراهيم موسى ، وتسلم العاملان التصميم وقاما بتنفيذه فصنعا قنبلتين تسلمتهما خلية الطلبة التى تضم سيد محمد باشا الطالب بالمعلمين العليا وأحمد عبد الحى كيرة طالب الطب ويوسف العبد الطالب بالجامعة

الأهلية الذى دعا اخوانه الى قريرته (شبرا النملة) بمديرية الغربية لتجربة القنبلتين فى الحقول بعيدا عن أعين السلطة ، ثم عادوا الى القاهرة وأبلغوا قيادة الجهاز بنجاح القنابل فطلبوا من الحاج أحمد جاد الله تصنيع عشر قنابل أخرى فأتم صنعها على الفور بالاشتراك مع الخلية السرية للعمال ، وبدأ الفدائيون فى تنفيذ مهامهم ، وأخذت القنابل تنهال على عبيد السلطان الخارجين على اجماع الأمة : يوسف وهبة باشا رئيس الوزراء .. واسماعيل سرى باشا وزير الأشغال .. ومحمد شفيق باشا وزير الزراعة وحسين درويش باشا وزير الأوقاف .. ولما وجد الحاج أحمد جاد الله أن القنابل التى صنعها قد أتت ثمارها ونجحت فى بث الذعر فى نفوس الحكام ، استصغر ان يكون دوره مقصورا على صنع القنابل ، ورأى أن يشارك بالفعل فى العمليات التى يقوم بها نسور الجامعات ، فذهب اليهم قائلا : « لماذا لا تشركون العمال فى العملية ؟ لا يكفي أن نصنع القنابل .. نريد أن نضرب أيضا .. نحن العمال نتولى القضاء على الكفار (أى الانجليز) وأنتم تأخذون الخونة من المصريين .. »

واتفق الطلاب والعمال على هذه القسمة ، وتسلم الحاج أحمد مئتين - وكان لا يمر أسبوع الا ويجهز على ثلاثة من الجنود الانجليز ، وكانت منطقة نشاطه فى الدراسة والحوض المرصود ، ولم تفلح عيون الانجليز فى التوصل اليه برغم المكافآت التى كان يعلن عنها عقب كل حادث .. فقد كانت نفوس الناس كبيرة ، ومعنوياتهم مرتفعة ولا يقيمون اعتبارا للمال الذى يأتى عن طريق خسيس .

وبقى سر الحاج أحمد جاد الله وزملائه العمال مغلقا حتى وقع حادث السردار الذى اشترك فيه زميله ابراهيم موسى فحكم

وكانت هذه المفاجأة كافية لاتخاذ رغبة الحاج أحمد جاد الله من
حبل المشنقة .

وبعد الحكم على زعيم العمال بالبراءة كان أول شيء فعله هو
الذهاب الى بيت الأمة لتحية زعيم الأمة ، وكانت مفاجأة جرت معها
سلسلة من المفاجآت المدهشة ، فقد تبين أن الزعيم « سعد »
لم يكن يعرف شكل أحمد جاد الله ، فلما وجده أمامه بعد البراءة
اكتشف انه نفس الرجل الذي كلفه الجهاز السرى بالذهاب الى
بيت الأمة قبل يوم من اعتقال سعد فى ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ ،
وتسلم مذكراته الخاصة لتكون بمنأى عن أيدي السلطات بعد
اعتقال سعد . وقد شهد مصطفى أمين هذه الواقعة وهو صبي مقيم
فى بيت الأمة ، فلما ذهب جاد الله لتسلم المذكرات قدم نفسه الى
سعد بانسم (الشيخ ١٣ يوليو) وهو اسم كودى بصفته عضوا
فى المنظمات السرية ، وأخيرا اكتشف سعد أن الشيخ ١٣ يولية
لم يكن سوى الحاج أحمد جاد الله الرجل الوقور الذى كان يقضى
ليله فى العبادة والتهجد .. ويقضى نهاره فى صنع أجهزة الموت
لاعداء الله والوطن .. ويفلت الرجل من حبل المشنقة ، ويستأنف
حياته العادية دون انتظار لمنصب أو جاه أو نفوذ .. وتنتهى حياته
كما تنتهى حياة الملايين من الفقراء البسطاء الذين لا يتطلعون الى
الشهرة والمجد ..

يكفيهم انهم أرضوا ضمائرهم .. وفى ذلك عزاء عن
الجحود .

« يهوذا » المصرى

فور نشوب الحرب العالمية الأولى ، بسطت بريطانيا العظمى
حمايتها على مصر ففقدت شخصيتها المعنوية ، وباتت تحكم عن
طريق نائب « جيلالته » المقيم فى قصر الدوبارة ، وألغيت وزارة
الخارجية فلم يعد لمصر وجود دولى ، وبذلك حققت بريطانيا هدفها
النهائى من احتلال مصر منذ ١٨٨٢ وهو تبعية مصر للاحتلال
تبعية صريحة ، بعد أن كانت من وراء حجاب ، وكانت أول خطوة
اتخذتها بريطانيا لتنفيذ خططها ، خلع الخديو عباس حلمى الثانى
ووضع عمه حسين كامل على الأريكة السلطانية لينفذ ما يؤمر به ،
ويفتح البلاد على مصراعيها لتكون فى خدمة الجيوش المحاربة .

وكان هذا الحدث الجسيم بمثابة طعنة فى صدر الحركة
الوطنية التى اشتيد ساعدها ، بعد ظهور مصطفى كامل ومدرسته ،
وشعر المصريون بالمهانة والعار وخيم اليأس على النفوس ، وبدأ
هدف الاستقلال وكأنه سراب ، وتبددت الآمال فى الحرية ،
وشهد الاحتلال قبضته الحديدية على البلاد ، فأعلنت الأحكام
العرفية لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث ، وفرضت الرقابة على
الصحف وطورد الأحرار والوطنيون فهم بين معتقل أو سجين

أو شريد في الآفاق ، وانحطت الأخلاق ، وشاع النفاق ، وهروا الكبراء الى قصر الدوبارة يتغزلون في مناقب نائب جلالته وتنافس كبار شعراء مصر في تدبيج القصائد التي تشيد بعظمة الأمة الانجليزية وكرمها وعطفها الزائد على أرض الكنانة .

في هذا الجو المفعم باليأس والانحطاط ، لم يعد هناك من بصيص أمل سوى شباب مصر الجسور الذي لم يتلوث ولم يتدنس ولم تجرفه موجة الفساد ، لم تكن هناك أحزاب تستطيع أن تقود حركة النضال وتنظم الصفوف ، ولم يعد أمام الشباب إلا أن يتصرفوا بوحى من ضمائرهم اليقظة وارادتهم الحرة ، وانصب سخطهم على رأس السلطان الذليل ، وعبثا حاول السلطان حسين أن يتودد الى قلوب المصريين ويدخل في روعهم أنه ما قبل العرش في ظل الحماية الا لينقذ مصر من خطر أكبر كانت تدبره انجلترا ، وهو ضم مصر الى التاج البريطاني ، وهي مقولة روجت لها أبواق السلطان لتبرير فعلته ، ولم يقتنع الشباب بهذه الاسطوانة المشروخة ، كما لم يبتعدوا بالقصص الملفقة التي نسجها المنافقون لتحسين صورة السلطان في عيون الشعب ، فهو تارة أبو الفلاح ، وتارة أبو التعليم ، وحينما راعى الشباب . . الخ .

وفي يوم الخميس ٨ ابريل ١٩١٥ كان فوكب السلطان يعبر شارع حسن الأكبر في طريقه الى قصر عابدين ، فاقترب منه شاب يلوح بباقة ورد تنطوي على مسدس ، واطلق الشاب رصاصة على السلطان ولكنها أخطأته وقبضوا على الشاب وتبين انه تاجر خردوات من المنصورة اسمه محمد خليل ، وتبين أنه كان يخفي في جيوبه حبوبا سامة ليبتلعها بعد قتل السلطان ، ولكنه امتنع عن تناولها لأنه رأى في الانتحار عارا لا يليق بالابطال .

وقدموا الفدائي الجريء الى محكمة عسكرية بريطانية فحكمت عليه بالاعدام شنقا ، ونفذوا فيه الحكم دون ان تعرف .. هل كان محمد خليل عضوا في منظمة فدائية ؟ ان احدا من الذين أرخوا للحركة الفدائية في مصر لم يقدم دليلا يؤكد صحة هذا الافتراض ويبقى القول بأن الأعمال الفدائية التي سبقت ثورة ١٩١٩ كانت تلقائية عفوية نابعة من ارادة أفرادها فحسب .

لقد أفلت السلطان من الموت ولكن جذوة الانتقام لم تخدم فبعد شهرين فقط كان السلطان بالاسكندرية في طريقه لأداء صلاة الجمعة فألقيت عليه قنبلة من نافذة أحد البيوت ، ولكن القنبلة لم تنفجر ، وهرول رجال البوليس نحو البيت ، فاكتشفوا ان الشاب الذي ألقى القنبلة استطاع ان يقفز الى سطوح بعض البيوت المجاورة ثم هبط من السلم فوجد بعض النسوة يشترن على باب البيت ، فألقى عليهن السلام ثم مضى في طريقه في ثقة وهدهد .

وبعد عدة شهور من البحث والتقصي قبضت السلطات على تسعة شبان من الذين سوف تتألق أسماؤهم في حوادث اغتيال الانجليز أثناء ثورة ١٩١٩ ولكن النيابة لم تقدم للمحاكمة سوى اثنين هما : محمد نجيب الهلباوى ومحمد شمس الدين ، فحكمت عليهما المحكمة العسكرية البريطانية بالاعدام ، ولكن السلطان التمس من الانجليز تخفيف الحكم فاستبدلت به الأشغال الشاقة المؤبدة .



من يصدق أن أحد هذين الشابين الجسورين سوف ينتقل من معسكر الوطنية والفداء الى معسكر الخيانة والقدر ، فيعمل

مرشداً وغميلاً لسلطات الاحتلال ثم يبيع زملاء الجهاد بأبخس الأثمان حتى يسلمهم الى جبال المشانق .. فيكون مثله مثل « يهوذا » التلميذ الخائن الذي باع المسيح لاعدائه !!

ثمن الخيانة

كان أول عمل قامت به وزارة الشعب الأولى برئاسة سعد زغلول هو الافراج عن الفدائيين المحكوم عليهم في قضايا الاغتيالات السياسية ، ومن بينهم محمد نجيب الهلواوى الذى ألقى القنبلة على السلطان حسين بالاسكندرية في يوليو ١٩١٥ وفى اليوم التالى لأطلاق سراحه ذهب محمد نجيب الهلواوى طائعا مختارا الى مبنى المخابرات البريطانية ليضع نفسه فى خدمة الاحتلال ، ويسخر خبرته السابقة ومعلوماته الغزيرة عن الأعمال الفدائية لتكون تحت أمر سلطات الاحتلال ، وكان الانجليز فى شوق شديد لواحد من هذا الطراز يكشف خبايا العمليات الجريئة التى قام بها الجهاز السرى التابع لقيادة ثورة ١٩١٩ وذهب ضحيتها العديد من الانجليز وأعوانهم من الوزراء المصريين الذين قبلوا العمل مع الاحتلال فى ظل الحماية البريطانية .

وكان الانجليز فى أعقاب كل حادث يرصدون مكافآت مالية سخية لاي شخص يدلى بمعلومات تؤدي الى كشف الستار عن هذا الجهاز الخاضع ، ولكن مصريا واحدا لم يتقدم . كان هناك ملايين من المصريين الفقراء فى حاجة الى ثمن رخيص خبز .

ولكن لم يكن هناك مصرى واحد طأوعته نفسه لخيانة بلده ، رغم ان حوادث الاغتيال كانت تجرى فى الشوارع والميادين فى وضوح النهار ، ويراهم العشرات والمئات من أبناء البلد . الى أن ظهر هذا الشيطان المدعو محمد نجيب الهلباوى ليصبح عميلا فى جهاز المخابرات البريطانية تحت اسم « مستر » . ويتحول من بطل يحمل روحه على كفه ، الى خائن مهمته ملاحقة اخوانه الفدائيين والاختلاط بهم ومعرفة أسرارهم ونقلها الى العدو !

لقد رحب الانجليز بالهلباوى ، واعتبروه مكسبا كبيرا وتركوه يملأ عليهم شروطه للتعاون معهم ، وهى شروط رخيصة الثمن ، لا تزيد على راتب شهري قدرة أربعون جنيها بخلاف المسكن والمأكل والمشرب ، فما هى الدوافع القوية التى يمكن ان تجعل من البطل عميلا ؟ ومن الفدائي خائنا ، وما الذى قلب كيان هذا الشاب الذى وصفه سعد زغلول عندما رآه بعد حادث القنبلة بأنه يشبه فى هيئته وحركاته مصطفى كامل .

ان محمد نجيب الهلباوى يعترف فى مذكراته المخطوطة التى أودعها عند الأستاذ مصطفى أمين بأنه خرج من السجن فوجد بعض زملائه تقدموا عليه فى الوظيفة ، وانه كان يطمح فى وظيفة محترمة ولكن سعد زغلول عرض عليه وظيفة مرتبها ١٥ جنيها بينما عين أحد الصحفيين فى وظيفة بمرتب ٣٥ جنيها . فهل يمكن ان تكون عشرون جنيها - فرق مرتب - مبررا للخيانة ؟ وهل تقبل من الفدائي الذى كان قاب قوسين أو أدنى من حبل المشنقة ، أن يبيع روحه للعدو بسبب عشرين جنيها ؟ اننا لو قبلنا هذا المتطق العليل لكان حتما أن نقبل أعذار الجواسيس والخونة . وكلهم يعلق دوافع خيانتهم على إشاعة الجحود والظلم الذى يعانیه

من أبناء وطنه ، وهو منطق الخونة الذين لا يخلو منهم مجتمع في كل زمان ومكان .

ان واحدا من ضحايا الهلباوى يضع أيدينا على تاريخ المرحلة الانقلابية في حياة الشاب ، ويقول البطل الجسور عبد الفتاح عنايت سليل البيت القدائى العريق وأحد الثمانية الذين ساقهم الهلباوى الى حبل المشنقة في قضية السردار ، والوحيد الذى أفلت من الاعداء لصغر سنه ، يقول عبد الفتاح عنايت « ان الهلباوى انقلب من وطنى فدائى الى عميل بريطانى لانه عندما سجن سنة ١٩١٥ لم يسأل عنه أحد ولو كان فى ذلك الوقت يوجد جهاز يهتم بالمسجونين لما انقلب هذا الرجل ! لقد خرج من السجن مصرى على الاشتغال مع المخابرات البريطانية حاقدا على ثورة ١٩٠٥ وحاقدا على زعيمها وعلى جهازها السرى وحاقدا على المصريين جميعا » .

وكلام عبد الفتاح عنايت يدل على أن الهلباوى كان عاقدا النية على الخيانة قبل ان يخرج الى عالم الحرية ، فالقضية لم تكن اذن قضية وظيفة ذات مرتب ضئيل - كما يزعم - ولكنها الرغبة المتأصلة فى التدمير وهدم المعبد على رؤوس أبناء وطنه جميعا ، والعذر الذى يسوقه عنايت عن اهمال شئون المسجونين السياسيين هو كلام ناس شرقاء طيبين يتمنون الكمال فى مسيرة الثورات ، ولكنه لا يمكن بحال ان يكون مبررا للخيانة والغدر ، فعبد الفتاح عنايت نفسه فقد أخاه الأكبر « محمود » حين مات فى السجن سنة ١٩١٧ ومع ذلك لم يتحول أولاد عنايت الى خونة حاقدين ، بل واصلوا مسيرة أخيهام فى مقاومة الاحتلال بالحديد والنار ، أما الهلباوى فقد سار فى طريق الغواية حتى وقع حادث السردار ، فتكشفت مواهبه الشريرة عن شيطان رجيم .

زملاء الكفاح القديم

في الساعة الثانية من بعد ظهر الأربعاء ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ غادر السير (لي ستاك) سردار الجيش المصري وحاكم السودان مقر وزارة الحربية بلاطوغلي عائدا الى بيته بالزمالك (نادى الضباط حاليا) وما ان اقتربت سيارته من شارع قصر العيني حتى انهال عليه وابل من الرصاص من سيارة تاكسي كانت تلاحقه .. فخر صريعا .

وفي الساعة الخامسة من مساء نفس اليوم كان العميل محمد نجيب الهلباوى ، على موعد مسبق مع ضابط الشرطة المصري اليوزباشى سليم زكى الذى كان من اكبر أعوان السلطات البريطانية ، وبرقم حالة الهلع التى أصابت الانجليز . ومعهم جهاز الأمن المصري من جراء الحادث ، فقد كانت تعليمات اللواء توماس راسل باشا حكامدار بوليس القاهرة الى اليوزباشى سليم زكى بأن يذهب للقاء الهلباوى فى المكان المحدد بضاحية مصر الجديدة ليعرف منه أسباب فشله فى انتبؤ بالحادث قبل وقوعه . وعسى أن يحصل منه على معلومات تفيد فى كشف القتلة ولكن سليم زكى فوجئ بأن عميله أخيب مما يظن ، فلم يكن يعلم بعد بخبر مصرع

السردار .. مما وضع العميل في موقف حرج ، وعرضه لحملة من
التقريع والطمع في كفاءته .

وبالرغم من سقوط الهلباوى في أول امتحان يتعرض له
منذ انضمامه الى المخابرات البريطانية قبل تسعة شهور - فان
الانجليز لم يفقدوا الأمل في قدرته على القيام بعمل ما يثبت من
خلاله اخلاصه في خدمتهم وليزيل الشكوك التي تعمد سليم زكي
ان يبثها في نفسه ليدفعه الى مزيد من الولاء والتفانى في خدمة
ساداته الانجليز .

وبدأ الهلباوى الخطوة الأولى في الطريق الصعب .. طريق
الخيانة والغدر .. وانطلق لتوه الى مكتب شفيق منصور المحامى ،
فقد كان واثقا بأن تدبير حادث مصرع السردار لا يمكن ان يتم
خارج دائرة شفيق منصور ومجموعته الفدائية التي كانت تضم
أعنى العناصر جرأة وجسارة من أمثال محمود اسماعيل ضابط
خفر السواحل السابق والشقيقتين عبد الفتاح عنايت الطالب
بالحقوق ، وعبد الحميد الطالب بالمعلمين العليا ، ومحمود راشد
مساعد المهندس بمصلحة التنظيم ، وإبراهيم موسى زعيم عمال
العنابر ، ومحمد فهمى على زعيم عمال الترسانة وهي المجموعة التي
قامت باغتيال الانجليز وأعاونهم في أعقاب ثورة ١٩١٩ ، كان
نجيب الهلباوى يعرف كل هؤلاء الرجال من خلال تروده الدائم
على مكتب شفيق منصور ، وكان هذا المكتب أشبه بخلية نحل
ياوى اليها الشباب المتحمس .. يثرثرون في السياسة ويخططون
لقتل الانجليز . وكان الهلباوى أعلى الجميع صوتا .. وأشدهم
حماسة وتطرفا ، كان لا يكف عن إبداء مخطئه على الانجليز
وضرورة استئناف عمليات اغتيالهم .. وكان شفيق منصور يعمل
على تهدئة هذا الباثر الغيور (!!) وأقنعه ان كل شيء بأوانه .

فيزداد ثورة وهياجاً .. وكثيراً ما كان شفيق يصطحبه الى بيته لينشاركه الطعام فقد كان دائم التبرم والتظاهر بالفقر حتى ان محمود اسماعيل صاحبه الى ترزيه الخاص وضمنه في صنع بدلة له بالتقسيط ودفع له القسط الأول من ثمنها وقدره خمسون قرشاً .. وكان هذا مسلك بقية الشباب الأبرار الذين تقبلوا وجود الهلباوى بينهم لسابقته في الجهاد .. دون أن يتصوروا انهم بازاء عميل انجليزى مهمته كشف أسرارهم وسوقهم كالذبائح الى ساحات الاعدام .

فلما وقع حادث السزدار - من وراء ظهر الهلباوى أو (المستر H) أدرك أن كل التمثيليات التى أداها وكل الحماسة الجوفاء التى تظاهر بها لم تفلح فى كسب ثقة هؤلاء الأبطال الذين كانوا يقدسون سرية العمل الفدائى ، ولم يكونوا من السذاجة ليكشفوا سرهم لأحد ، حتى لو كان مناضلاً سابقاً ، وكان الهلباوى يعرف الظروف النفسية لهؤلاء الصناديد ، وانهم من الصلابة بحيث يصعب اختراق حاجز الصمت الذى فرضوه على عملياتهم ، فكان عليه ان يبحث عن وسيلة للايقاع بهم تختلف عن الوسائل التقليدية التى كان يلجأ اليها البوليس السياسى وتنتهى الى اخلاء سبيلهم لعدم كفاية الأدلة ، وكانت القاعدة التى بنى عليها خطته هى « عندما تلقى القبض على أشخاص فيجب أن يكون هؤلاء الأشخاص المذنبون الحقيقيون ، أما اذا أقيمت القبض على أشخاص (مشكوك فيهم) فان المذنبين الحقيقيين سيعرفون انك غير واثق بالامر » .

وبناء على هذه القاعدة عكف الهلباوى على رسم خطة جهنمية متقنة الصنع دقيقة التفاصيل تشبه سيناريو لفيلم أمريكى من أفلام الاثارة ، وهى مسجلة بالتفصيل ضمن الوثائق البريطانية ،

وقد ترجمها الأستاذ محسن محمد ونشرها الدكتور حسين مؤنس في كتابه (دراسات في ثورة ١٩١٩) كما عرض الأستاذ مصطفى أمين بعض محتوياتها في (الكتاب الممنوع - الجزء الثاني) ضمن اعترافات محمد نجيب الهلواني التي أسماها (اماطة اللثام عن أخطر الأسرار) .

ولما فرغ الهلواني من وضع خطته دعا الى اجتماع مغلق في بيت انجرام بك مساعد الحكمدار بالجزيرة حضره اسسما عيل صدقي باشا وزير الداخلية ، والنائب العام وراسل باشا حكمدار القاعرة ، ومساعده انجرام ، واليوزباشي سليم زكي ، يقول الهلواني ، انعقدت الجلسة ، وبعد مناقشة طويلة سلمتهم خطة القبض على الجناة مكتوبة بيدي وطلبت منهم تنفيذها بدقة سير عقرب الساعة ، وحذرتهم مغبة التأخير أو التقديم ، فقد تؤدي غلطة بسيطة الى الفشل الذي سوف يعقبه المذلة لجميع سبكان وادي النيل . قال راسل باشا : وان لم تنجح الخطة فما مصيرك يا سيتر H قلت سوف أقتل نفسي على الطريقة اليابانية ، لأنني لا أطيق صبرا على ذل بلادي ومليكي .

وتم تنفيذ خطة سيتر H بالدقة التي طلبها وانتهى بالقبض على الرجال الثمانية الذين خططوا ونفذوا الحادث ونفذ حكم الاعدام في سبعة منهم وخفف عن الثامن ، وقبض الهلواني المكافأة التي رصدها الحكومة له وقدرها عشرة آلاف جنيه ، ولينعم بالحياة التعيسة على رقاب زملاء الكفاح القديم .

عندما ينقلب السحر على الساحر

كان لغز مصرع السرदार - ولا يزال - محصورا في معرفة الجهة التي حرضت عليه ، وفي أعقاب الحادث كانت أصابع الاتهام وهي أصابع بريطانية تسعى الى تعليق التهمة في عنق الوفد ، ووضع رقبة سعد زغلول في حبل المشنقة ، باعتباره الأب الروحي للشباب الثوري الذي ارتكب الجرائم ، وارتكب من قبله عشرات الحوادث المماثلة .

وفي مقابل فكرة اتهام الوفد بالتحريض على قتل السرदार ظهرت فكرة أخرى تحاول أن تتهم الانجليز أنفسهم بتدبير الحادث كذريعة للتخلص من وزارة سعد زغلول ، التي كانت تمثل التشدد الوطني ازاء الأطماع البريطانية . وصاحب فكرة اتهام الانجليز هو الأستاذ مصطفى أمين ، الذي جمع عددا من الأسانيد استخلصها من بعض الوقائع التي تصادف وقوعها قبيل الحادث ، غير أن مصطفى أمين لم يقف بفكرته عند حد اتهام الانجليز ، بل انتقل منها الى اتهام الملك فؤاد بتدبير الحادث عن طريق رجل القصر القوى حسن نشأت ، الذي حرض صديقه محمود اسماعيل على قتل السرदार .

ولكن المناقشة المنطقية للأسانيد التي قدمها مصطفى أمين

لا تلبث أن تكشف عن صعوبة قبولها ، فهو قد بنى فكرته على أساس نظرية « ابحث عن المستفيد من الجريمة تصل الى الفاعل » . ولكن .. اذا كان من الصحيح ان الانجليز والقصر استغلوا حادث السردار الى أقصى مدى لتنفيذ مآربهم ، الا أن الاستثمار في حد ذاته لا يقف دليلا ماديا على ان المستفيد هو المحرض ، ومن ثم يسقط اتهام الانجليز والقصر بتدبير الحوادث ولا يبقى مطروحا للمناقشة سوى اتهام الوفد .

وأصحاب هذا الاتهام يستندون الى الاعترافات المذهلة التي كتبها شفيق منصور قبل اعدامه ، وكشف فيها النقاب عن وجود مجلس أعلى للاغتيالات كان تابعا لقيادة ثورة ١٩١٩ ويتكون من زعماء شباب الوفد المقربين من سعد ، مثل الدكتور أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى وحسن كامل الشيشينى وشفيق منصور وغيرهم . أما عمليات الاغتيال فكان يقوم بها جهاز تنفيذى يتلقى أوامره من المجلس الأعلى عن طريق ضابط اتصال هو محمود اسماعيل ، وكان بعض أفراد جهاز التنفيذ أولاد عنایت ومحمود راشد ومحمد فهمى على هم الذين قساموا باغتيال السردار .

ومن الثابت تاريخيا أن هذا الجيش السرى من الشباب الثورى هو الذى تكفل بكل عمليات الاغتيال للعناصر البريطانية والموالية للاحتلال أثناء الثورة ومن الثابت أيضا أن عمليات الاغتيال توقفت بعد انتقال الحركة الوطنية فى مرحلة الصدام المسلح الى مرحلة الكفاح الدستورى ، وهى المرحلة التى بدأت بصمدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وعلان دستور ١٩٢٣ واجراء أول انتخابات نيابية وتشكيل وزارة سعد زغلول فى ٢٨ يناير ١٩٢٤ فاذا كانت قيادة الوفد قد شجعت أو باركت أعمال العنف فى مرحلة الصراع المسلح مسع الاحتلال فهل كان من المنطقى ان يستمر أسلوب العنف والاغتيال الى ما لا نهاية ؟! ولكن اذا كانت قيادات الوفد قد رأت أن العنف قد

استنفد أغراضه . . فهل كان من الممكن اقناع الشباب الثورى بهذا المنطق والتخلى عن عمليات الاغتيال ؟ . .

هنا . . تتكشف لنا أبعاد الفصام الذى وقع بين قيادة الوفد وجهازها السرى ، وهذا الفصام الذى وقع بين قيادة الوفد وجهازها السرى ، وهذا الفصام هو المسئول الحقيقى عن اغتيال السردار وتدبير الحادث من وراء ظهر الوفد وارغام قيادته على التخلى عن أسلوب التفاوض (خاصة بعد فشل محادثات سعد - ماكدونالد) والعودة الى أسلوب العنف . ذلك أن المنظمات السرية عند بدء تكوينها تكون أداة طيعة فى يد قيادتها ولكنها سرعان ما تسنمى العنف ولا ترى سبيلا غيره لتحقيق الهدف . عندئذ ينقلب السحر على الساحر ، وتتحول التنظيمات السرية الى وحش كاسر يصعب ترويضه أو السيطرة عليه . بل انها تتمرد على قيادتها وتتخذ قرارها بطريقة فردية دون احترام لرأى القيادة السياسية .

هذه حقيقة تؤكد ما وقائع التاريخ السياسى للجماعات التى لجأت الى تشكيل منظمات سرية كوسيلة ضرورية لتحقيق أهدافها فى مرحلة زمنية معينة ، ولكن سرعان ما يحدث انفصام بين الجماعة وتنظيمها السرى فى مرحلة لاحقة وتلك هى أخطر عواقب المنظمات السرية . فهى سلاح ذو حدين : احدهما يقتل الخصم . . والثانى يقتل صاحبه . وهذا ما حدث فى قضية السردار . فقد تبين من وقائع التحقيق أن الفكرة نبئت فى ذهن بعض أعضاء الجهاز التنفيذى للاغتيالات ، الذين عز عليهم أن يتحول سعد زغلول من زعيم ثورة

الى رئيس وزراء في ظل استتبع لال منقوص يتمثل في التغيرات
الاربعة التي نص عليها تصريح ٢٨ فبراير ٠٠ وعجزوا عن ادراك
الحقيقة التي تقول ان الكفاح السياسي كليل باستكمال هذا النقص،
لأنهم لم يتمرسوا على العمل السياسي ، ولم يعرفوا غير لغة الرصاص
والديناميت ٠٠

ومن هنا ٠٠ انفردوا باتخاذ قرارهم ٠

سعد أو الثورة

كان حادث اغتيال السردار نكبة على مصر بالقياس الى النتائج الخطيرة التي نجمت عنه ، وهي نتائج لا تتناسب اطلاقا مع حجم الحادث ايا كانت شخصية القتل . ومن المؤكد أن هذه النتائج لم تخطر على بال الذين خططوا له ونفذوه . فقد ظنوه واحدا في سلسلة العمليات الفدائية التي كانت تشكل ضغطا على الانجليز وتدفعهم الى مزيد من التنازلات لمصلحة القضية الوطنية . ولكن هؤلاء المخططين نسوا الفارق الزمني والتغيرات التي طرأت على بنية العمل السياسي منذ صدور تصريح ٢٨ فبراير وعلان دستور ١٩٢٣ وما ترتب عليه من اجراء انتخابات عامة دفعت بالوفد من معسكر الثورة الى مقاعد الحكم . لقد كانت حوادث الاغتيال السابقة تجري والوفد في معسكر الثورة . أما حادث السردار فقد تم والوفد في سدة المسؤولية . ومن ثم كان على الوفد أن يدفع ثمن مصرع السردار ، وثمن كل الحوادث التي سبقته - وهو خارج الحكم - والتي بلغت في مجملها خمسين حادثا ذهب ضحيتها العديد من الموظفين الانجليز ، وبعض كبار الوزراء المصريين الذين قبلوا التعاون مع الاحتلال في ظل الحماية .

وفى مثل هذه الأحداث الجسماء ، فان نتائجها لا تتم وفقا لحسابات مرتكبيها ، ولكنها تجري حسب قدرة الطرف الآخر على استغلالها للحصول على مغانم لا صلة لها بالأحداث نفسه . وهذا هو ما حدث بالضبط . فقد وجدها الاستعماري الشرس - لورد اللنبي - فرصة ذهبية ليشن هجمة انتقامية بزيوية هدفها اهانة المصريين والاحتط من كرامتهم ، وجرح كبريائهم التي بلغت ذراها ابان ثورة ١٩١٩ والاطاحة بزعيمهم سعد زغلول الذي قال انه يحكم باسم اصحاب الجلايب الزرقاء . وارتكب اللنبي في سبيل ذلك سلسلة من الأعمال الشرسية دون استئذان رؤسائه في وزارة الخارجية البريطانية مثل طرد الجيش المصري من السودان وتوسيع رقعة المساحة المزروعة قطنا في السودان على حساب الانتاج المصري . واحتلال جمر ك الاسكندرية ، وفرض غرامة قدرها نصف مليون جنيه باسعار ذلك الزمان . . . الخ .

وليس من شك في أن الاطاحة بحكومة الشعب الاولى لقيت ترحيبا وقبولا من رأس الاتوقراطية الغشوم - الملك فؤاد - الذي سمع بأذنيه هدير الجماهير عبر نوافذ قصر عابدين وهي تهتف « سعد أو الثورة » قبل أسبوع واحد من مصرع السردار ، ووجدها الملك فرصة للتخلص من هذا الفسلاح الثائر العنيد الذي يصعب ترويضه ، ولم تفلح مباحج السلطة في التخفيف من نزعته المتشدة وتمسكه بحقوق الشعب التي كفلها الدستور بعد أن أصطبغت بلون الدم أثناء حوادث الثورة .

وترك سعد الوزارة بعد تسعة شهور فقط من التجربة الليبرالية التي تمخضت عن دستور ١٩٢٣ . وكانت تلك أفدح الخسائر السياسية التي نجمت عن مصرع السردار . لقد جاءت وزارة « أنقاذ ما يمكن انقاذه » برياسة أحمد زيور لتلبى كل المطالب التي فرضها الانجليز - وزيادة - وأصبح اقضاء الوفد عن الحكم هدفا

ثابتاً في لائحة القصر الملكي ودار المنسكوب السامي . وفي الانتخابات العامة التي أجريت عام ١٩٢٦ وحصل فيها الوفد على أغلبية ساحقة تخوله الحكم ، ولاحق بؤادر عودة سعد الى رئاسة الوزارة ، في هذه اللحظة تحركت البؤارج الانجليزية نحو الاسكندرية لتجعل من عودة سعد أمراً مستحيلاً . ودخلت مصر في دوامة الانقلابات الدستورية التي أسلمت زمام الأمور الى حكومات مستبدة لا تستند الى تأييد الشعب ، وانما تستمد وجودها من قصر عابدين أو قصر الدوبارة .

والثابت تاريخياً أن سعد زغلول كان يعتبر حادث مصرع السردار طعنة في ظهر الوفد . . . وأثبتت الأحداث التالية صدق هذا الرأي . . . فمن اذن الذي أمر بقتل السردار . . . ؟!

بنات الحور

لا تزال ظاهرة خسوف القمر دعوة اجبارية الى كل أطفال مصر لكي يخرجوا الى الخلاء وهم يحملون الطبول والصفائح الفارغة ، يدقون عليها في ايقاع منتظم بينما صيحاتهم تتعالى الى عنان السماء تلتبس من بنات الحور أن يترققن بالقمر ويتركنه حرا يدور في فلكه كي تنساب أشعته الفضية على الكون ، فتطارد أشباح الظلام ، وتبعث الأنس والبهجة في القلوب .

وليست ظاهرة الدعاء للقمر عند الخسوف مقصورة على أبناء الريف ، وإنما هي ظاهرة مصرية عامة يشترك فيها أبناء مصر في الريف والحضر ، فينطلق الجميع الى الفضاء أو يضعون فوق أسطح البيوت ، ويتوجهون بأبصارهم الى القمر وقد بدا لهم شاحباً مخنوقاً .. وكلما ازدادت رقعة الظلال على وجه القمر .. ازداد حماسهم ، وارتفع ضجيجهم وهم ينشدون :

يا بنات الحور سيبوا القمر يدور

يارب احنا عبيدك يارب

والامر بيدك يارب

ويظل أطفال مصر على ايقاعهم وضجيجهم ، الى ان تستجيب بنات الحور الى توسلاتهم ، فتتحرر الظلال .. ويزول الشحوب .. ويتحرر القمر من خناقه .. ويعود له بهاؤه وجماله .. وعندئذ يعود الصبية الى بيوتهم وقد غمرت السعادة نفوسهم بعد أن نجحوا في تخليص القمر من (خنقة) بنات الحور : !!

وتذهب الدكتورة فاطمة حسين المصرى فى دراستها العلمية عن (الشخصية المصرية) من خلال الفولكلور المصرى ، الى ان هذه العادة التى يتبعها المصريون الى الآن عند حدوث خسوف القمر ، ربما لا يوجد لها مثيل فى أى بلد من بلاد العالم ، وانفردت بها مصر حتى أصبحت هذه العادة من الفولكلور المصرى الخالص .

وفى محاولة لتأصيل هذه الظاهرة عن طريق تفسير الفاظها ، تفحص بنا الباحثة فى أعماق التاريخ الفرعونى العتيق ، وترى ان جذور هذه العادة ضاربة فى القدم حتى انها تعود بها الى عصر ما قبل الأسرات وقبل توحيد الوجهين البحرى والقبلى على يد الملك مينا ، حين كان المصريون القدماء يعبدون لها من أشهر الهتهم المتعددة وهو الاله (حور) وكانوا يرمزون اليه برسم (الصقر) . وكانت ديانة هذا الاله منتشرة فى غرب الدلتا ومقر عبادته مدينة دمنهور الحالية أو إحدى ضواحيها ، ثم اتسع نفوذ هذه المدينة وبسطت سلطانها على المدن المجاورة الى ان فرضت نفوذها على الوجه البحرى كله ، وبذلك انتشرت عبادة الاله (حور) بانتشار نفوذ بلدته ، وأصبح لهذا الاله أسماء متعددة فى البلدان المختلفة ، فهو الاله (حور خنتى خت) فى منطقة بنها الحالية وهو الاله (آن حور) فى منطقة مسنود ، وهو الاله (حور خنتى ارتى) فى منطقة اوسيم ، وحدث ذلك كله قبل وحدة الوجهين ، فلما توحد الوجهان انتقلت عبادة حور الى الوجه القبلى أيضا ، وأصبح من أشهر آلهة مصر ، حتى ان الاسطورة القديمة جعلت من (حور) أحد أفراد الثالوث المقدس :

ايزيس وزوجها اوزوريس وابنها حوريس . وهو الذى ساعد أمه ايزيس على الانتقام من عمه (ست) الذى قتل أخاه وقطع جسده اربا أخفاها فى الأقاليم المصرية ، فكانت مصدر النماء والخضرة . . . مثلما كانت دموع ايزيس على زوجها مصدر فيضان النيل ، ولكن (حور) الذى جعلت منه الأساطير الها عيناه الشمس والقمر ، استطاع ان يقضى على روح الشر وينتقم لأبيه ويتربع على عرشه بفضل أمه التى اعتبرها المصريون مثلاً للأم الرؤوم .



وتروى الاسطورة ملاحم الصراع بين (حور) وعمه (ست) وقد قامت بينهما حروب طويلة ، فكان حور كلما أراد ان يهوى بخصمه قذف به الى الأرض وقد أمسك به من مقتله . . . فيكفهر وجهه . . . ويتغير لونه . . . ويحاول ان يتخلص من خصمه ، وعندما يرى المصريون تغير لون القمر يدركون ان الاله حور يحاول ان يقتل غريمه . . . فيفزعون اليه بالصلوات والترقيات والأناشيد حتى يترك (حور) خصمه (ست) استجابة لرغبة الشعب .

هذا هو تفسير مصر القديمة الفرعونية لظاهرة خسوف القمر ، وأصبح من عادات المصريين منذ العهد الفرعونى ان يهرعوا الى حور ليترك القمر ، ولم يقلع الشعب المصرى فى كل عصوره التاريخية عن التضرع للاله حور ليترك القمر بالرغم من وجود الديانتين السماويتين : المسيحية والاسلام فى مصر .

وتذكرنا الدكتورة فاطمة حسين المصرى بأن ظاهرة الدعاء للقمر لا تزال قائمة فى عصرنا الحالى حيث تغلب الديانة الاسلامية ، كل ما هنالك ان المصريين يصبغون هذه العادة الفرعونية القديمة بصبغة اسلامية فينشدون :

يا بنسات يا حور الجنة
ما تسيبوا القمر يتهنى

وجاءت الصياغة الجديدة تمشيا مع ما ورد فى القرآن الكريم
عن ذكر حور الجنة ، فقال العامة والدهماء فى مصر ان بنات الحور
هن حور الجنة .. أما الباحثة فتفسر قولهم هذا بأن الحور هم جنود
وأتباع الاله (حور) عند قدماء المصريين .



وليس المهم اذا كان المصريون يقصدون حور الجنة أم جنود
حور .. ولكن المهم هو بقاء هذه الظاهرة الى الآن لتكشف عن قوة
العادات والتقاليد القديمة وأثرها فى تكوين الشخصية المصرية ،
وبقاء الخرافات والأساطير مصدرا للسلوك ومنبعا لكثير من التصرفات
التي نمارسها ولا ندرك أصلها ، خصوصا فى مواسم الموت والدفن
وما يصاحبها من نواح وعويل واحتفالات ذكرى الأربعين .

مذبح الانجليز

لو كان سلطان مصر العظيم الظاهر ركن الدين بيبرس يعلم أن مسجده الكبير الذى يحمل اسمه ، سوف يتحول ذات يرم الى مخبز ومصنع للصابون ثم مذبح للانجليز !! لفكر ألف مرة قبل أن يقدم على انشاء هذه التحفة المعمارية الجليلة التى تعتبر أحد معالم القاهرة المملوكية ، ولكنها سنة الحياة التى تحترم القوة وتحتقر الضعف .. وكأنما شاءت الأقدار لهذا المسجد الكبير أن يكون سجلا حيا لهذه الحقيقة التاريخية الهامة .. فيتلاها بالأنوار فى عصور القوة والاقتدار .. ويتحول الى خرابة فى عصور الضعف والانحطاط ..

لقد شرع بيبرس فى بناء مسجده هذا عام ٦٦٥ هـ - بعد أن أرسى نفوذ مصر فى الشرق الاسلامى ، وجعل منها قوة عالمية مرهوبة الجانب فى وقت أوشكت فيه جحافل الغزاة أن تطبق عليها من الغرب والشرق ، ولكن هذا الفارس الذى أوتى جرأة منقطعة النظير استطاع أن يحارب فى الجبهتين ، فشتمت قوات الفرنسيين فى المنصورة وأسر ملكهم لويس التاسع ، ثم استدار ليواجه التتار فى عين جالوت على أرض فلسطين قبل أن تطلا أقدامهم حدود مصر ،

فأذاقهم كأس الهزيمة النكراء التي لم يبتلوا بها منذ خروجهم كالطاعون من بطن آسيا المجدية ، وأطاح برأس قائدهم المتوحش كتبوقا فبدد نشوة الزهو والغرور التي أسكرتهم ، وكانت بداية انحسار خطرهم الذي هدد الحضارة العالمية . . وما ان فرغ بيبرس من انتصاراته الباهرة حتى تفرغ للانشاء والتعمير . . وكان أول الحكام المماليك الذين فتنوا بإقامة المنشآت العمرانية حتي قال عنه المؤرخ أبو المحاسن ابن تغرى بردى : بنى فى أيامه بالديار المصرية ما لم يبن فى أيام الخلفاء المصريين - يقصد الفاطميين - ولا ملوك بنى أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات . .

وتستطيع أن تتأكد من صدق مقولة ابن تغرى بردى اذا قمت بجولة تفقدية فى حنايا القاهرة المملوكية لترى بقايا هذه المنشآت لا تزال قائمة شاهدة على افتتاح الرجل بال عمران وشغفه بالبناء ، وكأنما ورث هذه الحرفة عن أسلافه الفراعين الذين جلسوا على عرش مصر فجمعوا بين وظيفة الحكم وحرفة البناء . . وفى قلعة الجبل عمر دار الذهب وبنى بها قبة عظيمة محمولة على اثنى عشر عمودا من الرخام الملون ، وكذلك عمر بالقلعة طبقتين مطلتين على رحبة الجامع ، وأنشأ بجوار باب القلعة العمومى (برج الزاوية) وهو البرج الذى لا يزال قائما حتى اليوم فى الزاوية الشمالية الغربية من السور القديم للقلعة ، ثم أنشأ بيبرس على هذا البرج قبة وزخرف سقفها ثم أقام بجوارها طباقا (مسكنا) للمماليك ، وفى رحبة القلعة أنشأ دارا كبيرة لولده الملك السعيد ، وجدد بيبرس أيضا الجامع الأنور والجامع الأزهر ، وبنى جامع العافية بالحسينية وأنفق عليه فوق الألف درهم وأنشأ بالقرب منه زاوية الشيخ خضر ، كما أنشأ قبة جميلة عند مقياس الروضة ، وجدد قلعة جزيرة الروضة . . هذا فضلا عن الحمامات والطواحين والأفران والخانات

والأسواق العديدة ٠٠ ولم تحرم ضواحي القاهرة من عناية بيبرس فشملت عتايته العماثر من مسجد التبر الى أسوار القاهرة الى الخليج وأرض الطبالة ، واتصلت العماثر من باب المقس (ميدان رمسيس) الى باب اللوق وقلعة الكبش ومشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها .

ولم تقتصر اهتمامات بيبرس العمرانية على الديار المصرية ، وإنما امتدت الى الحجاز بصفته خادم الحرمين ، فاتم عمارة الحرم النبوى الشريف بالمدينة ، وعمل منبره ، وجعل بالضريح النبوى «درازيناً» ، وطلى سقوفه بالذهب وبيض حيطانه ، وجدد البيمارستان بالمدينة ونقل اليه سائر الأدوية والمعاجين والأكحال وبعث اليه طبيباً مصرياً ، وكان بيبرس أول حاكم مصرى يبعث (المحمل) الى الحجاز حاملاً الكسوة للكعبة الشريفة ، وكان يوم خروج المحمل عيداً شعبياً يخرج فيه أهل القاهرة لتوديع المحمل ومعه (الصرة) للانفاق على مجاورى الحرمين الشريفين ، وبقي هذا التقليد سارياً يحرص عليه حكام مصر حتى سنوات قريبة .

أما عن جامع الظاهر فتقول الدكتورة سعاد ماهر نقلاً عن جامع السيرة الظاهرية : ان السلطان اهتم بعمارة جامع بالحسينية ، وسير الأتابك فارس الدين أقطاي المستعرب والصاحب فخر الدين وجماعة من المهندسين لكشف مكان يليق بأن يعمل جامعاً ، فتوجهوا لذلك واتفقوا على مناخ الجمال السلطانية فقال السلطان : لا والله ٠٠ لا جعلت الجامع مكان الجمال ٠٠ وأولى أن أجعله ميداناً الذى ألعب فيه بالكرة وهو نزهتى ٠٠ ثم ركب السلطان وصحبته وخواصه والوزير والقضاة ونزل الى ميدان قرقوس وتحدث فى أمره وقاسه ورتب أموره وأمور بنائه ورسم بأن يكون بقية الميدان وقفاً (حكراً) على الجامع ، ورسم بين يديه هيئة الجامع ، وأشار بأن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية ، وأن يكون على محرابه قبة قدر قبة الامام الشافعى .

ويضيف المقرئى : وكتب السلطان فى وقته الكتب الى البلاد
باحضار عمد الرخام من سائر البلاد ، وكتب باحضار الجمال
والجواميس والأبقار والدواب من سائر الولايات ، وكتب باحضار
الآلات من الحديد والأخشاب النقية برسم الأبواب والسقوف وغيرها .
كما عين عدة ملاحظين على عمارة الجامع .

وبقى جامع الظاهر يودى وظيفته المقدسة طوال العصر
المملوكى ، فلما دخل العثمانيون مصر ضموا بالانفاق عليه بحجة
اتساع رقعته وعجز الخزانة عن الصرف عليه . وكان من نتائج
ذلك - كما تقول الدكتورة سعاد ماهر - أن نسأت حالة الجامع
وأصابته يد الإهمال والتخريب ، فحول العثمانيون الى مخزن
للمهمات الحربية كالحيام والسروج وغيرها ، وفى عهد الحملة الفرنسية
تحول الجامع الى قلعة وتكنات للجنود وغرف الجامع فى ذلك الوقت
باسم (قلعة سيكوفسكى) ويذكر الجبرتى أنهم حولوا مئذنته الى
برج ووضعوا المدافع على أسواره وبنوا مساكن للجنود بين جدرانها . .

وكانما شاءت الأقدار أن ينتقم الفرنسيون - على يدى
نابليون - من هزيمة لويس التاسع باتخاذهم مسجد الظاهر -
حامل لواء النصر عليهم - موطنًا لخيولهم وقلعة يصبون منها النار
على أهل القاهرة !!

واستمر إهمال مسجد الظاهر طوال القرن التاسع عشر ،
فتحول فى عصر محمد على الى معسكر لحدى الفرق العسكرية الوافدة
التي ساندت محمد على ، وفى بعض الأوقات تحول الى مخبز ، ثم
استعمل بعد ذلك مصنعًا للصابون . ولم يسلم الجامع من جريمة
السطو على أعمدته عندما طلب الشيخ الشرقاوى نقل أعمدة الجامع
الرخامية وكذلك بعض أحجاره لبناء رواق الشراقة بالجامع الأزهر . .
كما نقلت بعض أعمدته لاستخدامها فى بناء قصر النيل ، ولما دخلت

القوات البريطانية القاهرة بعد اخماد الثورة العراقية سنة ١٨٨٢
اتخذوا من المسجد مخبزا .. ثم سلخانة لذبح المواشى اللازمة لامداد
قوات الاحتلال .. ومنذ ذلك الحين أطلق العامة على مسجد الظاهر
اسم (مذبح الانجليز) ورغم أن عملية الذبح توقفت منذ عام
١٩١٥ .. الا أن هذا الاسم لا يزال ساريا على الألسنة .. وفى
سنة ١٩١٨ بدأت الدولة تهتم بالمسجد فتسلمته لجنة حفظ الآثار
العربية فأصلحت بعض أجزائه وقامت بترميمها وخاصة الجزء المحيط
بالمحراب وأعدته لإقامة الشعائر . وفى سنة ١٩٧٠ بدأت هيئة
الآثار تهتم بإعادة بناء الجامع واعادته الى حالته الأولى .. ولا تزال
الجهود مستمرة لاعادة مسجد الظاهر الى مجده القديم ..

عافر رعم أنفها

كانت باحثة البادية (ملك حفنى ناصف) أشهر فتاة مصرية فى العقد الأول من هذا القرن ، ودوى اسمها فى أنحاء الشرق من خلال المقالات التى كانت تكتبها على صفحات (الجريدة) تحت عنوان (نسائيات) وتعبر فيها عن تطلعات المرأة الشرقية الى حياة كريمة فى اطار التعاليم الدينية والمبادئ السامية التى تتمشى وحاجة المجتمع وتطوره ورقيه . فكانت تدعو الى مجارة العصر بقدر ما تسمح به الحاجة ، والاقتباس من الحضارة الغربية بقدر ما يلائم ظروف البلاد وينفع الحياة العائلية والاجتماعية ولا ينافى الروح القومية وروح الاستقلال الوطنى .

ولم يكن جهاد باحثة البادية مقصورا على الكتابة فى الصحف ، وانما كانت تخطب فى المجتمعات والمنتديات ، فكانت أول فئاة مصرية - بل شرقية - انبرت تكتب وتخطب وتنظم الشعر دفاعا عن قضايا بنات جنسها ، ورغم أن ملك ظهرت فى وقت ذاعت فيه دعوة قاسم أمين التحررية ، إلا أن أفكار (باحثة البادية) كانت أشد تأثيرا فى عواطف الناس من أفكار (محرر المرأة) الذى كان يحارب قضية غيره ويطرح آراء جريئة متطرفة تصدم مشاعر مجتمع

محاظف ، أفا ملك فكانف فغمس قلمها فى قلب الأنفى وفعبر بصدق عن محنة بنات عصرها ، وهن ففعرضن للهوان بسبب الفقالفد الظالمة ، والسلوكفات المجحفة ، وكانف صرخافها الأدبفة أشبه بزفراف حزفنة فوفقط الضمائر .. وفحرك المشاعر الرقفقة .. وفشفر الدموع والعبراف . ولم فكن أأفد من جماهفر قرائها - باستثناء المقربفن - فعرف أنها فعبر عن مأسافها الشففسفة ، وفصور فكبفها الخاصة ، وفرسم خفافا محفنها الفأجرة .

كانف ملك كبرى سبعة أبناء أنجبهم الأففب الشاعر المرموق حففى بك ناصف ، فنشأف فى بفف علم وأفب ، وحفظف من عفون الشعر وقطوف الأفب ما لم فففها لأفرا بفها من طالباف المدرسة السنففة ، فلما ففخرجف عففف معلمة فى نفس المدرسة ، وكان أأفرافها للفأفرفس - فى أأذافه - فطوة ففأفمفة فى عصر كان العمل ففه مقصورا على ذواف الحاجة المعوزاف ، وانطلقف ففأفر بناف العلفة للنزول الى مففان العمل بفلا من ففافة الفأفرة والغمول والافكال على الآباء والأزواج ، وأأأفبف شهرفها أأف سراة البفدو فى اقلفم الففوم ففأفبها وفزواجها وهى لم ففل فى مفعة الصبا وحمفها الى مضارب القوم على فافة الصأراء ، ووفأف الفأاة ففافة القاهرة بأضوافها وشهرفها .. وفأفف رءاء المأأمع المصرى وفزفب بزى البفدوى المأمفل فى العبساء والكوففة والعقال ، واستأفلبف ففافها المفففة بروج راضفة ، ونفس قانعة ، وبفبف لها الباففة فرففة شافقة ، فزففها الغموض والابهام سأرا على سأر ، فأسامف « ملك » نفسها الى فففة فأمرة ، واستسلمف لقفرها ففوفها فففالها الشأرى الى المأهل البسأر ، وفأمفلبف لها رؤى بعففة رأف ففها نفسفها فأمف قفس النور ومشعل الفافة الى مأأهل الباففة وفنقل الى أهلها ما أأفزنفف روحها من علم ومعرفة وحب صافق .

ومرف السناف الأفلى من الفافة الزوجفة لا ففأرها ففر نظراف

قلقة من جانب الزوج الذى كان ينتظر من زوجته الجديدة أن تلد له أولادا يرفعون من قدره فى مجال الزعامة القبلية ، ثم تحول القلق الى محنة عندما تأكد للزوجة الشابة أنها لن تحقق للزوج أمله فى الوريث ، أما هو فلم يشر حوله الشكوك فى قدرته على الانجاب ، فقد سبق له الزواج بابنة العم وأنجب منها فتاة ، وبذلك لصقت تهمة العقم بالزوجة الطارئة ، وحكم الناس عليها بأنها عاقر عقيم . . . وتحولت نظراتهم اليها الى سهام مسمومة تنال من كرامتها وكبريائها فى مجتمع يزن المرأة بعدد ما تلد من أولاد . . . وليس بمقدار ما تحمل من علم وثقافة وحب للإنسانية . وأدركت « ملك » أن عليها أن تخوض معركتين فى وقت واحد : معركة استرداد كرامتها الجريحة أولاً . . . ومعركة تحرير نساء القبيلة من هذا العرف الصارم الظالم الذى يهدر حق الأنثى فى الحياة اذا لم تلد . . . وهو أمر لا ذنب لها فيه . . . وحول هذه المرحلة الحرجة من محنة باحثة البادية تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) ان ملك حشدت للمعركة قوى شبابها وعلمها ، وظاهرتها قوى أخرى من كبريائها الجريحة ، وسعادتها الموعودة ، وأمومتها المحرومة ، وقلبها الممزق ، وخاضت المعركة بجسمها وروحها ، بقلمها ولسانها ، ببشريتها وإنسانيتها ، بدمها وأعصابها ، ولكنها وجدت نفسها فجأة تنساق بالرغم منها مع تيار العرف السائد فتشتبهى الولد اشتهاً قاهراً قاسياً ، وتكابد من أهوال الحرمان ما لا طاقة لبشريتها باحتماله ، ثم بلغ بها الأمر مداه ، فاذا هى - هى المتعلمة المثقفة الممتازة - تنظر الى خادوماتها الحوامل والأمهات ، نظرة من تود لو دفعت كل جاهها وثروتها وكل علمها وثقافتها ، ثمناً لوليد - أى وليد - تحمله مثلهن . وتاقت نفسها الى غيشة خشنة متواضعة مع زوج لها وولد ، فى عش من قش ، وخيمة من صوف ، وكوخ من خشب . . . !!

وقد روعها هذا الانهيار النفسى أكثر مما روعتها المحنة ذاتها ،

فانصرفت عن حرب القوم لتحارب نفسها ، ولاح لها وسط هذه
الظلمات المتراكمة شعاع هزيل من نور ، لقد كتب عليها الشقاء فما
تستطيع أن تمحو هذا المكتوب ، ولا أن تجعل من العاقر ولودا ..
ولكنها تستطيع أن تفعل شيئا لسواها من التعييسات اللاتي
يتجرعن الحسف والهوان ، وتستطيع أن تصور للناس تلك المحنة
التي نغصت حياتها ، وتقص على الضمير الانساني قصة تلك المخلوقة
البائسة التي أهينت لأنها عاقر .. !!

تقول بنت الشاطيء في تاريخها لحياة باحثة البادية : من
ذلك الحين اتجهت ملك الى الحياة العامة تحارب في الميدان الاجتماعي ،
وتكافح من أجل جميع النساء ، وراحت تبعث من مأواها
النائي صيحات تسجل قضية « الجنس » تسجيلا صريحا
دقيقا ، وتعبّر عن آلامه بصوت مؤثر ، وقد رددت « الجريدة » صدى
هذه الصيحات التي ظلت تنطلق من البادية أعواما طويلا فما أضعفها
طول العهد ، وأصغى الناس مبهورين الى « النسائيات » وتلقاها
شيوخ الأدب مقدرين ، ورأى عميدهم - أحمد لطفى السيد باشا -
ان هذه النسائيات قد اشترك في تأليفها « ما ورثته ملك عن أبيها
من ذوق في الكتابة وملكة الانتقاد » أما بنت الشاطيء فتري أنها
ثمرة حياة « ملك » في البادية بعد زواجها : تلك الحياة التي أنضجتها
التجربة ، وهذبها الألم ، وأرهفها الحرمان .. لقد ظلت المسكينة
تتلوى في باديتها من حرقة الظما ، وأمست حياتها قطعة من العذاب
ولونا من الاستشهاد ..

أجل .. الاستشهاد في سبيل قضية خاسرة .. فقد شاء
القدر لهذه المخلوقة المعذبة أن تعرض نفسها على طبيب شهير في
الآستانة ليعالجها من العقم .. وفحصها الطبيب مرة .. ومرة ..
ومرات .. ثم كانت المفاجأة المرعبة عندما اكتشف أنها ليست

عاقرا ٠٠ وأن قدرتها على الانجاب لا تقل عن قدرة غيرها من بنات
حواء ٠٠ !!

من أين اذن جاءت تهمة العقم ٠٠ ؟؟

لقد تبين ان الزوج - بعد انجابه من زوجته الاولى - أجريت
له عملية جراحية عاد بعدها عقيما لا ينجب ٠٠ !! ولم تتحمل
المسكينة هول الصدمة ٠٠ فذابت كما تذوب الشمعة المحترقة ٠٠
وذوى رحيقها في احتضار بطيء حتى أسلمت الروح في ١٨ أكتوبر
١٩١٨. وهي في ريعان العمر وعز الشباب ٠٠ ولم تتعد الثلاثة
والثلاثين ربيعا ٠٠ ولم يصمد أبوها المسكين للفاجعة فأصيب بالشلل
ولحق بابنته بعد شهور ٠

محامي العظماء

كانت أول مرة رأيت فيها الأستاذ عباس محمود العقاد في أواخر الخمسينات ، كنت وقتها طالبا بالجامعة وأخطو خطواتي الأولى في بلاط صاحبة الجلالة . . . وسمعت عن الندوة التي يعقدها العقاد كل يوم جمعة في منزله في مصر الجديدة . فسعيت إليها في نفر من زملائي القادمين من الريف ، وفي طليعة اهتمامنا أن نرى الأدباء والمشاهير الذين قرأنا لهم ، ورأينا صورهم في الصحف والمجلات وسمعنا أصواتهم من الراديو . ولم تكن رؤية العقاد مفاجأة لي . كانت حقيقته تقارب الصورة التي رسمتها له في خيالي . . عملاقا . . أشبه بفارس قائم على صهوة جواده شاهر سيفه وكأنه على استعداد دائم للنزال . ولكن المفاجأة كانت في اعتداده بنفسه واحترامه لذاته الى حد الغرور !

أذكر في إحدى الجلسات كان يتكلم عن جائزة نوبل والسبب في عدم اقترابها من منطقة الأدب العربي فتناول أحد زملائنا وسأله : ومن ترشح من الأدباء العرب لنيل هذه الجائزة ؟ فأجاب العقاد على الفور :

أنا يا أخي . . وهل يوجد من يستحقها عن جدارة غيري ؟ !
ورغم أن الرد كان أشبه بمزحة أو نكتة ، ألا أن أحدا من الجالسين

لم يبرؤ حتى على الابتسام . . وواصل العقاد حديثه عن نفسه ،
معددا جوانب العظمة في قيمته الأدبية ، حتى لكأنه كان يتحدث
عن شخص آخر . . !! ووجه المفاجأة لى وزملائي - ليس في أن
العقاد لا يستحق جائزة نوبل ، فهو بلا جدال أكبر منها ، ولكن
في أنه كان يتحدث عن نفسه بطريقة تصادم طبيعة التواضع التي
نشأنا عليها في الريف ، ولكن العقاد تجاوز هذه الحالة التي تتخفى
في رداء التواضع لتتجاهل جوانب العظمة التي يراها أجدر بالجلال ،
وأحق بالذیوع والتبيان .

لم أكن في ذلك الوقت المبكر أعرف أن العقاد من المؤمنين
بالعظمة ، والمبشرين بالعبقريّة التي ترقى بأصحابها وترتفع بهم
من صفوف العامة الى مراتب العلية النادرين ، ثم اقتربت من العقاد
في كتبه وعاشت أبطاله المرموقين فوجدته « محاميا » بليغا يصول
في محكمة التاريخ بصوته الجهوري وحججه القوية ، وعباراته
اللاذعة ، مدافعا عن أبطال الانسانية وقاداتها وعظمائها كاشفا عن
جوانب العظمة والسمو في شخصياتهم ، ماسحا ما علق بهم من
افتراءات الجهلة وتجنّيات الحاقدين ، رغم ثقته بأن أبطاله ليسوا في
حاجة الى دفاع ، فيكفيهم مجدا انهم أدوا رسالتهم وقالوا كلمتهم
واحتلوا مكانا عليا في مراتب الخلود . انما كان يهم العقاد أن
تعرف الانسانية أن قيمتها لن تتحقق ما لم تعرف لعظمائها السالفين
واللاحقين حقهم من الاحترام والتوقير .

كان أشد ما يؤلم العقاد أن تتفشى تلك الجرائم الخلقية عند
الناشئة ، فتجنح بهم الى الغضب من قيمة البطولة والاستخفاف
بالعبقريّة الفردية التي هي قيمة مغروسة في النفس قبل أن تبرزها
الأعمال والتجارب . وكان من أخطار هذه النزعة المريضة ان أصبح
التطاول على العظماء موضوعة تقديمية يتباهى بها الجهلاء والهاقدون ،
واذا سألت العقاد عن سر تمجيده للبطولة والأبطال فسوف تجد

عنده الجواب الأولي : ان ايتاء العظمة حقها لازم في كل آونة وبين كل أمة ، ولكنه في زماننا هذا ألزم منه في أزمنة سالفه ، وعالمنا المعاصر أحوج ما يكون الى المصلحين النافعين لشعوبهم وللانسانية كافة ، ولكن كيف يتاح لمصلح أن يهدي قومه وهو مغموط الحق !! معرض للجحود والنكران !! وهل تستطيع الانسانية أن تفرز أبطالاً جديداً ما لم توف أبطالها السالفين حقهم من التوقير والاحلال ؟ !! .

لقد هال العقاد ، كما هال كل غيور ، أن يرى الناس قد اجترأوا على العظمة رغم حاجتهم الى هدايتها ، وأفزعه أن يرى الجهلاء والدمماء والغوغاء يعضون من قيمة الأبطال ، وتنال من مكانتهم وتتجنى على أقدارهم وتلحق بهم المثالب والنقائص والعيوب ، وهذا التجنى له عند العقاد مسببات كثيرة ، أهمها ذبوع الحقوق العامة وشيوع نزعة المساواة ، مما أغرى صغار النفوس بإنكار الحقوق الخاصة للعظماء الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة . وهو يرى أن بعض الناس قد أساءوا فهم (الديمقراطية) وظنوا أنها حرية الصغير في تجريح الكبير ، وأن المساواة القانونية تلغى الفوارق الطبيعية ، وأن الثورة على الحكام المستبدين معناها الثورة على كل ذي مكانة من العظماء ، فكثر التطاول على كل عظمة انسانية ، ولكن الى أي مدى كان هذا المنهج صحيحاً في تقييم الأبطال ؟ .

لقد كان الأستاذ العقاد مفتوتاً بأبطاله الى درجة الوجد الصوفي ، فهو لا يقبل نقداً لتصرفاتهم حتى لو كان التصرف بسيطاً هيناً ، ويرى في نقد الأبطال محاولة مفتعلة للتطاول عليهم والزراية بهم . وكان العقاد يسخر من مناهج البحث التاريخي التي تتناول حياة الأبطال بعين فاحصة تفصل ما بين الحسنات والسيئات في سلوكهم ، ويستنكر مسلك الكتاب الذين (يزعمون) الانصاف عندما يفرقون بين الثناء واللام ، ويسترسلون في سرد الحسنات ثم ينقلبون من كل حسنة الى عيب يكافئها ، ويشفعون كل فضيلة

بنقيصة تعادلها ، فهم - فى رأيه - يفعلون ذلك توكيا لمظنة المغالاة
والاعجاب المتحيز ، بينما هو يرى فى التحيز شيئا لا يستحق الملام ،
بل يمضى الى أبعد من ذلك ، فيصف هذا المنهج بالمرأاة والكذب
والتمسح بالعدل والانصاف والموضوعية ، وهى منه براء . . . وأصحاب
هذا المنهج - عنده - لا يقلون ظلما عن القاضى الذى تحاكم اليه
أحد الملوك فى ملكية عقار ينازعه فيه بعض السوقة ، فحكم القاضى
على الملك بغير الحق ليغتم سمعة العدل فى محاسبة الملوك ، فما كان
من الملك الا أن عزله لأنه حكم بالظلم وهو يبتغى الرياء يظلمه .
فكان الملك عادلا لأنه أنصف وهو مستهدف لتهمة الظلم وقاضيه قد
ظلم وهو يتراعى بالانصاف .



وبهذا المعيار انبرى العقاد للدفاع عن أبطاله وتبرير تصرفاتهم
جملة وتفصيلا ، فكل تصرف منهم له عنده مسوغ ، وكل خطأ له
دوافع وظروف تنقله الى دائرة الحسنات التى يستحق عليها التقدير
والاعجاب . فلا يثير العقاد شيء قدر أن تحاسب أبطاله ، وتخضعهم
لمقاييس الخطأ والصواب ، فهل بلغ العقاد بأبطاله مرتبة العصمة
التي لا يجوز معها نقد أو حساب ؟ وهل أضفى عليهم حصانة لم
يفرضوها هم على أنفسهم ؟ ان قارىء « العبقریات » لا بد أن يخرج
بهذا الانطباع . . . ولا يملك الا أن يتساءل عن مدى صحة هذا
المنهج .

واذا كان لكل فعل رد فعل معاكس له فى الاتجاه ، كما يقول
علماء الطبيعة ، فانه يمكننا أن نتفهم أسباب مغالاة العقاد فى حماية
أبطاله ، لقد كانت ردة فعل لنزعة الاستخفاف والتطاول التى شاعت
فى حياتنا السياسية والفكرية والأدبية بعد ذیوع مناهج البحث
الأوربية التى تعالج الظاهرة « الانسانية » بنفس البرود الذى تعالج

به الظاهرة « الطبيعية » ، وتتناول حياة الأبطال بأسلوب تشريحي مجرد من اعتبار التقدير والاحترام والتكريم ، فاذا أضفنا الى كل ذلك نزعة الحقن الكامنة عند بعض المستشرقين ، لأدركنا سر غضبة العقاد وتصديه لهذه الهجمة الشرسة التي تهدد الأبطال وتزعزع مكانتهم السامية في نفوس الناس . فكان عليه أن يحمي عباقرة الانسانية عامة ، وأبطال الاسلام بخاصة - من عمليات التجريح والتشويه التي كانت تجرى باسم العلم والأمانة والموضوعية .



ولكن الحصانة التي فرضها العقاد على أبطاله ، كان من شأنها أن تؤدي الى عكس الغرض الذي أرادته ، لأنها تتناقض مع أصل من أصول الفكر السياسي في الاسلام وهو حق الرعية في محاسبة الراعي ونزع العصمة عن الحاكم حتى تسهل محاسبته ، وكان الخلفاء الراشدون يعنون هذه الحقيقة وعيا تاما ، ويحرصون على اعلانها وتأكيداتها في خطب البيعة التي يلقونها على جمهور الأمة في أول يوم من أيام ولايتهم ، ومضى علماء الاسلام الأوائل في تطبيق هذا المنهج المتوازن في تقدير الرجال ، حتى انتهى بهم الى تأسيس علم « الجرح والتعديل » وهو علم جليل لم تعرف له سابقة عند الأمم السالفة ، وهدفه التثبت من صحة الروايات والأخبار المتواترة عن طريق نقد الرواة - وبعضهم من الصحابة والتابعين - والتأكد من أمانتهم وعدالتهم أو عكس ذلك من كذب أو غفلة أو نسيان ، وكان العلماء يختبرون بأنفسهم من يعاصرونهم من الرواة ، ويسألون عن أحوال من سلف وأخلاقهم وسلوكهم ، ثم يعلنون رأيهم فيهم دون تحرج أو شعور بالاثم لأنهم كانوا يضعون الحقيقة وحدها نصب أعينهم ، وعلى هذا الأساس المتين نهضت مناهج البحث في ظلال النهضة العقلية والفقهية والفكرية التي يفخر بها الاسلام .

ولم يكن الاستاذ العقاد غافلا عن ذلك ، ولكنها العاطفة الحارة
التي انطوت عليها نفسه الكبيرة تجاه أبطاله ، فآثر أن يقدمهم الى
الناس وقد أحاطت بهم هالة من الجلال والجمال ، ولم يكن من اليسير
أن يمر منهج العقاد دون أن يتعرض للنقد من جانب معاصريه الذين
كانوا يؤثرون تقديم الأبطال في صورة واقعية متوازية . وفي ذلك
يقول العلامة أحمد أمين :

ان العظيم مهما عظم فله خطآت . . . والا ما كان انساتا . .
والعصمة لله وحده . . فهل واجب الكاتب أن يعرض لكل ذلك في
تفصيل ، فيذكر كل ماله ويشيد بذكره ويذكر خطآته وينقدها ،
ويعلم بذلك درسا في نواحي مجده ، ودرسا آخر في مواضع
خطئه ؟ أم أن واجبه فقط تجلية العظمة والتأويل والدفاع الدائم
عن نواحي الخطأ . . ؟

ولا يخفى العلامة أحمد أمين انحيازه الى الرأي الأول . . فما
رأيك أنت يا عزيزي القارئ ؟

هوان الانسان

منذ نصف قرن أو يزيد احترقت مدينة ميت غمر ، فاحترق قلب مصر ، وتبارى الشعراء والأدباء والكتاب لتحريك المشاعر ، وإيقاظ الضمائر ، وإثارة الهمم ، وانطلق صوت شاعر النيل حافظ إبراهيم ، يدوى فى أرجاء مصر بأنباء الكارثة ويروى تفاصيلها المفجعة بحاسة الصحفي ، وعدسة المصور ، وريشة الفنان ، وصنع من كل ذلك لوحة مبدعة تنبض بالحياة وتثير الشجن ، وأنت حين تسمع القصيدة لا تملك إلا أن ترسل الدمع حزنا على الرضيع الذى فقد أمه ، والعجوز التى تبحث عن النجاة من الجحيم، والضحايا الذين باتوا طعمة للنيران .

وكان أبناء مصر يطالعون شعر حافظ فى صدر الصفحات الأولى من الصحف ، فتهتز مشاعرهم ، وتتشرف نفوسهم قطرات من الحزن النبيل ، وسرعان ما يتجسد ذلك فى مشاركة وجدانية توحد بينهم وبين المنكوبين من أبناء وطنهم .. أئها وحدة الألم التى صهرت المصريين - على مر العصور - فى سبيكة بشرية صلبة ، وكنا فى مرحلة التعليم الابتدائى نحفظ ضمن مقطوعات الأدب المصرى الحديث - تلك القصيدة الرائعة التى كتبها حافظ فى حريق ميت غمر ، ولا تزال الذاكرة تعى منها هذه الأبيات :

سائل الليل عنهم والنهار كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيهم فقد الأم وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار يتداعى وأسقف تتواري
رب ان القضاء أخنى عليهم فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومر النار أن تكف إذاها ومر الغيث أن يسيل انهما را
أين طوفان صاحب الفلك يروى هذه النار فهي تشكو الأوارا
أشعلت فحمة الدياجى فباتت تملأ الأرض والسماء شرارا
غشيتهم والبؤس يجرى يمينا ورمتهم والبؤس يجرى يسارا



كان الانسان المصرى ، فى ذلك العصر « البائس » له قيمة ، اذا
أصابه مكروه ثار الرأى العام ، وتحركت الصحافة ، وخفقت قلوب
الناس من الاسكندرية حتى الشلال ، وسارعت الأيدى الى المواساة
والنجدة ، كانت روح الألفة والتكافل تمثل قيمة أساسية من قيم
المجتمع المصرى ، وفى الحريق الذى دمر قرية الضهيرية نوفمبر
١٩٨٤ ظهرت النزعة الفردية فى أسوأ صورها ، جاءت سيارات
الاطفاء فاستقوى عليها وجهاء القرية وساداتها الجدد لتأمين بيوتهم .
وليذهب الآخرون الى الجحيم . على أن الأنكى والأمر من كل ذلك ،
هو موقف الرأى العام - ممثلا فى صحافته واذاعته وأحزابه وهيئاته
وجمعياته - من هذا الحادث المفجع . لقد أكلت النيران ٦٣ انسانا
ودمرت ٦٥٠ بيتا بمحتوياتها وكان نصيب الكارثة من اهتمام
الصحف ووسائل الاعلام بضعة سطور تبشر الناس بصرف مساعدات
وزارة الشؤون للمنكوبين بمعدل خمسين جنيها لكل قتيل . . . !!

تصوروا . . . ثمن الانسان فى بلادنا لا يزيد على خمسين جنيها
فى حين أن ثمن أصغر دابة فى سوق التلات يبلغ أضعاف ذلك ،
فما الذى جرى على الانسان المصرى حتى هبط سعره الى هذا الحد ؟ .

اتوبيسات تقع بركابها فى النيل ! مقطورات تنزلق بحمولتها
المكدسة الى قاع المصارف ! عمارات تنهار على سكانها وهم نائمون !
قطارات تتصادم ويختلط حطامها بأشلاء ركابها ! قرى تحترق
وتتفحم جثث أبنائها ولا تجد لكل هذه النكبات صدى فى وسائل
الاعلام .. فهل هانت حياة الناس على الناس الى هذا القدر
المخيف .. !!

منذ أيام كنت أستمع الى السيد وزير الاعلام فى حديث اذاعى
قال فيه ان مجموع ساعات الارسل الاذاعى فى بلدنا تزيد على
٢٠٠ ساعة فى اليوم *

ولكن : ما هو نصيب الانسان من هذا الحشد الاذاعى الهائل ؟
وما قيمة الكم الاعلامى ان لم يضع البنى آدم فى طبيعة اهتمامه .. !
هل انتقلت كاميرات التلفزيون لتقدم لنا تفاصيل نكبة الضهرية
مثلما تفعل لنقل السفاسف والتوافه من الأمور ! ان الصحف التى
تفخر بانجازاتها الطباعية المتقدمة لم تعد تفكر فى تغطية هذه
الكوارث خصوصا اذا كانت خارج القاهرة .. والصحف التى
اصدرت ست طبعات لمتابعة انتخابات الرئاسة الأمريكية نسيت
ان تتابع أنباء الكارثة التى وقعت فى الضهرية .. فهل من أصل
الحضارة أن نلاحق أخبار أمريكا ونتجاهل أخبار قرية مصرية احترقت
يمن فيها .. ؟ حقا أنه لا يزال بيننا وبين جوهر الحضارة أمد بعيد *

أدب الحشيش

لا يعرف بالضبط متى تسلسل الحشيش الى مصر ٠٠ وان كان المقریزی يذكر في خططه أن القنب الهندي انتقل الى بلاد فارس ومنها الى العراق ومصر خلال القرن السابع الهجري ، وأن أول من اكتشف « الحشيشة » في خراسان هو الشيخ « حيدرة » المتوفى عام ٥٦٢٨ ، وأنه جعلها وقفا على رفاقه من رجال التصوف في خراسان ، ولم يشاء أن يذيع سرها على الناس ، وأوصى أصحابه بأن يزرعوها على قبره بعد موته . ثم انتقلت الحشيشة من خراسان الى بغداد حيث أكثر المتصوفة هناك من تعاطيها ، وعن طريقهم انتقلت الى الشام ومصر حيث سميت بحشيشة « الفقراء » وهو الاسم الذي كان يعرف به فقراء الصوفية .

ولكن بعض المؤرخين يرى أن الحشيش تسلسل الى مصر مع الحملات المغولية على ديار الشرق الاسلامي ، وينقل محمد بن بهاء الزركشي صاحب رسالة « زهر العريش في الكلام عن الحشيش » عن الامام ابن تيمية قوله ان الحشيشة ظهرت في أواخر القرن السادس الهجري حين ظهرت دولة التتار ٠٠ وان تلك المادة انتقلت مع التتار الى بغداد ٠٠ الخ .

ويظهر الحشيش في مصر ، أصبح غرضاً من أغراض الأدب ،
يتغنى به الشعراء ويتغنون باظهار محاسنه مثلما كان أبو نواس
وبشار يمتدحان الخمر في حانات بغداد ، وكان شعراء الحشيش
في مصر لا يجدون حرجاً في الدعاية له ظناً منهم أن الدين لا يحرمه ،
وأن أحداً من كبار الفقهاء لم يفت بتحريمه ، متجاهلين الفتاوى
الصريحة التي أعلنها ابن تيمية في شأن تحريم الحشيشة . ومن
نماذج الشعر في ذلك العصر ما نظمه محمد بن علي بن الأعمى :

دع الخمر واشرب من مدامة « حيدر »
معنبرة خضراء مثل الزبرجد
هي البكر لم تنكح بماء سحابة
ولا عصرت يوماً برجل ولا يد
ولا نص في تحريمها عند مالك
ولا عند الشافعي وأحمد
ولا أثبت النعمان تنجيس عينها
فخدها بحمد المشرقى المهند

فأنت ترى في هذا الشعر تحقيراً للخمر ، وإشادة بالحشيش ،
بزعم عدم تحريمه عند أئمة الفقه الأربعة ، وتلك لعمري مغالطة
مفضوحة ، ومحاولة ساذجة لتحليل شيء محرم ، وصدق المجتهدون
في تحريم الحشيش قياسياً على الخمر ، لاشتراكه معها في علة الحكم .
وهو غياب العقل . . والعلاقة بين الحشيش وغياب العقل علاقة
تاريخية منذ ظهرت طائفة الحشاشين « الاسماعيلية » في شمال
إيران واستخدموا الحشيش في تخدير الأتباع وشل ارادتهم قبل
تكليفهم باغتيال الخصوم والأعداء ، وفي ذلك يقول الدكتور علي صافي
حسين في كتابه « الأدب الصوفي في مصر » : « والرأى الذي نرجحه

ونرتضيه هو أن الحشيشة عرفت فى قلعة « الموت » فى شرق الدولة
الاسلامية على يد أتباع حسن الصباح الذى تزعم الاسماعيلية الباطنية
الشرقية ، تلك الطائفة التى اشتهرت بين المؤرخين باسم
« الحشاشين » .

وكان الحسن الصباح قد تحصن فى تلك القلعة الشماء وأطلق
عليها اسم « الموت » أى عش النسر لوعورة موقعها ، ونشر فيها
البساتين الفيحاء وأنهار العسل والخمر لتكون جنة الأرض السرية
التي يستمتع فيها أتباعه ، ويقال انه كان يستخدم الحشيش فى
تخدير الشباب الأغرار حتى أصبحوا طوع بنانه لا يخالفون له
أمر . . . وكان يبعث بهم فى غارات مفاجئة لاغتيال السلاطين والأمراء
والوزراء من خصوم الاسماعيلية ، فينطلقون لتنفيذ ما كلفوا به فى
جسارة واقدام ، ولقد راح ضحية هذه الاغتيالات عدد كبير من زعماء
العالم الاسلامى وباتت كلمة حشاشين Assassin فى اللغات
اللاتينية تعنى فرق الاغتيال .

واذا كان هناك اجماع على نسبة هذه الحوادث الى طائفة
الاسماعيلية الا أن بعض المؤرخين يشكك فى دعوى استخدام
الحشيش فى تطويع ارادة الاتباع ، وحجته فى ذلك أن تعاطى
الحشيش يؤدى الى الجبن والخور والتردد . . . وهى صفات تنافى حالة
الجسارة التى كان يتصف بها القديون .

فالمؤرخ المعروف برنارد لويس المتخصص فى تاريخ
الاسماعيلية فى كتابه « الحشاشون » ترجمة الأستاذ محمد العزب
موسى - يرفض قصة استخدام الحشيش ، ويرى أنها غير صحيحة
اطلاقا ، فاستخدام الحشيش وآثاره كان شيئا معروفا فى ذلك
الوقت ، ولم يكن بالسر المجهول أو وقفا على زعماء الاسماعيلية ،
ولم يذكر أحد من الكتاب الاسماعيليين أو كتاب السنة الجادين أن

الاسماعيلية كانوا يستخدمون هذا المخدر ، أما اطلاق وصف الحشاشين على تلك الطائفة فان لويس يراه دلالة على احتقار العقائد الفاسدة والسلوك المعيب لأعضاء تلك الفرقة . . فهو تعبير ساخر عن سلوكهم أكثر من كونه وصفا حقيقيا لأفعالهم . .

وسواء صححت أم لم تصح دعوى استخدام الاسماعيلية للحشيش ، فان الصحيح أن الحشيش كان أحد مصادر البلاء التي عمت العالم الاسلامي ، ونخرت عظامه ، وأشاعت في شعوبه الخمول والكسل والانحطاط .

شخصية الزعيم

إذا أردنا أن نبحث عن سر التفاف الأمة حول قائد ثورة ١٩١٩ سعد زغلول فسوف نجده في عبارة ذكية للمؤرخ الجليل محمد شفيق غربال يقول فيها « ان الأمم بطبيعتها تحس بمن يحبها فتستجيب له ، وتلقى بثقتها بين يديه ، وتحس بمن لا يحبها الحب الصادق الوفي فتنبصر عنه » .

وهذا ما حدث لسعد زغلول ، فقد أجمعت الأمة بكل طبقاتها الاجتماعية ومستوياتها الثقافية والفكرية والدينية على زعامته للثورة ، وأسلمت إليه قيادها وهي تعلم انه الأمين على ما أوّمن عليه ، وكانت تثق بحكمه وتقديره للأمور ، وكان يكفي أن يسحب سعد ثقته عن أحد السياسيين فيسقط جماهيريا ، أو يسحب اعترافه بصحيفة تنطق باسم الوفد فينبصر عنها القراء .

وقد ذهب المؤرخون والباحثون في تفسير سر زعامة سعد زغلول مذاهب شتى ، فعزاها بعضهم إلى قدرات خاصة كامنة فيه بالسليقة كالعناد والصلابة ، وقال بعضهم ان سر زعامته لا يمكن فهمه الا في ضوء التغييرات السياسية والاجتماعية التي طرأت على المجتمع المصري . أما الدكتور عاطف أحمد فؤاد فيلخص لنا

فى كتابه (الزعامة السياسية فى مصر) مقومات زعامة سعد فى
العناصر الثمانية التالية :

١ - الموهبة الخاصة والقدرة المتميزة على التأثير على الآخرين
وهى من أولى السمات المميزة للقيادة الناجحة والزعامة السياسية
القادرة .

٢ - التفاف الجماهير حوله والتأييد الشعبى الذى يندر أن
نجد مثيله لدى تاريخ أمة من الأمم ولا شك أن هذا التأييد قد أضاف
الى أبعاد الشخصية الزعامية لسعد بعدا جديدا ، زادها قوة على
قوة .

٣ - التجربة السياسية والحزبية والتمثل الجيد لظروف المجتمع
المصرى والرؤية الواعية لتاريخ هذا المجتمع .

٤ - رغم انتمائه الى الصفوة السياسية المثقفة ، فانه استطاع
أن يتجاوز حدود هذه الصفوة ، وإن يكون زعيما « للرعاع » على
نحو ما شبه سعد نفسه ، ولا شك أن انتماءه الطبقي للقرية المصرية ،
وقربه من نفسية الانسان المصرى وفهمه لعبقرية هذا الانسان
وديناميات شخصيته ، ساعده كثيرا على أن يتجاوز بزعامته حدود
صفوته المثقفة .

٥ - لعبت ظروف الحكم الاوتوقراطى وأزمة الاحتلال الانجليزى
على تفجير كوامن العبقرية الزعامية لسعد ، وصلابته وعناده والتي
ظهرت ارهاصاتهما فى الفترة التى تولى فيها وزارة المعارف ، وهى
الفترة التى شاهدت صراعا من دائلوب ممثل الاحتلال فى وزارة
المعارف ، والتي كشفت عن عناد الفلاح المصرى وصلابته وأصالته .

٦ - لم تكن زعامة سعد من الزعامات الجوفاء ، أو ذات الخواء
الفكرى بل كانت زعامة تجمع بين السمات العملية والرؤية الفكرية ،
وإن لم تصل الى مستوى النظرية أو الايدىولوجية المتكاملة .

- ٧ - استطاع سعد من خلال قيادته للأمة وزعامته لها أن يحدث ما يمكن تسميته بالتحديث السياسى ، الذى تمثل فى دستور عام ١٩٢٣ كأول بشير بالحكم الليبرالى وما ترتب على هذا الدستور من نتائج كان لها تأثيرها على المسيرة السياسية للمجتمع المصرى .
- ٨ - رغم استئثار سعد بالرأى فى كثير من الأمور ، وضيقة أحيانا بالمعارضة فإنه استطاع أن يكسب احترام مؤيديه ومعارضيه معا وهو ما تبدى فيما رواه كل من عبد الرحمن الرافعى وأمين الرافعى والدكتور محمد حسين هيكل .

دواء غير صالح

كان الانجليز فى القرن الماضى ، رغم عشقهم للحرية وتقديسهم للحياة النيابية الدستورية ، يرون أن شعوب الشرق غير مؤهلة لاقتباس هذه المبتكرات الحضارية الحديثة . وكانت حجتهم فى ذلك أن الحياة النيابية ثمرة تطور تدريجى بطيء على النحو الذى حدث فى انجلترا نفسها ، وبدون هذا التطور يصبح الدستور والبرلمان مجرد شكلين واهيين ، فلما قامت الثورة العراقية لتطالب الحديو باعلان الدستور وقيام مجلس نيابى « على النسق الأوروبى » دهش الانجليز لهذا المطلب « الغريب » الذى كان فى نظرهم أشبه بدواء غير صالح للاستعمال بين شعوب استمرأت الطغيان وتعودت الاستعباد . . ! وبدلا من أن يكون الانجليز صادقين فى نشر هذه المبادئ والأفكار التى تمثل رموز الحضارة الأوروبية ، وبدلا من ان يساعدوا المصريين على الخلاص من الحكم الاوتوقراطى الرجعى تكالبوا على الثورة حتى اخمدوها وأعادوا الحديو المخلوع الى عرشه ليستأنف نشاطه فى جلد المصريين بالكرباج . . !

وبعد أن التقط الانجليز أنفاسهم ، بدأوا فى تحطيم كل أثر من آثار التحرر التى أقامتها الثورة العراقية فى المجتمع المصرى ،

وتم ذلك وفق برنامج زمني مدروس وضعه أحد اساطين النظام الاستعماري هو اللورد « دوفرين » الذي قضى ردها من حياته الدبلوماسية في الهند ثم تركيا واكتسب خبرة في شئون الشرق ، وكان أول بنود البرنامج إلغاء مجلس النواب وإقامة مجلس صوري من بعض الطراير الذين يجيدون التسبيح بحمد ولي النعم ، أما بقية بنود البرنامج فكانت تسعى كلها نحو هدف واحد ، هو تقليص أظافر الشعب المصري حتى لا يفكر يوما في حكم نفسه بنفسه ، وتولى تنفيذ البرنامج أحد تلاميذ دوفرين النجباء واسمه ايفلين بيرنخ الذي صار فيما بعد « لورد كرومر » والذي حكم مصر ٢٣ سنة وكأنها دوقية من دوقيات الاقطاع الانجليزي في العصور الوسطى يتصرف فيها كيف شاء ولا راد لمشيئته ، منطلقا من أفكار أستاذه التي ترى أن الطغيان الذي عشنش في مصر لم يدمر فقط بذور الحرية ولكنه جعل التربة المصرية غير قادرة على انبات هذه البذور ، وأن أمة طال استعبادها تحن بفطرتها الى قبضة « السيد » القوية أكثر من حنينها الى النظام الدسنوري المتراخي بطبيعته ..

وهذه الفكرة كما ترى موهلة في الرجعية وفضلا عن منافاتها للفترة الانسانية السليمة التي تأبى الذل وتأنف من الاستعباد ، فإن الأحداث اللاحقة كشفت زيفها وبطلانها ، وكان قيام ثورة ١٩١٩ هو أكبر معبر عن اصرار المصريين على التخلص من الاستعباد الخارجي ممثلا في الاحتلال ، والداخلي ممثلا في الأسرة العلوية ولم تفلح الاصلاحات المالية والادارية التي أنجزها كرومر ، ولا المكتسبات الحضارية التي تمت على أيدي عباس الثاني وأحمد فؤاد في صرف المصريين عن هدفهم المقدس ، ومنذ ثورة ١٩١٩ وحتى ثورة ١٩٥٢ سلك الكفاح الوطني مسلكين متلازمين هما : الكفاح الوطني والكفاح الدسنوري فأما الكفاح الوطني فموضوعه « الاستقلال » وتخليص البلاد من الاحتلال الانجليزي الذي وقع عام ١٨٨٢ ، وأما الكفاح

الدستورى فموضوعه « نظام الحكم » وهدفه قيام شكل جديد يقوم على مبدأ السيادة للأمة ، ونشوء حياة نيابية ، ويكون الحكم للأغلبية عن طريق وزارة مسئولة أمام البرلمان ، على أن ينتظم هذه المبادئ دستور تقوم بإعداده جمعية تأسيسية منتخبة من الشعب ، وبذلك يكون الدستور عقدا بين الحاكم والمحكومين ، وليس منحة من الحاكم يستردها أو يعيث بها وقتما يشاء .

وكان نشوب ثورة ١٩١٩ سببا فى زعزعة النظام القديم الذى اشتدت فيه وطأة الحماية البريطانية ، وتطلعت أبصار المصريين الى عصر جديد يحمل لهم تباشير الخلاص من قيود الحكم المطلق التى توارثها أبناء محمد على كآبرا عن كابر ، وكان الوفد - بمقتضى الوكالة الشعبية التى حملها من الأمة عشية الثورة ، وبمقتضى الزعامة التاريخية التى استقرت فى شخص سعد زغلول - يرى أنه صاحب الحق الشرعى فى تقرير مصير البلاد ، وتخطيط مستقبلها على ضوء المبادئ والشعارات التى ظهرت ابان الثورة ، واقتنع الانجليز بأن التغيير أصبح أمرا حتميا ، وأن مستقبل مصر بعد الثورة لا يمكن أن يكون استمرارا لما كانت عليه قبلها . . ولكن فى أى اتجاه يسرون ؟ وإلى من يسلمون زمام الأمور ؟ ان تسليم المقاليد الى الوفد معناه تحقيق أهداف الثورة فى « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » ؟ ومعناه ظهور السلطة الشعبية على المسرح السياسى على حساب القصر الذى كان حليفا للاحتلال منذ عهد توفيق . . وانتهت الدبلوماسية البريطانية الى خطة جهنمية تتلخص فى إعادة ترتيب البيت المصرى . . ثم تسليم مفاتيحه الى خصوم الوفد .



وكان تنفيذ هذه الخطة يتطلب إبعاد سعد زغلول عن مصر

لكى تجرى الترتيبات فى غيبته . . حتى اذا عاد وجد البيت مشغولا
بسكان يحملون فى أيديهم عقود تملك قانونية ولكنها غير شرعية . .
فى ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ اعتقل الانجليز سعد زغلول للمرة الثانية
ومعه خمسة من رفاقه ونفوههم الى سيشل ، وبعد شهرين تقريبا
أصدر الانجليز تصريحهم المشهور فى ٢٨ فبراير الذى اعترفوا فيه
باستقلال مصر وانهاء الحماية ، وفى اليوم التالى ألف عبد الخالق
ثروت وزارة مهمتها اعداد الدستور ، وشكلت لجنة من ثلاثين عضوا
برئاسة حسين رشدى لوضع مشروع الدستور . فاستنكر الوفد
عملية اعداد الدستور عن طريق لجنة يختارها الملك ، وشدد سعد
من منفاه هجومه على اللجنة وأسمائها « لجنة الأشقياء » وسارعت
جبهة الأعيان والمتقفين الى تشكيل حزب الأحرار الدستوريين ليكون
الفارس الوحيد فى الملعب الذى غاب عنه أصحابه الشرعيون ، وانضم
أعضاء لجنة الدستور الى هذا الحزب ليقطفوا ثمرته فى الوقت
المناسب . وكان أملهم كبيرا أن يعتمد الملك فؤاد مشروع الدستور
على النحو الذى أرادوه ، ولكن الملك خيب ظنهم وأخذ يعدل ويبدل
ويضيف من المواد ما يرسخ سلطاته المطلقة ، وكان أبشع ما أضافه
المادة « ٣٨ » التى تعطيه حق حل مجلس النواب بصورة مطلقة ودون
قيد أو شرط . . وكانت هذه المادة - وحدها - سببا فى نكبة
الانقلابات الدستورية التى عانتها البلاد فى عهد فؤاد ومن بعده
فاروق . . واستطاع أنصار الحكم المطلق ان يجعلوا من هذه المادة
أداة للعبث بالنظام الدستورى ، وتقريغ النظام النيابى من مضمونه ،
ونقل السلطة من أصحابها الشرعيين الى المتسلطين من أذئاب القصر .

واستقبل الشعب اعلان الدستور بالفتور ، واصدر الوفد
بيانا قال فيه : لقد احتفلت وزارة من قبل باستقلال ٢٨ فبراير ،
فما كنا فى عهده بأكثر استقلالا منا قبله فى عهد الحماية ، واليوم
احتفلت الوزارة بصدور الدستور ، فما نحن بصدوره بأكثر حرية

مما كنا قبله ، وأدلى سعد زغلول بتصريح الى مراسل صحيفة ديلي هيرالد حذر فيه من عواقب السلطة المطلقة للملك ، وقال « اذا كان من الخطر ان توضع سلطة كبيرة فى ايدى الملوك الذين هم بمعزل عن نفوذ أجنبى ، فالخطر من ذلك أعظم وأشد فى بلاد يسود فيها النفوذ الأجنبى ويدعى ان العرش فى سلامته بفضل جنوده ، لهذه القوة التى تركت للملك ستصبح فى الواقع حقوقا فى يد الأجنبى يستعملها لأغراضه ضد مصالح الوطن .

وصبح ما توقعه سعد فى هذا التصريح الجرىء ، وظل التحالف بين القصر والاحتلال عائقا دون تثبيت السلطة الشعبية وترسيخ النظام الدستورى .



وأعلن دستور ١٩٢٣ ممسوخا مشوها على الصورة التى أرادها الملك رغم أنف الأحرار الدستوريين ، حتى اذا عاد سعد الى أرض الوطن فى ١٧ سبتمبر ١٩٢٣ استقبلته الأمة استقبالا الأبطال الفاتحين برغم الملك والانجليز . وعندما أجريت أول انتخابات عامة فى ١٢ يناير ١٩٢٤ حدثت المفاجأة التى لم يتوقعها أحد ، فقد اكتسح الوفد خصومه فنال ١٩٥ مقعدا . بينما حصل الأحرار الدستوريون على ستة مقاعد ، وحصل الحزب الوطنى على أربعة مقاعد فقط ، وفاز مرشح الوفد على رئيس الوزراء يحيى ابراهيم .

لقد حجب الشعب المصرى ثقته عن الأعيان والمثقفين والمحافظين ومنحها لسعد ورفاقه . . لأن الأمم - بطبعها - تحس بمن يحبها فتستجيب له وتلقى بثقتها بين يديه ، وتحس بمن لا يحبها الحب الصادق فتصرف عنه . . وفى ذلك عبرة لمن يريد أن يعتبر .

القاضي النزيه

كان يحيى ابراهيم باشا من جيل الساسة المصريين الذين صعدوا الى القمة - فى مطلع هذا القرن - عن طريق المحاماة والقضاء مثل مصطفى كامل وسعد زغلول وعبد العزيز فهمى ، وكانت مدرسة الحقوق آنذاك معمل تفريخ للقادة ورجال السياسة والحكم ، وقد ولد يحيى ابراهيم فى احدى قرى بنى سويف ، وبعد تخرجه فى الحقوق تدرج فى سلك القضاء حتى صار رئيسا لمحكمة الاستئناف .

ويبدو أنه كان ذا ثقافة موسوعية - وكانت الثقافة صفة شائعة فى رجال ذلك العصر - ورفوف مكتبته تضم سفرا ضخما صدر فى ١٨٩٣ ويحتوى على فصول فى شتى ألوان المعرفة من الأدب والتاريخ والفقه ، الى النوادر المنتقاة من عيون التراث من تأليف (حضرة يحيى أفندى ابراهيم - نائب قاض بمحكمة الاستئناف) والظاهر أن هذه الخلفية الثقافية كانت من بين مسوغات تعيينه وزيرا للمعارف فى وزارة يوسف وهبه باشا التى شكلت فى أعقاب ثورة ١٩١٩ .

ولكن من السذاجة اعتبار الثقافة مبررا كافيا لاختيار الوزراء ، والصحيح أن يحيى ابراهيم كان يتصدر قائمة وزراء « القصر » مثل توفيق نسيم ومحمد سعيد وأحمد زيور وغيرهم . ولهذا السبب وحده كلفه الملك أحمد فؤاد بتشكيل وزارة ادارية فى مارس ١٩٢٣ لتسيير شئون الدولة بعد أن بقيت البلاد شهرا بلا وزارة بعد استقالة توفيق نسيم ، وتصور الملك أن يحيى ابراهيم سيكون طوع بنانه ووافق الانجليز على ذلك لأن الرجل (كان حصانا أسود مجهولا سواء من رأى العام أو دار المندوب السامى ، وأهم مميزاته أنه لم يكن شخصية معروفة أو سياسيا حزبيا) على حد تعبير اللورد لويد .

وما ان تولى يحيى ابراهيم رئاسة الوزارة حتى حدث التطور المدهش فى شخصيته ، وتبين انه لم يكن ذلك الحمل الوديع كما ظن الملك والانجليز ، واذا به يتمسك باعلان الدستور باعتباره « الدواء الحاسم الذى دعت اليه الأمة ، وفيه تتمثل ارادة الشعب وبه تصان سيادة الأمة وتحترم جميع الحقوق » وخضع الملك لاصرار رئيس الوزراء على اعلان الدستور ، واستجاب الانجليز لمطالبة فى اعداد المناخ الصالح للانتقال بالبلاد الى المرحلة الدستورية ، فصدرت عدة قرارات تاريخية منها الغاء الأحكام العرفية ، والافراج عن زعيم الأمة سعد زغلول وعودته من منفاه فى سيشل ، والاعداد لاجراء أول انتخابات شعبية فى تاريخ مصر الحديث .

ولا يزال بعض الباحثين التاريخيين - كالدكتور يونان لبيب رزق - فى دهشة من هذه الانجازات التى حققتها الوزارة الابراهيمية ، ويرى أنها لم تكن متوقعة منه بحال من الأحوال ، ولم تتم بسهولة وانما لقيت فى طريقها كثيرا من العقبات والأزمات

.. ومع ذلك فكل انجازات يحيى ابراهيم تتضاءل أمام انجازة الأعظم وهو اجراء انتخابات نزيهة ألقت به خارج الحكم ، فدخل التاريخ من أوسع أبوابه .

وكان نجاح الوفد بأغلبية ساحقة فى أول انتخابات شعبية حرة ، من الظواهر التى حيرت المعلقين ونقاد التاريخ ، وكان قادة الوفد متعبين مرهقين ، فهم بين خارج من السجن أو عائد من المنفى ، ومع ذلك حصل الوفد على ٩٠٪ من مقاعد أول مجلس نواب فى تاريخ مصر .. فكيف تسنى له هذا التأييد الشعبى الكاسح .



المؤرخ عبد الرحمن الرافعى يعزو ذلك الى شخصية سعد زغلول « وزعامته للأمة والمنزلة التى نالها فى نفوس المصريين ، فقد تركزت فيه الثورة لأنه كان زعيمها ، وكان نفية مرتين مما زاد الشعب تعلقا به والتفافا حوله » .. وتلك شهادة حق من أحد خصوم الوفد الشرفاء فالشعوب بحسبها المرهف تعرف أين تضع ثققتها .. ومتى تحجبها . ولذلك ظلت صفة « الشعبية » لصيقة بالوفد منذ نشأته وعلى مدى تاريخه الطويل ، حتى الوزارات التى كان يؤلفها كانت تقترن بصفة « الشعبية » وكان الارتباط بين الوفد والشعب هو الجبل السرى الذى كتب للوفد البقاء بينما توارت شמוש وتهافت عروش . وظل الوفد أمينا على ثقة الجماهير به حتى فى أكثر الظروف اغراء بالانحياز الى السلطة .

في خطاب التكليف الذي بعث به الملك فؤاد الى سعد زغلول
لتشكيل الوزارة ، عز على الملك الذي تربى في أحضان الحكم
المطلق ان يعترف بالأساس الدستوري الذي قامت عليه حكومة
الشعب ، فتجاهل متعمدا الاشارة الى ارادة الأمة التي فتحت
الأبواب أمام الفلاح ابن الفلاح ليصبح رئيسا للوزراء . . ولم
ينسكت سعد زغلول عن هذا الاغفال المتعمد ، وبكل ما يختزنه
الفلاح المصري من عناد وكبرياء رد سعد زغلول على خطاب التكليف
بان حكومته انما جاءت بناء على ثقة الأمة ونوابها بشخصه
الضعيف .

ولم يكن سعد زغلول ضعيفا . . ولا يمكن ان يكون ضعيفا
من يحظى بثقة الشعب .

أول انتخابات مصرية

من حسن حظ الحياة النيابية المصرية انها بدأت بداية نظيفة تبشر بالأمل وتدعو الى الثقة بالنظام البرلماني ، وشهدت مصر في مطلع عام ١٩٢٤ أول انتخابات برلمانية في تاريخها في جو مشبع بالحرية والنزاهة ، وفي مناخ صحي خال من الضغط والاكراه ، وببعد عن التدخل أو التلاعب أو التزوير سواء من جانب الحكومة التي أشرفت على الانتخابات ، أو من جانب القصر الملكي وكر الاتوقراطية العتيد ووريث التقاليد الاستبدادية التي حكمت مصر منذ القدم ، وقبيل اجراء الانتخابات سادت الحياة السياسية المصرية روح جديدة ، ورغبة صادقة في احترام ارادة الناخبين كي يختاروا ممثليهم في أول مجلس نيابي على الوجه الذي يريده الشعب •• وليس على النمط الذي يريده الحاكم •

كان رئيس الوزراء - يحيى ابراهيم باشا - قد نجح في استصدار الدستور - فجأة - وفي وقت خبا فيه الامل في صدوره فكانت تلك أولى انجازات هذا الرجل اللغز الذي كان يوصف تارة بأنه أداة طيعة في يد القصر ، بينما كان الانجليز يرون فيه مجرد رئيس لوزارة ادارية مهمتها تصريف الامور لحين العشور

على الرجل القوى الذى يخرج البلاد من ورطتها ، ولكن لم يلبث يحيى ابراهيم وهو مستشار سابق ان اثبت للجميع انه ليس الرجل الذى تصوره وكما يصفه اللورد لويد بقوله : « ان يحيى باشا كان حصانا أسود مجهولا سواء من جانب الرأى العام أو دار المندوب السامى ، وكانت أهم ميزاته أنه لم يكن شخصية معروفة أو سياسيا حزبيا ، ومن ثم فانه لم تكن هناك أى ضغائن شخصية يمكن ان تقيد حركته » ، وقد استغل الرجل هذه الميزة فاعلن أنه غير قانع بمجرد ادارة الاعمال ، ولكنه ينوى اعلان الدستور ومعه قانون الانتخابات •

وبر الرجل بوعده •• وكشف عن عظمة رجل القضاء عندما يجلس على منصة الحكم ، ويسرى الرافعى المؤرخ قصة اعلان الدستور عندما ذهب رئيس الوزراء الى قصر عابدين مساء يوم ١٩ ابريل ١٩٢٣ وابلغ الملك فؤاد ان مصلحة البلاد العليا تقتضى امضاء الدستور الليلة •• ؟ فقبل الملك وأرسل يستدعى الوزراء الذين مضوا على عجل الى القصر وهم يجهلون سبب استدعائهم • فلما مثلوا امام الملك - وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة - قدم اليه يحيى ابراهيم نص الدستور فوق عليه وتلاه الوزراء جميعا •• وبعدها صدرت الاوامر الى جميع القلاع والطوابى وعواصم الاقاليم باطلاق المدافع ابتهاجا بالحدث التاريخى ••



وعقب اعلان الدستور بدأت عملية تهيئة المناخ الديمقراطى لاجراء الانتخابات العامة ، فألغيت الاحكام العرفية ، وبدأت سلسلة من القرارات للافراج عن المعتقلين السياسيين الذين كانوا رهن السجون والمعتقلات منذ احداث ثورة ١٩١٩ • فتم الافراج

عن أقطاب الوفد المعتقلين في سيشل : مصطفى بك النحاس ،
وفتح الله باشا بركات والاستاذ مكرم عبيد وعاطف بك النحاس ،
وفتح الله باشا بركات والاستاذ مكرم عبيد وعاطف بك بركات
وسينوت حنا بك ، وافرجت السلطات العسكرية عن أعضاء هيئة
الوفد المعتقلين في مصر : السيد حسين القصبى ، وفخرى بك
عبد النور ، والاميرالاي محمود حلمى بك ، ونجيب أفندى الغرابلى
وراغب أفندى اسكندر ، واطلق سراح زعماء الوفد المحكوم عليهم
بالسجن في مصر : حمد الباسل باشا ، ومرقص حنا ، والاستاذ
ويصا واصف ، وواصف بطرس غالى ، وعلوى بك الجزار ، ومراد
بك الشريعى ، وجورج خياط بك ، كما صدر قرار بالعفو عن
٢٥٠ شخصا كانوا يقضون أحكاما بالسجن ابان أحداث الثورة ،
وزال الخطر الذى كان مفروضا على بعض السياسيين المنفيين
بالخارج .

وفى ١٧ سبتمبر ١٩٢٣ عاد الزعيم سعد زغلول الى أرض
الوطن من منفاه في مالطة فاستقبلته الامة استقبالا اسطوريا ،
وبدأت الاستعدادات للانتخابات العامة ، ودب النشاط السياسى
فى أنحاء البلاد ، وقسمت مصر الى ٢١٤ دائرة انتخابية تقدمت
لها أحزاب : الوفد والاحرار الدستوريون والحزب الوطنى
(حزب مصطفى كامل) واهتمت الامة بكل طوائفها بالانتخابات
اهتماما عظيما دل على ارتقاء النضج السياسى بين أفراد الشعب ،
وتتبع الناس فى لهفة اجراءات التمهيد للانتخابات ، وتآلفت
اللجان الشعبية فى مختلف المدن والقرى ، وأعلن سعد زغلول
أنه سيخوض الانتخابات معتمدا على ثقة الامة به وبحزبه ، وكانت
الدلائل المبدئية تشير الى أن الوفد سينال الأغلبية الساحقة ،
فشخصية سعد وزعامته سعد وقد تركزت فيه الثورة ، ولأن نفيه
مرتقن زاد الشعب تعلقا به ، والتفافا حوله ، وتلبية لندائه ..

وصدق يحيى ابراهيم فى العهد الذى قطعه على نفسه بان
تجرى الانتخابات فى جو من الحيطة والنزاهة ، ولم يسمح لأحد
من رجال الادارة بالتدخل فى ارادة الناخبين ، وليس ادل على ذلك
من سقوط رئيس الوزراء فى دائرة منيا القمح امام مرشح الوفد
أحمد افندى مرعى (والد المهندس سيد مرعى) ، لقد سقط رئيس
الوزراء ولكنه ارتفع الى مرتبة الرجال العظام فى تاريخ مصر
السياسى .

واكتسح الوفد منافسيه فى هذه الانتخابات الحرة ، فحصل
مرشحوه على ١٥١ مقعدا (بنسبة ٩٠٪) بينما سقط اقطاب
الاحرار الدستوريين وفى طليعتهم عبد العزيز فهمى باشا
واسماعيل صدقى باشا ، ولم ينجح منهم سوى سبعة نواب ، وكان
الوحيد الذى نجح من اقطابهم محمد باشا محمود ، بينما كان
نصيب مرشحي الحزب الوطنى أربعة مقاعد فقط من بينهم
عبد الرحمن الرافعى الذى فاز على منافسه الوفدى بفارق صوت
واحد فقط .



واثبتت أول انتخابات برلمانية أجريت فى مصر منذ ٦٣
سنة أن النضج السياسى عند المصريين اكبر مما يظن الذين يحلو
لهم تجريح النظام النيابى المصرى واتهامه بالعجز والقصور ..
والتزوير .

ثوب فضفاض

كان الغاء دستور ١٩٢٣ بأمر ملكي ، نكسة حادة اصابته النظام الديمقراطي في مقتل ، وزعزعت ثقة الناس بجدوى الحياة النيابية ، وكان الغاء الدستور دليلا واضحا على ان الملك فؤاد ضاق ذرعا بالقيود الدستورية التي انتزعت جانبا من سلطاته لحساب الشعب . وكان من الصعب على من شب في احضان الحكم المطلق ان يقبل معه شريكا . . . وكان الشريك - بنص الدستور - هم نواب الأمة ومجلس وزرائها الذي آلت اليه مقاليد السلطة التنفيذية ، ولم يكن مجلس الوزراء مسئولاً امام الملك ، ولكن أمام البرلمان ، ومعنى ذلك أن القصر - عش الاتواقراطية العتيد - فقد كثيرا من جاهه ونفوذه .

ولم يكن الملك فؤاد مسئولاً - وحده - عن هذه الردة ، وانما كان هناك بعض المشتغلين بالسياسة ضاقوا هم ايضا بالدستور لانه لم يحقق احلامهم في الحكم بالرغم من ثرائهم العريض ، وثقافتهم العالية ، فتحولوا الى المعسكر المعادي للدستور وتحالفوا مع الملك في كل حرية رجعية دبرها لتعطيل الحياة النيابية ، وكانوا هم أداة القصر في تشكيل الوزارات الانقلابية

التي كانت تتولى الحكم دون تأييد من الأمة ، ودون سند شرعى من الدستور . أولئك هم أقطاب حزب الأحرار الدستوريين الذين كان الشعب ينأى عنهم فى كل انتخابات حرة - وينتخب الوفد - فامتلات نفوسهم حقدا على الوفد . . . وعلى الشعب . . . وعلى الانتخابات . . . وعلى الدستور ، واتهموا الأمة بالجهل والقصور . وقال زعيمهم فى خطبة شهيرة (انه كان يعتقد ان الدستور مناسب لمصر ، ولكن العمل أظهر أنه توب فضااض) ، فلما ألغى الملك الدستور شعروا بفداحة الهاوية التي ساعدوا فى حفرها . . . وبدأوا فى اقامة الجسور مع الوفد لمواجهة الكارثة التي تهدد الحياة السياسية جميعا .



وكان الدستور الذى أصدره الملك مسخا مشوها جامعا لكل المبادئ الرجعية المعروفة فى نظم الحكم الاستبدادى ، فسلب الحقوق التي كانت تتمتع بها الأمة فى ظل الدستور الملغى ، وقيد المسئولية الوزارية - أى حق مجلس النواب فى سحب الثقة من الحكومة - بقيود تجعل من استعمال هذا الحق ضربا من المحال ، وأعطى للملك حق اهمال أى قانون يقره البرلمان ، وجعل للملك وحده حق تعيين شيخ الأزهر وغيره من الرؤساء الدينيين بعد أن كان دستور ١٩٢٣ يجمال هذا الحق « بواسطة رئيس مجلس الوزراء » ، وحرم الدستور الجديد على مجلس البرلمان حق التشريع فى المسائل المالية عامة وهى المسائل التي لا تخلو منها المرافق العامة ، فلا يستطيع البرلمان اقتراح فتح اعتماد لأى شأن ، ولا فرض ضريبة أو تعديلها ، مع أن هذه الحقوق كانت من أوليات القواعد العامة التي أسس عليها النظام البرلماني الذى أعطى للشعوب حق الاشراف على أموالها ، على أن

أغرب ما تضمنه دستور صدقي - في ظل قانون الانتخاب الجديد - هو منع الترشيح لعضوية البرلمان عن كل من يزاول إحدى المهن الحرة في بلد غير مدينة القاهرة .. ومعنى ذلك حرمان الأطباء والمحامين والمهندسين والمحاسبين والتجار المقيمين في الأقاليم من التمثيل النيابي ، بحجة أن عضويتهم ستشغلهم عن ممارسة أعمالهم .. أو أن أعمالهم ستتحول بينهم وبين التفرغ للعمل البرلماني .. !!

وبعد أن حجب قانون صدقي عن مثقفي الأمة حق المشاركة في العمل البرلماني ، استدار نحو العمال والفلاحين والطلاب ليضع أمامهم العراقيل فقرر العودة إلى نظام الانتخاب على درجتين ، (بمعنى أن يشترك كل خمسين مواطناً في انتخاب واحد ينوب عنهم في اختيار أعضاء البرلمان) واشترط في سن الناخب أن تكون ٢٥ سنة بعد أن كانت ٢١ سنة ، واشترط في المنسوب أن يكون مالكا لأموال ثابتة مربوط عليها ضريبة عقارية ، أو ساكناً في منزل لا يقل إيجاره السنوي عن ١٢ جنيهاً ، أو حائزاً على شهادة دراسية ابتدائية أو شهادة تماثلها .

وكان الهدف من كل هذه الشروط التعسفية هو العمل على استحالة عودة الوفد إلى الحكم ، وحرمان جماهيره العريضة في الأقاليم ، وهم فقراء العمال والفلاحين ، المهنيون والطلاب ، من حق التصويت ، على أمل أن تسفر عملية الانتخاب عن تشكيل مجلس نيابي « مستأنس » لا يملك من سلطات الحكم سوى البصم والدعاء لولي النعم بطول العمر .

وكان من الطبيعي أن يفكر صدقي في تشكيل حزب (ملاكي) انسياقاً وراء الموضة الدستورية السائدة . وقرر بالفعل إنشاء حزب جديد أسماه حزب (الشعب) .. !! ولم يخجل الرجل من

أن يصدر أوامره إلى المديرين لحشد عمد القرى وإرغامهم على عضوية الحزب ودفع الاشتراك قسرا . . وأوجب على أعوان الحزب من طلاب الحاجات والمصالح أن يحرروا كشوفاً بأسماء الأشخاص الذين يتوسمون فيهم استعداداً للعضوية مقابل منافع شخصية تتحقق لهم فور ملئهم استمارة العضوية . وكان رجل الإدارة النشط الذي يستحق الرضا والترقية ، هو الذي يستطيع حشد أكبر عدد من الأعضاء الانتهازيين ولكن يكون للحزب الجديد جهاز كامل منبث في جميع أنحاء القطر ، صدرت الأوامر بتأليف لجان لحزب الشعب في كل مركز من المراكز على غرار لجان الوفد .

وإزاء هذا العبث بالحياة النيابية هب الوفد لمقاومة صدقى والملك ودستورهما . وانتقاد النظام البرلماني من الخطر الداهم .

مهزلة انتخابية

كان اسماعيل صدقي باشا من أشد الحكام مقتا لشيء اسمه سلطة الشعب ، ومن هنا كان بغضه للنظام البرلماني وتحقيره للمبادئ الديمقراطية التي تعطى للشعب حق المشاركة في الحكم عن طريق المجالس النيابية ، وكان معروفا عنه الاستهتار بالشعب والاستهزاء بقدرته على اختيار ممثليه . فقد كان يعتقد أن عبقريته الفردية تفوق مجموع الكفاءات التي يختارها الشعب ، ومنذ بدأت المرحلة الدستورية في مصر عام ١٩٢٤ ، وهو يتربص بالدستور وبالبرلمان وبالحياء النيابية وينتهاز الفرصة للانقضاض عليها جميعا . وفي عام ١٩٣٠ جاء به الملك فؤاد الى الحكم ليهدم المعبد على رؤوس أصحابه ، فألغى دستور ١٩٢٣ وفضل دستورا جديدا ينقص من حقوق الشعب ويركز السلطات في يد السلطة التنفيذية التي يمثلها الملك وكبير وزرائه .

وأدرك الوفد - وهو في المعارضة - مخاطر هذه المؤامرة الرجعية التي تعنى عودة البلاد الى الحكم المطلق ، ورأى ان الدفاع عن الحقوق الديمقراطية يتطلب اشراك الجماهير في المعركة وتكتيل صفوف المعارضة في جبهة واحدة . واستجاب الاحرار

الدستوريون - أكبر الاحزاب يعد الوفد - لنداء المقاومة ، بينما رفض الحزب الوطنى - حزب مصطفى كامل - المشاركة فى جبهة المعارضة وانحاز الى جانب القصر والحكومة فى مؤامرة اجهاض النظام الدستورى . راغبتبط صدقى باشا بقرار الحزب الوطنى . وزعم أن نظامه اذا كان يلقي معارضة حزبين (!!) فانه يحظى بتأييد ثلاثة أحزاب هى : الحزب الوطنى وحزب الاتحاد (حزب الملك فؤاد) وحزب (الشعب) الذى اصطنعه صدقى ليخوض به معركة الانتخابات على أسس دستوره الرجعى .



وبدأت المعارضة الوطنية تستعد للمعركة الفاصلة بكل ما أوتيت من قوة غير هيابة من قوى البطش التى أعدها صدقى ، واصدرت جبهة المعارضة ميثاقا قوميا اسمته (عهد الله والوطن) اعلنت فيه عزم الامة على مقاطعة انتخابات صدقى والعمل على اعادة النظام الدستورى ، واعلن الوفد والاحرار ، أنهم يقفون بكل قوة واخلاص فى وجه الدستور الذى تحاول الحكومة بكل وسائل الارهاب ان تفرضه على البلاد مزدورية كل عدل أو قانون ، ويكررون أنهم متفقون على مقاطعة الانتخابات التى تجرى فى ظل هذا الدستور مقاطعة لا رجعة فيها ، وأنهم يرون مقاطعتها فرضا على كل مصرى مخلص لبلاده ، ولا يرضون ان يكون لمصر نظام للحكم غير ما ارتضته بدستور ١٩٢٣ ، وهم فى موقفهم هذا صسادرون عن رأى الامة ، واثقون بتأييدها لهم ، ليعود هذا النظام كاملا غير منقوص ، وليعود الحكم النيابى بكل تقاليده الصحيحة ، حتى يتمتع المصريون جميعا بنعمة الدستور وما يكفله للجميع من حرية وعدالة ومساواة .

وصيـدر الميثاق حاملا توقيع أقطاب الحزبين يتقدمهم مصطفى النحاس باشا زعيم الوفد ، ومحمد محمود باشا رئيس الاحرار الدستوريين ، وكان لهذا الميثاق وقع الصاعقة على النظام بالرغم مما كانت تشييعه الحكومة عن قوتها ، وحظر صدقي على الصحف نشر الميثاق ، وصودرت الصحف التي همت بنشره ، ومع ذلك فقد أخذ البيان طريقه الى الجماهير ، فلقى التأييد التام من كل المنظمات والهيئات والنقابات المهنية والعمالية والاعيان والتجار ، وبدأ واضحا ان الرأي العام المصرى يساند المعارضة فى معركتها المقدسة ضد الطغيان والرجعية . ودفع هذا التأييد جبهة المعارضة الى مزيد من الحركة لتنسيق كفاحها ، وشكلت لجنة اتصال من الوفد والاحرار لتنظيم حركة الجماهير ، وهنا طرأت فكرة نقل المعركة من مجال الخطب وكتابة المقالات الى الشارع ، حتى تتحمل الجماهير مسئوليتها فى الدفاع عن حقوقها التي يتربص بها المستبدون ، وكان هذا تطورا خطيرا اعاد الى الازهان ذكرى الانتفاضة الجماهيرية اثناء ثورة ١٩١٩ ، وما كشفت عنه من وعى وطنى تمثل فى مقاطعة « لجنة ملر » ثم مقاطعة البضائع والمنتجات البريطانية .

ويروى الدكتور هيكـل باشا فى مذكراته قصة هذا التطور الدرامى فى حركة المعارضة حين وجدت ان دعوة الشعب للمقاومة والتضحية لا يمكن ان تثمر ثمرة ما ، اذا لم يتقدم الزعماء صفوف الشعب فى هذه المقاومة ، ولم يتعرضوا تعرض الشعب للتضحية . . . أما ان اقتضرت الدعوة على عبارات تنشر فى الصحف - بالغة ما بلغت قوتها وصدق تعبيرها عما يعانىـه الشعب فى حرите وفى حقوق وطنه - فلن يكون من أثرها الا أن تثير اعجاب المثقفين ببلاغة اسلوبها وقوة عبارتها ، لكنها لا تحرك الشعب الى عمل ايجابى عنيف .

منتج .

وتقدم الزعماء الضفوف ٠٠ وجرت سلسلة من الصدامات الدامية بين الجماهير والسلطة في المدن التي زارها زعماء المعارضة، وتساقط القتلى والجرحى بالعشرات ، دون ان يؤثر ذلك في اصرار صدقي باشا على تنفيذ خطته بالحديد والنار ، وسيطرت على روحه نزعة العناد ، فلم يتراجع عن المضي في اجراء مهزلة الانتخابات ٠٠ وطلبت جبهة المعارضة من العمدة والمشايخ أن يستقيلوا من وظائفهم احتجاجا على تعسف الحكومة ، فانهالت الاستقالات حتى بلغت في مجموعها حوالي ٤٠٠ استقالة ، تصدى لها صدقي ليحافظ على هيبة جهاز الادارة الذي سيدير المهزلة الانتخابية ، وبعث الى القرى التي استقال عمدها ومشايخها بحشود من رجال البوليس والادارة لارغام العمدة على سحب استقالاتهم ، ولكنهم اصرروا على موقفهم ، فأمر صدقي بتقديمهم الى المحاكمة بتهمة الاخلال بالواجب وعوقبوا بالغرامات الفادحة .

وفي يوم الانتخابات ضرب الشعب المصري أروع أمثلة الكفاح من أجل الديمقراطية ، وقاطعت الأمة انتخابات صدقي مقاطعة تامة ، حتى اقفرت الشوارع الكبرى بالعاصمة ، وذكرت السيدة فاطمة اليوسف انها كانت تطوف على دوائر الانتخابات فتراها خاوية ، والحوانيت القريبة منها مغلقة ، ووصف الرافعي حركة المقاطعة بانها كانت رائعة ، ولا تقل في روعتها واتساع مداها عن مقاطعة الامة للجنة ملنر عام ١٩١٩ ، بل ان توضحيات البلاد من القتلى والجرحى في هذه الانتخابات كانت أعظم واكبر ، ففي يوم الانتخابات دخل العمال المعركة ، فأضرب رجال عنابر بولاق والورش الاميرية ، وتظاهروا احتجاجا على المهزلة الانتخابية، وقامت مظاهرات أخرى في المدن وتصدت قوات الحكومة لها بالعنف الشديد ، حتى بلغ مجموع القتلى في ذلك اليوم المشنوم مائة قتيل و ١٧٥ جريحا .

ومع ذلك لم يخجل اسماعيل صدقي باشا من أن يصدر في ختام هذه المهزلة بيانا أعلن فيه أن الانتخابات تمت في همدوء وسكينة (!!) وأن الأمة اشتركت فيها بأكثر مما اشتركت في أي انتخابات سابقة ، وأن نسبة الذين أدلوا بأصواتهم تزيد على ٦٧٪ من مجموع الناخبين ، وكان الناس يقرأون هذه التصريحات الكاذبة فيضحكون ، ويستخرون من صاحبها .. ويضربون كفا بكف .. ويقولون ان الذين اختشوا قد ماتوا ..

اجرام فى اجرام

كانت وزارة اسماعيل صدقى باشا (من ١٩ يونيه ١٩٣٠ الى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣) نكبة على الوطن من كل ناحية ، كانت نكبة سياسية واجتماعية واخلاقية لأن الحكومة اباحت لنفسها سلطة انتهاك القيم والقوانين والعبث بالحريات الأساسية التى كفلتها الشرائع والدساتير ، لقد ظن صدقى بعد أن ألغى الدستور وطبخ الانتخابات أنه أصبح سيد الموقف . وان المسرح قد خلا له ، فركب أعلى خيوله واخذ يصول ويجول غير عابئ بسلطة الشعب ، واطلق يده الادارة للبطش بخصومه ، وكانت جرائم الضرب والتعذيب والتلفيق والفصل تجرى جهارا نهارا ، وتحولت الادارة الى أداة انتقام من خصوم الحكومة ، حتى وقر فى اذهان الحكام الاداريين ان هذه هى مهمتهم الاساسية ، وان هذه الوسيلة المقوتة هى السبيل الى الترقى واعتلائهم المناصب الممتازة .

وبلغت حكومة صدقى أدنى مستوياتها الأخلاقية عندما حالت بين القضاء وممارسة سلطاته فى وقف هذا الطوفان المدمر ، وجرات الحكومة اعوانها من رجال الادارة على الاستهانة بسلطة القضاء ، مثلما حدث فى المنيا عندما كان وكيل النائب العام يحقق

فى شكوى قدمها بعض الاهالى ضد رجال الادارة ، فمنعه مأمور ضبط المديرية من الاستمرار فى التحقيق ، وحال بينه وبين سؤال الاشخاص المطلوب استجوابهم ، واثار هذا الافتئات الصارخ على السلطة القضائية ضجة كبيرة داخل حصن العدالة بلغت ذروتها فى حادث البدارى عندما قام مأمور مركز البدارى بتعذيب بعض بعض الاهالى مما دعا اثنين منهم الى قتله فى مارس ١٩٣٢ ، فلما حوكم امام محكمة جنايات اسبوط حكمت بالاعدام على الاول ، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على الثانى ، ولكنهما طعنا فى الحكم أمام محكمة النقض والابرار ، وجاء حكم هذه المحكمة برئاسة عبد العزيز فهمى باشا وثيقة ادانة لجهاز الادارة ، واثبتت المحكمة فى حكمها التاريخى ان رجال البوليس اتوا من المنكرات ما وصفته المحكمة بأنه (اجرام فى اجرام) ، وان من وقائعها ما هو جناية هتك عرض يعاقب عليها القانون بالأشغال الشاقة ، وأنها من اشدد المخازى اثاره للنفس واهتياجا لها ودفعها بها الى الانتقام ، ورات أن ما جعلته محكمة الجنايات موجبا لاستعمال الرأفة ، ومع ان محكمة النقض رفضت الطعن لانها لا تملك - قانونا - تخفيف العقوبة ، الا أنها لفتت فى حكمها نظر ولاة الأمور الى وجوب تدارك هذا الخطأ القضائى .

واثار حكم محكمة النقض والابرار ردود فعل عنيفة فى الاوساط القضائية فاضطرت وزارة العدل الى وقف تنفيذ حكم الاعدام على المتهم الاول ، واتخذت الاجراءات القانونية لتخفيف الحكم الى الأشغال الشاقة المؤبدة ، وتخفيف الحكم على المتهم الثانى من الأشغال الشاقة المؤبدة الى الأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة ، وأمرت الوزارة بالتحقيق فى حوادث التعذيب التى اشبارت اليها محكمة النقض ، وفى حوادث تعذيب أخرى وقعت من رجال البوليس والادارة فى بلاد اخرى ، وقطعت النيابة فى تحقيقها شوطا بعيدا

ثبت فيه اذانة بعض رجال البوليس ، وانتهت التحقيقات بعد زوال حكم صدقى ، وصدرت الأحكام على من ثبتت عليه تهمة التعذيب ، فحكم على ضابط برتبة ملازم بالحبس مع الشغل لمدة سنة ، وعلى ملازم آخر بالحبس سنتين ، وعلى كونستابل بالحبس شهرين ، وحوكم الجندى الذى قتل احد الناهبين فى حلوان فحكم عليه بالاشغال الشاقة ١٥ سنة .

وكان من الطبيعى ان تؤدي هذه الفضائح الى زعزعة اركان حكومة صدقى التى قامت على البطش والتنكيل بالخصوم ، وقدم كل من على ماهر باشا وزير المعارف وعبد الفتاح يحيى باشا وزير الحقانية (العدل) استقالته من الوزارة لما وجدوا من رئيس الحكومة عزما على عرقلة التحقيق فى حوادث الاعتداء على حريات المواطنين ، ولتطويق هذه الحركة الاحتجاجية قدم صدقى باشا استقالة وزارته الى الملك فؤاد فى ٤ يناير ١٩٢٣ ، ولكن الملك عهد اليه باعادة تشكيل الوزارة بعد استبعاد هذين الوزيرين وكان تمسك الملك فؤاد بإسماعيل صدقى دلالة على اصرار القصر على الاستمرار فى سياسة قمع الشعب .

وأدرك رجال الادارة والبوليس بعد هذا التشكيل انهم مؤيدون من السراى والحكومة ، وان معناه هو تشجيع نزعة البطش والعسف فى تصرفاتهم ، واطلاق يدهم فى التنكيل بالاهلين ، غير مراعين حرمة للعدل والقوانين ، فتمادوا فى خطتهم مطمئنين الى أن الوزارة تحميهم وتسندهم ، وان السراى ساكنة عن هذا النوع من الطغيان ، ولا تعترض على هذا البغى والعدوان ، وقد وقع فى بلدة (الحصاينة) مركز السنبلادين حادث تنكيل جديد يوم ١١ فبراير ١٩٢٣ دل على تغلغل هذه الروح فى نفوس الموظفين الاداريين مما كان له وقع أليم فى النفوس .

ويتلخص حادث الحصاينة في ان الادارة عطلت وابور طحين يملكه الشيخ طلبه صقر من أعيان الوفد في هذه الجهة ، وقام لذلك نزاع بينه وبين الادارة رفع أمره الى القضاء اذ اقيمت عليه دعوى مخالفة امام محكمة السنبلالوين .

وفى يوم نظر القضية هبطت على القرية قوة من رجال البوليس والادارة للتفتيش على الوابور فاعترضها بعض أقارب صاحب الوابور طالبين بقاء الحال على ما هو عليه الى أن يفصل القضاء في دعوى المخالفة ، ولم يقتنع رجال الادارة بهذا المنطق مما كان سببا في قيام مشاحنة بين الفريقين ، وعندئذ أمر مأمور المركز رجاله بإطلاق النار على الأهالي فقتل منهم ثلاثة ، أحدهم شفيق الشيخ طلبه صقر ، كما قتل اثنان من جنود الشرطة ، وجرح عدد كبير من الأهالي ، واستولى الذعر على الباقين ولم يقف عسف الادارة عند هذا الحد فارسلت الداخلية تجريدة من ٤٠٠ جندي حاصرت البلدة وقبضت على كثير من أهلها وزجت بهم في السجون الى ان افرجت عنهم النيابة ، والمدهش في الامر ان قضية المخالفة التي نسبتهما الادارة الى الشيخ طلبه صقر حكم فيها ببراءته ، واثبتت المحكمة في حكمها ان الادارة تجاوزت سلطتها بالأمر الذي أصدرته بإلغاء رخصة الماكينة واقفال الوابور . وان هذا الأمر الإداري باطل .



تلك كانت وزارة اسماعيل صدقي التي وصفها المؤرخ الرافعي بأنها كانت توهم الناس بأنها ألغت الدستور واهدرت ارادة الامة وزيفت الانتخابات لكي تصل الى اصلاح اداة الحكم في البلاد ، ومن سخرية الاقدار ان الحوادث اثبتت ان اداة الحكم قد زادت فسادا في عهدها ، بحيث لم يبق مسوغ للانقلاب الذي تم على يديهما ، وثبت بالبراهين العملية أن الحكومة التي فرضت على

الشعب فرضاً كانت من غير شك أسوأ من أى حكومة اختارها
بمحض ارادته ، فقد اعتساد الموظفون فى عهد صدقي التلفيق
والتزوير فى الأوراق الرسمية ، وكانت عملية الانتخابات التى
اصطنعها مزورة من أولها الى آخرها ، فألف الموظفون الاداريون
التزوير وفساد الضمير ، واعتاد رجال البوليس والجيش التنكيل
بكل معارض للحكومة دون مراعاة للعدل والقانون ، وأبيح لهم
القتل وسفك الدماء فى هذا السبيل .

ومن ناحية أخرى جعلت الوزارة من بنك التسليف الزراعى
أداة لمساعدة أنصارها . واستغلت الأزمة المالية لتمييزهم فى
التسويات والسلف العقارية ، ، والضغط على خصومها
السياسيين ومحاربتهم بسلاح المطالبات المالية لكى تضطربهم تحت
تأثير الخوف من الفقر والفضيحة ، الى الخضوع لسياستها
والانفصال عن المعارضة ، فكان فى ذلك افساد للأخلاق والضمائر
وتعقبت الوزارة خصومها السياسيين فى أرزاقهم لكى تضطربهم
الى الذل والاستكانة والانضمام الى صفها ، ولم تتورع فى هذا
الصدد عن اقفال المحالج والمصانع لأسباب ملفقة للتنكيل
باصحابها وجعلهم عبرة لغيرهم ، وقد استسلم بعض الأعيان لهذا
السلاح الفتاك ، وصمد له آخرون فبرهنوا على صلابة فى العقيدة
ومتانة فى الأخلاق مما يحتاج اليه المجتمع فى بلادنا .

الملك الغلام

مات الملك فؤاد فى ٢٨ ابريل ١٩٣٦ بينما كان ابنه ووريث عرشه الغلام (فاروق) يتلقى العلم فى انجلترا ، وأثارت وفاة الأب فى غيبة الابن كوامن الشجى فى نفوس المصريين الطيبين الذين يهتمون كثيرا بهذه الاعتبار الانسانية ، فلما عاد الغلام (اليتيم) بعد أسبوع من وفاة أبيه ، خرجت الجماهير تستقبله بالبشر والحبور ، وتتغنى باسمه فى الأهازيج والمواويل ، كان فاروق وقتئذ صبيا تجاوز السادسة عشرة بقليل ، يتفجر حيوية وتنبيء ملامحه الوسيمة عن براءة وطهر ، فتوسم الشعب فيه خيرا مأمولا ، وتمنى أن يرى فيه نموذجا مختلفا عن أبيه المستبد الغشوم الذى طالما ضاق بالدستور وما يتضمنه من حقوق للشعب ، وتفنن فى تدبير الانقلابات الدستورية كى لا يتاح للمصريين فرصة الانفراد بحكم أنفسهم .

ولكن الغلام الذى دخل قلوب الناس فى صورة ملاك طاهر ، سرعان ما تحول الى شيطان رجيم ، وما هى الا عشية وضحاها حتى أدار عجلة الدسائس الجهنمية التى خلفها له أبوه فى عابدين ،

فلم تمض بضعة شهور حتى أقال وزارة مصطفى النحاس التي كانت فى الحكم منذ منتصف عام ١٩٣٦ بمقتضى أغلبية شعبية ساحقة ، وتمكنت خلال فترة الوصاية من إبرام المعاهدة التي قصصت أجنحة الاحتلال البريطانى وحددت له مدة لا تزيد على عشرين عاما ، ثم توجت جهادها بإلغاء الامتيازات الأجنبية التي كانت وصمة عار فى جبين كل مصرى ، وجعلت منه مواطنا من الدرجة الثالثة فى قلب بلده .

لقد عاد الصبى من الخارج ليجد فى داخل القصر اخطبوطا متربصا بالدستور وبالوفد وبالحياة البرلمانية ، ولا يرى الخلاص الا فى هدم معبد الديمقراطية كى ينفرد القصر بحكم البلاد عن طريق أحزاب أقلية لا تستند الى التأييد الشعبى ، أو عناصر أوتوقراطية لا تعترف بحقوق الشعب وانما تؤمن بسلطة العرش ، والتفت هذه الخلايا السرطانية حول الملك الغلام واستصدرت منه فى اليوم الأخير من ديسمبر ١٩٣٧ مرسوما بإقالة حكومة النحاس .

وكان أول انقلاب دستورى فى عهد فاروق ..

وقوبل الانقلاب بصمت مريب من جانب الجماهير !! .. لم تقم مظاهرة واحدة تحتج على هذه الجريمة التي اقترفها الملك الغلام فى حق الشعب الذى اختار حكومة النحاس عن طريق أغلبية برلمانية ساحقة .. ولم يرتفع صوت يحذر الملك المخدوع من مغبة الطريق الذى سار فيه !! ..

كانت الجماهير المصرية فى ذلك الوقت واقعة تحت تأثير عملية غسيل مخ تسعى الى اظهار فاروق فى صورة شعبية محببة ، وأخذت الصحف الناطقة بلسان القصر وأحزاب الأقلية تنسج

قصصا ملفقة حول عبقرية فاروق وذكائه الخارق وإنسانيته المفرطة وشعبيته الساحقة ، وبدأ الناس يسمعون عن الجمل الذي هرب من المذبح فلجأ الى قصر عابدين لائذا بحمى الفاروق ! ثم تطورت عملية الاختلاق والفبركة فجعلت من الصبى الجهول عالما متخصصا فى كل فروع العلم والاقتصاد والفن والأدب ، وتحدث عن علمه الذى أذهل العلماء ، وورعه الذى أدهش الفقهاء ، وثقافته التى تفوقت على ثقافة العقاد وطه حسين ولطفى السيد وكان يقود هذه الحملة الدعائية الصحفى اللبنانى الأصل كريم ثابت الذى حذق هذا النوع من تلفيق القصص ونسج الأساطير ، وكان له فضل ادخاله الى الصحافة المصرية ، مما هيا له مكانا مرموقا داخل القصر ، وأصبح من أشد المقربين الى فاروق .

وكان الوفد يرقب هذه الخطة الاعلامية المدبرة بقلق ، وكان يدرك أن الهدف منها رسم صورة مزيفة لفاروق وجعله بطلا قوميا وزعيما شعبيا ، ليسرق الزعامة الحقة من صاحبها مصطفى النحاس الذى كان يتربع على عرش الزعامة الشعبية بلا منازع ، كانت هناك عملية تزييف علنية تمارسها جوقة القصر لخداع الشعب حتى يكفر بالزعامة الوطنية ويلتف حول منارة الفاروق ، دون أن يدركوا أبعاد هذه الجريمة التى أساءت الى النظام الديمقراطى ، وشوهته فى نظر الجماهير ، وقدمت اليه البديل الزائف الذى سرعان ما كشف عن حقيقته ، فتحول الى دكتاتور يعصف بالقيم والقوانين والأخلاق والتقاليد والآداب ، ثم انتهى به المصير الى اغراق نفسه فى مستنقع الانحلال والفجور .. فأضاع نفسه .. وأضاع ملكه ..

ولا يختلف المؤرخون على أن فاروق كان فاسدا .. وجاهلا .. ومغرورا .. وأن فسادَهُ هو الذى عجل به ، ولكن هل كان

ان المعلومات التى توافرت عن طفولة فاروق تؤكد أنه عانى
تعسف أبيه وجبروته وغلظته فى معاملة زوجته الملكة نازلى على
مرأى من ابنها الطفل ، فشب فاروق على كراهية أبيه لدرجة أنه
تلقى نبأ وفاته وهو فى لندن باستخفاف شديد ، ولم يكلف نفسه
النزول عن الحصان الذى كان يمتطيه حين سماعه النبأ ، ومضى
فى مشواره العادى وكأن شيئا لم يقع ، وهو تصرف يكشف عن
شدوذ فى عواطفه ، وخلل فى تكوينه النفسى ، بل نفهم من
شهادة أحمد مرتضى المراغى باشا - آخر وزراء الداخلية فى العهد
الملكى - ان فاروق كان مختل العقل ، ليس على سبيل المجاز ولكن
على وجه التحقيق ، وتكتسب هذه الشهادة قيمتها اذا عرفنا أن
مصدرها احدى شقيقات فاروق - وهى الأميرة فائزة - التى أفضت
بهذه المعلومات فى اطار حديث طويل مع المراغى عن فساد أخيها
الذى فاق كل حد مما يهدد « بالخراب الشامل للبلد والخراب لنا
جميعا » وأكدت فائزة فى حديثها أن أخاها غير طبيعى ، وأنها تعلم
ذلك جيدا .. وكذلك أمها نازلى .. وأن تصرفاته الخاصة نحو
أمها وعائلته تدل على أنه « مختل العقل » .. وكررت فائزة هذه
العبارة مرتين .

واذا صح أن فاروق كان مختل العقل - حقيقة لا مجازا -
فان القصة التى يرويها المراغى فى كتابه (غرائب من عهد فاروق)
يمكن أن تلقى الضوء على تاريخ هذا المرض العقلى الذى أصاب
فاروق وهو فى سن التاسعة عندما أصيب بالحمى الشوكية
النخاعية وأشرف على الهلاك فاستدعى الملك فؤاد طبيبا ايطاليا
شهيرا تولى علاجه حتى شفى ، ولكن الطبيب قبل أن يغادر مصر

أفضى الى الملك فؤاد بسر خطير هو ان اصابة ولي العهد كانت من الشدة بحيث تركت أثرا على خلايا المخ ٠٠ !! وعندما سأله الملك منزعجا : هل معنى ذلك أن قواه العقلية قد تصبح غير مكتملة ؟ أجاب الطبيب فى لهجة مخففة بأن الأمر ربما لا يصل الى هذا الحد اذا لم تحصل مضاعفات ، ولذلك فهو ينصح بوضع الأمير تحت عناية مركزة ولفترة طويلة .

وفى لحظة من لحظات الضعف الانسانى حكى الملك فؤاد هذه القصة لناظر خاصته زكى الابراشى باشا ، وكان فؤاد يعبر عن نكبته فى ولي عهده اذا ترك المرض أثرا على قواه العقلية ، وعندما حاول الابراشى أن يخفف عن ولي النعم أحزانه وينصح بإحاطة ولي العهد بحاشية عاقلة ومخلصة ، أجابه الملك ساخرا :

— حاشية عاقلة ومخلصة يا زكى ٨٠٠! ان الحاشية لو كانت عاقلة فلن تكون مخلصة ٠٠ ولو كانت مخلصة فهي ليست عاقلة ٠٠ وقصارى ما تصل اليه أن تكون منافقة !!٠٠

جناية أم

دب الفساد فى أخلاق فاروق منذ الفترة المبكرة من حياته ، وجاءت وفاة أبيه - وفاروق فى سن المراهقة - فهيات له سبيل الانحراف ، فقد غاب الشخص الوحيد القادر على كبح جماحه وتأديبه بالعصا اذاً خطأ . والمعروف عن الملك فؤاد أنه كان صارماً حازماً فى إدارة شئونه العائلية ، وكان شديد الوطأة على زوجته الحسنة ، نازلى ، التى تزوجته مكرهة ، وعاشت فى عصمته كالأسيرة فى القفص ، فما أن غاب القط حتى عاثت الفيران فى أنحاء القصر فساداً ، وانطلقت الأرملة الشابة ، وابنها المراهق - كل فى طريق - لينغمسا فى حياة الليل واللهو والمجون .

والسياسيون الذين رصبوا تطورات حياة فاروق . . يضعون مسئولية فسادهم على رقبة أحمد محمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى ، ورجل القصر القوى الذى تلقف فاروق وهو لم يزل غضناً طرياً ، وأشرف على تربيته سياسياً وأدبياً ، وظل المهيمن على شؤونه حتى اللحظة الأخيرة من حياته عندما لقي مصرعه فوق كوبرى قصر النيل ذات يوم مطير من فبراير ١٩٤٦ ، فقد انزلت

سيارة لورى ضخمة تابعة للجيش البريطانى وصدمت سسيارة
حسنين من الخلف صدمة شديدة أودت بحياته .

وكان أحمد حسنين ينتمى الى أسرة عادية تعيش فى بولاق ،
وكان أبوه عالما أزهريا ولكنه كان متقد الفكر فأوفد ابنه لتلقى
تعليمه الجامعى فى اكسفورد وبعد عودته عمل مفتشاً بوزارة
الداخلية ابان الحرب العالمية الأولى ، ثم انتقل الى السلك
الدبلوماسى الى أن ضمه الملك فؤاد الى حاشيته وظل يتدرج فى
مناصب القصر فى سرعة أذهلت أقرانه وحساده ، وأصبح حسنين
أحد المع نجوم المجتمع المصرى بفضل ما كان يتمتع به من ذكاء
اجتماعى وكياسة وقدرة على كسب الأصدقاء ، وبسبب بعض
الأعمال التى قام بها وأكسبته شهرة كبيرة ، فقد كان أول مصرى
يقود طائرته الخاصة بمفرده من اوربا الى مصر ، فسقطت به مرتين
فى فرنسا وايطاليا ولكنه نجا من الموت فى المرتين ، كما كان أحد
أبطال الشيش (المبارزة بالسيف) وحقق انتصارات على أبطال
هذه اللعبة فى أوربا ثم ذاع صيته عالميا بعد المغامرة الجريئة التى
جاء خلالها الصحراء الغربية وتمكن من اكتشاف بعض الواحات
التي كانت مجهولة عند علماء الجغرافيا ، وعندما بعث الملك فؤاد
بابنه وولى عهده الأمير فاروق ليتعلم فى انجلترا ، انتدب له
رائدين يتوليان الاشراف عليه هناك ، أما أولهما فكان عسكريا
يتسم بالصرامة والشدة وهو اللواء عزيز المصرى باشا ، وكان
الثانى أمين الملك أحمد حسنين الذى استطاع بلباقته وكياسته أن
يكسب ثقة فاروق ويصبح أشد الناس تأثيرا فى أخلاقه وسلوكه ،
ومن هذه الناحية تشير أصابع الاتهام الى أحمد حسنين على أنه
المسئول الأول عن أخلاق فاروق التى تسرب اليها العطب مبكرا ،
فيقول أحمد مرتضى المراغى ان حسنين كان يعمل على ارضاء نزواته

أكثر من حرصه على تزويده بالمعرفة ، بل يمضى الى أبعد من ذلك فيقول ان حسنين كان يترقب نوم عزيز المصرى مبكرا فيتسلل مع فاروق من نافذة الفيلا ويفران الى المراقص ودور اللهو ويعودان مع الفجر قبل أن يصحو عزيز المصرى .

ولكن الصورة التى يرسمها الصحفى الكبير محمد التابعى عن شخصية أحمد حسنين وعلاقته بفاروق تناقض الصورة المشينة التى رسمها المراغى له ، يقول : التابعى ان الخطة التى وضعها أحمد حسنين لنفسه هى أن يكون قائد الملك . . لا قواده . . وأن يكون الرجل القوى الذى يوجه الملك ويرشده ويسيطر عليه - عن طريق أمه الملكة نازلى - لا الرجل الذليل الرخيص الذى يشترك فى « توريد البضاعة أو المتعة الصحية » للملك الشاب ، وللقاء مزيد من الضوء على العبارة الأخيرة يروى التابعى - على لسان أحمد حسنين - القصة التالية :

- عقب وفاة الملك فؤاد وعودتنا من لندن اتصلت بى سيدات كثيرات من هوانم المجتمع ، وتحدثن الى فى لباقة ودبلوماسية رفيعة عن الملك . . الشاب الممتلئ عروقه بدم الشباب الحار . . وعن صحته وما تتطلبه هذه الصحة الغالية ، وتحدثن كذلك عن السن الحرجة - سن الخامسة عشرة والسادسة عشرة - وعن المتعة الصحية التى لا بد منها لشباب موفور الصحة مثل « مولانا الملك » وعرضن بكل لباقة ورقة وكياسة - وبكل أمانة وحرص وحذر - عرضن خدماتهن على جلالة الملك ، وأبدن استعدادهن لأن يقدمن « البضاعة الصحية » لجلالته . . ويستطرد حسنين فى روايته بأنه كان يقول لهؤلاء الهوانم ان « مولانا الملك » لن يرضى ولن يوافق اذا عرف ان له دخلا فى الموضوع أو أنه مطلع

على أسرار « الصحية » وان الأفضل والحالة هذه ان يحاول الاتصال بجلالته من طريق آخر غير طريق معلمه ومرشده .

ومعنى ذلك أن معلم الملك والمشرف على تربيته لم يكن يمانع في انغماس الملك الشاب في الرذيلة ، بشرط أن يتم كل شيء من وراء ظهره ، منعاً للخرج ، ولكي يظل محتفظاً بقشرة الاحترام التي بقيت في نفس التلميذ نحو أستاذه ، بل يعترف حسنين بأنه كان يرى ويسمع ويراقب ثم يتظاهر أمام فاروق بأنه لا يرى ولا يسمع ولا يعرف شيئاً عن مغامرات صاحب الجلالة !!

وفي الوقت الذي كان فيه جلالته منساقاً في مغامراته « الصحية » كانت أمه الأرملة الحسناء تحارب في جبهة أخرى غايتها تعويض سنوات الكبت التي عاشتها في كنف زوجها الغيور . . فلم تمض أسابيع قليلة على وفاته حتى كثر الهمس بين موظفي القصر وفي الأوساط المتصلة به ، أن « السجينة » قد حطمت قيودها ، وانطلقت - وهي لاتزال في ثياب الحداد - تهرح وتحاول ان تعوض مافاتهما وتنهل من عيون الحياة ، ووجدت نازلي في شخصية أحمد حسنين الفارس المنشود الذي يحملها على صهوة جواده وينطلق بها الى عالم المتعة والخيال قبل أن يطويها كهف الشيخوخة البارد المظلم ، ولكن مأساة نازلي ازدادت تعقيداً حين اكتشفت أن فارس أحلامها راغب عنها . . زاهد فيها . . ولا يريد أن يطاوعها في نزواتها . . ونسيت نازلي في غمرة عواطفها المتأججة انها وقعت في حبائل سياسي داهية يضع طموحاته وأطماعه السياسية فوق عواطفه ، كان حسنين - الذي ضبطه صديقه حفي محمود وهما تلميذان بالثانوي يقرأ كتاب « الأمير » لميكافيلي - يريد أن يحكم مصر ، وكانت خطته كما شرحها صديقه محمد التابعي تلخص في أن الذي يسيطر على

نازلى يستطيع أن يسيطر على الملك فاروق ومن ثم ينفسح أمامه الطريق الى رئاسة الوزارة ، ولم يكن حسنين من البلاهة بحيث ينساق وراء رغبات الأرملة المتصايبية فيحرق نفسه بسرعة ، ويحطم نفوذه المستقر فى نفس ابنها ، وانما كان من الدهاء ، الذى بلغ حد القسوة ، بحيث دفع ملكة مصر وأم ملك مصر الى أن تركع عند قدميه مستعطفة متوسلة ، وهو يصم أذنيه عن صرخاتها التى دوت فى أنحاء القصر حتى بلغت مسامع ابنها الذى كان - حتى ذلك الوقت يحبها - ويحترمها ويخشها ويضعها فى مرتبة التقديس والاحلال ١١٠٠ لقد تدلهمت ملكة مصر وتهتكت فى حب حسنين ولم تخجل من أن تعلن أمام موظفى القصر أنها عاشقة ملهوفة على أحمد حسنين ١٠٠!

بل ولم تخجل من ان تصارحه هو - ابنها الملك - بانها تحب موظف القصر أحمد حسنين ٠٠ وانها قدمت نفسها وجسمها ٠٠ ولكنه يرفض ٠٠ ثم تصرخ وتصيح انها من لحم ودم ٠٠ وتطلب من ابنها أن يزوجها من حسنين ١١٠ -

ويختتم التابعى هذا المشهد الدرامى بقوله : كانت الصدمة النفسية قاسية عنيفة على فاروق الذى كان يومئذ فى الثامنة عشرة من عمره ٠٠ وتهاوت المثل العليا التى كان يراها فى أمه - صاحبة الجلالة - تهاوت وتحطمت تحت قدميه ٠٠ ودخلت المرارة فى نفس الفتى ٠٠ ومع المرارة والسخرية والاستهتار بالمثل العليا - وأين هى - ؟ وبالمبادئ والقيم والأخلاق ٠٠ بكل ما فى هذه الدنيا من نبل وعلاء ٠٠

وانطلق فاروق يسخر ويهزأ بكل شيء ٠٠ ويدوس بقدمه كل مقدسات هذا البلد ٠٠ ويتحول من ملك محبوب مأمول ٠٠ الى طاغية وفاجر ومستهتر .

الحفلة الريفية

حدث أول صدام بين حكومة الوفد والملك فاروق قبل أن يجلس فاروق على العرش ، فبينما كانت العائلة الملكية تقضى صيف ١٩٣٧ فى أوروبا ، خرجت احدى الصحف الموالية للقصر - وهى بصدد الحديث عن حفلات التتويج التى ستقام بمناسبة تولى الملك سلطاته الدستورية - بفكرة غريبة عن حفلة دينية ستقام لفاروق فى القلعة يقلده فيها شيخ الأزهر سيف جده محمد على فى حضور أمراء الأسرة العلوية وهم يرتدون الملابس المزركشة التى كان يرتديها أسلافهم فى القرن التاسع عشر ، ثم يقسم الجميع يمين الولاء للملك ، وتقام فى اليوم التالى صلاة جامعة يؤم الملك فيها المصلين بدعوى أنه الامام الذى ينوب عن الأئمة وتصدر باسمه الأحكام الشرعية .

وتصدى الوفد لهذه البدعة ، واعترض عليها بشدة ، لأنه وجد فيها محاولة مكشوفة لاضفاء القداسة على الملك ، وإيجاد سلطة دينية خاصة ، يستمد الملك منها صلاحياته ، الى جانب السلطة المدنية التى ينظمها الدستور وبذلك يفتح الطريق أمام الملك للخروج على قيود الدستور . وتمسك الوفد بما نص عليه

الدستور من اجراءات محددة فى مسألة التتويج ، وهى أن يقسم الملك اليمين الدستورية أمام اجتماع مشترك لأعضاء مجلسي الشيوخ والنواب . . ولا شىء غير ذلك .

وتبين أن صاحب فكرة الحفلة الدينية هو ولى العهد ورئيس مجلس الوصاية الأمير محمد على توفيق ، الذى لم يكن فى يوم من الأيام على علاقة طيبة مع عمه الراحل الملك فؤاد ، وكان من الطبيعى ان يرث فاروق عن أبيه بغضه لهذا الأمير الذى كانت أبرز صفاته الثرثرة والسطحية والتفاهة والبخل والولاء المطلق للاحتلال الانجليزى وبالرغم من الود المفقود ، فقد راقى الفكرة لفاروق فهل لها ، ورأى فى هذه الاحتفالات مناسبة يطل منها على الشعب المصرى فى صورة ملوك أوروبا فى العصور الوسطى ، وهم يتلقون التيجان من بابوات الفاتيكان ، ومن المؤكد ان الاعتراضات الفقهية التى أعلنها الوفد لم تدر بخلد ، فلم تكن سنه الصغيرة ، ولا ثقافته الضحلة تسمحان له بفهم هذه الأمور .

وكان النحاس باشا قد قام آنئذ بزيارة سريعة الى سويسرا على رأس وفد حكومى لتوقيع معاهدة إلغاء الامتيازات الأجنبية ، فذهب الوفد لمقابلة فاروق فى الفندق الذى يقيم فيه ، ولكن المقابلة لم تستغرق أكثر من بضع دقائق خرج النحاس بعدها متجهما ، وكان الصحفى محمد التابعى الذى كان يرافق العائلة الملكية فى رحلتها المذكورة ينتظر نهاية المقابلة ، فلما خرج النحاس باشا صحبه التابعى ونزلا الى بهو الفندق وقال له النحاس باشا :

— اللعب بدأ من دلوقت . .

فقال التابعى : خير يا رفعة الباشا . .

قال : لا . . مفيش خير أبدا . . أبدا . . الملك كلمنى عن

حفلات التولية التي ستقام بعد عودته الى مصر ، وعايز يعمل حفلة
فى القلعة .. وشيخ الأزهر يقلده فيها سيف جده محمد على ..
والأمراء يكونوا حاضرين ولا ينسين الهدوم التي كان جدودهم
يلبسوها أيام محمد على .. وفى الحفلة دى مش عارف مين ومين
رايحين يقسموا له يمين الولاء والاخلاص .. انت عارف الدستور
بيقول ايه !

فلما أبدى التابعى جهالة بأحكام الدستور فى هذا الموضوع ،
قال له النحاس باشا :

— أنا أقول لك .. الدستور بيقول ان الملك قبل أن يتولى
سلطاته ويباشرها يقسم اليمين الدستورية أمام الهيئة المشتركة
من أعضاء مجلسى الشيوخ والنواب .. ولا فيش حاجة عن سيف
جده محمد على .. ولا عن الأمراء وهدوم الأمراء .. ولا عن شيخ
الأزهر .. وأنا مش فاهم شيخ الأزهر ماله ومال مباشرة الملك
لسلطاته الدستورية !! ..

وهنا تدخل مكرم عبيد باشا الذى كان حاضرا اللقاء وطلب
من التابعى أن يتدخل بما لديه من تأثير لدى رجال الحاشية لكى
يقنع الملك بالتخلي عن الفكرة ، وكرر النحاس باشا المطلب من
التابعى وقال له وهو يتجه نحو السيارة :

— أيوه خلص لنا الحكاية دى .. وزى ما قلت .. مفيش
غير اداء اليمين الدستورية تحت قبة البرلمان .. ولا قلعة ولا سيف
محمد على ولا أمراء .. ولا حاجة من دى أبدا .. آه .. الى فى
الدستور وبس ..

ويروى التابعى كيف حاول استغلال صداقته بأحمد حسنين
باشا فى اقناع فاروق بالتخلي عن الفكرة ، ولكن حسنين تنصل

بحجة أن الملك متحمس جدا للفكرة ، ويصعب اقناعه بعكسها ، فلجأ التابعى الى الدكتور حسنى باشا سكرتير الملك ، ونجح الرجل فى مسعاه ، وأبدى فاروق استعدادة للتخلى عن فكرة الحفلة الدينية بشرط أن يقدم له الشعب تاجا تشترك كل فئات الأمة فى الاكتتاب فى ثمنه ، ويقوم رئيس مجلس الشيوخ بوضع هذا التاج على رأس الملك باسم الأمة ، وتصور التابعى انه نجح فى مهمته وسارع الى ابلاغ الخبر تليفونيا الى مكرم عبيد باشا ، ولكنه فوجئ برفض النحاس باشا لفكرة التاج أيضا . . . واصراره على تنفيذ أحكام الدستور بلا زيادة أو نقصان . . . وازاء اصرار رئيس حكومة الأغلبية على موقفه أعلن فاروق تنازله عن فكرة التاج ، ومع ذلك ظل الأمير محمد على مصرا على حفلة المزعومة بالرغم من تخلى فاروق عنها ، وبالرغم من المفاجأة التى ظهرت وهى انعدام وجود سيف من مخلفات محمد على ، وظلت الصحف الموالية للقصر تندد بتشدد الوفد وكسر د خاطر الملك الشاب الذى يريد ان يفرح فى أعياد جلوسه ، وازاء اصرار ولى العهد على اقامة الحفلة الدينية ذهب اليه النحاس باشا وقال له انه لم يبق موجب لاستمرار الحديث عن هذه الحفلة لأن الملك لم يطلبها ولا يتمسك بها ، وان جلالته أبلغ الوزارة برنامج الاحتفال وليس فيه شئ عن اقامة حفلة دينية ، ولكن الأمير أصر على مشروعه ، وأعلن انه حتى لو كان الملك قد تنازل عن اقامة الحفلة فان هذه المسألة تهم الأسرة المالكة كلها ، وان سموه بصفته الشخصية وبصفته نائبا عن أفراد الأسرة يرى أن يسن هذا التقليد الجديد وأن تقام حفلة دينية ، وحفلة مبايعة يتقلد فيها فاروق سيف جده الأكبر !! وأدى اصرار الأمير وعناده الى تفاقم العلاقة بين الوزارة الوفدية والقصر ، ووجدتها العناصر الفاشية فرصة لاثارة القلاقل ضد الحكومة ،

وأخذ محمد على يغذى الصحف الموالية لبث الألغام بين الوفد والقصر ، وأضاف ولى العهد غريب الأطوار الى أفكاره فصلا جديدا مفاده أن يؤدى فاروق صلاة الجمعة التالية لتوليته فى الجامع الأزهر وان يتلو شيخ الأزهر - الشيخ المراغى - دعاء خاصا لفاروق ، وأبلغ فاروق بالفكرة الجديدة فوافق عليها ، ولكن النحاس رأى فى ذلك عودة الى فكرة الحفلة الدينية عن طريق ملعوف ، فأعلن رفضه لها ، ورفضه لكل محاولة تسعى الى اصفاء أى صفة دينية على الملك ، وكانت حجة الوفد فى ذلك كما شرحها النحاس باشا تحت قبة البرلمان : « ان الاسلام لا يعرف سلطة روحية ، وليس بعد الرسل وساطة بين الله وعباده . فلا معنى اذن للاحتجاج فى هذا الشأن بما نص عليه الدستور من أن دين الدولة الرسمي هو الاسلام ، أو بمكانة مصر لدى الدول الاسلامية ، بل ان هذه المكانة نفسها تستلزم أن ننزه الدين عن اقحامه فيما ليس من مسائل الدين ، وليس أحرص منى ولا من الحكومة التى أتشرف برئاستها على احترام الاسلام وتنزيه الاسلام ، كما أنه ليس أحرص منا على التزام أحكام الدستور ، ولكن الاحتفال بمباشرة جلالة الملك لسلطته الدستورية شئ آخر ، فهو مجال وطنى يجب أن يتبارى فيه سائر المصريين مسلمين وغير مسلمين . . . »

وازاء هذا التشدد تظاهر الملك بالاذعان بأحكام الدستور ، وتمت اجراءات توليته وفقا لأحكام الدستور ، وكما أرادت الحكومة الوفدية ، ولم تمض بضعة شهور حتى ضرب فاروق ضربته الانتقامية ، فأقال الحكومة التى كانت تتمتع بثقة الشعب ومضى فى طريق العبث بالدستور وبارادة الشعب . . . حتى فقد عرشه . . .

يحيى الملك مع النحاس

فى يوم الجمعة ١٥ سبتمبر ١٩٤٤ كان الملك فاروق فى طريقه الى حى مصر القديمة لأداء فريضة الجمعة بمسجد عمرو بن العاص عندما لاحظ بعض اللافتات المرفوعة فى الشوارع مكتوب عليها « يحيى الملك مع النحاس » فاستنكف أن يقترب اسم النحاس باسمه ، فاستدعى مدير الأمن العام وأمره بنزع اللافتات، ونفذ الرجل الأمر على الفور دون انتظار لتعليمات الحكومة التى تتبعها بنص الدستور ، وفى مساء نفس اليوم أصدر فؤاد سراج الدين وزير الداخلية أمرا بإيقاف المدير عن العمل ، وقرأ الملك الخبر منشورا فى صحف اليوم التالى فصمم على بقاء الرجل فى منصبه .

وبدا ان التحرش الملكى يخفى وراءه نية مبيتة لاقالة الحكومة الوفدية وان أزمة مدير الأمن العام هى مجرد ذريعة لتفجير الخصومة التى استحكمت بين الوزارة والقصر ، وان فاروق أخذ يستجمع خيوط اللعبة فى يده ليحكم البلاد حكما مطلقا عن طريق أحزاب الأقلية التى تفتقر الى تأييد الشعب ، وكان فاروق قد تلقى الضوء الأخضر من الانجليز بموافقتهم على اقالة النحاس ، وارجاء الاقالة

الى ما بعد توقيع ميثاق الجامعة العربية الذي كان النحاس منشغلا
بالاعداد له منذ ربيع ١٩٤٣ .

والسؤال الذى يرد على خاطر هو : لماذا سمح الانجليز
لفاروق باقالة الوزارة التى أرغموه على تشكيلها يوم ٤ فبراير
١٩٤٢ . والجواب يتطلب رصد العلاقات بين حكومة الوفد
والانجليز خلال الفترة التى تولت فيها الحكم ، وهو ما فعله
الدكتور عبد العظيم رمضان فى الجزء الثالث من كتابه (تطور
الحركة الوطنية) واستخلص من ذلك أن العلاقات بين حكومة
الوفد والانجليز لم تكن سمنا على عسل كما قد يبدو لأول وهلة ،
واذا كانت ظروف الحرب العالمية المعقدة قد جمعت بين مصلحة
الانجليز ومصلحة الوفد فى التخلص من الخطر النازى . . الا أن
القاعدة هى أن الحكم الوطنى والاستعمار قطبان متنافران ،
وضدان لا يجتمعان ، وفى الفترة التى تولى فيها الوفد الحكم ،
ظهرت أمور كثيرة برز فيها النباين الشديد بين الفريقين ؛ فقد
استهل النحاس حكمه بالافراج عن عديد من الشخصيات المعادية
للانجليز والموالية للمحور تحت ضمانه الشخصى ، ومن الطبيعى
الا تلقى هذه الافراجات ترحيبا من الانجليز ، ولما تهددت جيوش
روميل الدلتا وقناة السويس ، وأعد الانجليز خططهم لتدمير
مرافق البلاد ، ثار النحاس وأعرب عن سخطه وغضبه على النوايا
البريطانية .

ولما ابتعد الخطر النازى عن أرض مصر ، دخلت العلاقات بين
حكومة الوفد والانجليز مرحلة جديدة ، ولم يترك النحاس مناسبة
الا أعلن فيها عن عزمه على تعديل معاهدة ١٩٣٦ واعتبر هذا
التعديل ضرورة لا مفر منها ، وقال فى خطاب عيد الجهاد سنة
١٩٤٣ « انى الآن أكاد ألمح باذن الله فجر اليوم الذى تأخذ فيه

مصر المستقلة استقلالا تاما لاتشوبه شائبة ، مكانا محمودا فى
طلبة الشقيقات العربية وسائر الدول الديمقراطية المحبة للحرية ،
وفى هذا الخطاب تعرض للسودان فقال : « من منكم يجهل موقف
الوفد من مسألة السودان ، وتمسكه بالسودان ، وجهاده لأجل
السودان ؟ » .. واستطرد يقول « انه عندما يقول حقوق مصر
ومصالحها لا يعنى انه يعتبر علاقة مصر بالسودان علاقة المسود
بالسيد أو التابع بالمتبوع فانما نحن والسودان أمة واحدة ، لأبنائه
ما لنا .. وعليهم ما علينا .. » .

وبات واضحا أن الحكومة المصرية تنوى مطالبة بريطانيا بجلاء
قواتها عن مصر ، وعبر عن هذا الاتجاه مراسل (التايمز) فى مصر
فقال : « ان الدوائر المصرية يسودها شعور زائف بأن الحرب
بصفة عامة أوشكت على النهاية ، وأنه مادام الأمر كذلك ، فان
الوقت قد حان لجلاء قوات الحلفاء عن البلاد ، وهكذا بدا فى
الأفق شبح مطالبة الحكومة الوفدية لبريطانيا بدفع الحساب ،
وكان معنى ذلك بالنسبة للسياسة البريطانية ان هذه الحكومة لم
تستنفذ أغراضها فحسب ، بل وأصبح وجودها فى الحكم يمثل
خطرا على المصالح البريطانية ، ولكن الدور كان مايزال به مشهد
واحد لم ينته بعد ، وهو توقيع بروتوكول الاسكندرية ، أول
وثيقة فى ميلاد جامعة الدول العربية .

وفى اليوم التالى لتوقيع الميثاق أصدر الملك مرسوما بإقالة
الحكومة الوفدية وبدأ عهد انقلاب جديد ، فانتهت مرحلة هامة من
تاريخ مصر ، وبدأت مرحلة جديدة ، اذ كانت الفترة التى تولى
الوفد فيها الحكم من ٤ فبراير ١٩٤٢ الى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ - فى
رأى عبد العظيم رمضان - مفترق الطرق فى حياة مصر ، فقد
شهدت هذه الفترة سنوات الحسم فى تاريخ الحرب العالمية

الثانية ، وكانت معركة (العلمين) احدى معركتين حددتا مصير الحرب - والاخرى هي ستالينجراد - وقد تأرجحت فيها مصر بين نصر محوري نازى يعرض حياتها واستقلالها ونظامها للخطر، وهزيمة بريطانية تخرب مدنها وقراها ، كما شهدت هذه الفترة تجمع الظروف والعوامل التى ساعدت على اتجاه مصر بصورة حاسمة نحو الوحدة العربية ، وقد حسم هذا التوجه مصير مصر - ليس فقط بالنسبة للمرحلة التاريخية التالية ، بل بالنسبة لجميع المراحل التالية .

أما على المستوى المحلى فقد أنجزت هذه الوزارة العديد من الأعمال على كافة المستويات ، فقررت مجانية التعليم الابتدائى تمهيدا لمجانية التعليم الثانوى عام ١٩٥١ ، وأصدرت قانون عقد العمل الفردى لحماية الأجور ومعالجة حالات المرض والعجز والشيخوخة والوفاة ، وقانون التأمين الاجبارى ضد اصابات العمل ، وبه أمكن الاحتفاظ للعامل بحق التعويض ، وأسبغت الشرعية على نضال العمال بإصدار قانون نقابات العمال ، وانشأت لجان التوفيق بين العمال وأصحاب الأعمال ، وفيما يتصل بالفلاحين خففت الضريبة عن صغار الملاك الزراعيين وأعفت من لا تتجاوز الضريبة المربوطة على جميع أطيانه خمسين قرشا من هذه الضريبة ، وأقامت مشروع المجموعات الصحية وتشمل كل مجموعة عيادة طبية مجانية ودارا للخدمة الصحية ودارا لرعاية الأمومة والطفولة ، وانشأت ديوان المحاسبة وجعلته هيئة مستقلة تماما عن السلطة التنفيذية محاطا بسياس من الضمانات ، كما أصدرت قانون استقلال القضاء الذى كفل للقاضى مبدأ عدم العزل ، كما فرضت استخدام اللغة العربية فى مكاتبات الشركات حتى تتيح للمصريين شغل المناصب بدلا من الأجانب .

تلك بعض انجازات وزارة ٤ فبراير ..

خاتم النحاس

في أواخر عهد الوزارة الوفدية (١٩٥٠ - ١٩٥٢) شنت الصحف المعادية للوفد حملة عنيفة على النحاس باشا ، وشككت في ذمته لأنه يقتنى خاتما من الزمرد مع أنه رجل فقير ١٠٠ ! وأخذت الصحف تؤلب الرأي العام الذي كان شديد الثقة بنزاهة النحاس وطهارة يده ، وتساءلت الصحف من أين لزعيم الوفد ورئيس الوزراء ثمن هذا الخاتم الثمين ١٠٠ ؟ ! وجعلت المجلات الساخرة من هذا الخاتم (لازمة) ثابتة لا تخلو منها أصبح النحاس باشا في الرسوم الكاريكاتورية ، ولكن النحاس لاذ بالصمت ولم يشأ الإفصاح عن مصدر الخاتم لأنه كان يعرف الأصابع الخفية التي تحرك الحملة وتشير الغبار حول أعز صفة يتحلى بها الرجل ، وأدرك النحاس أن الهدف الأكبر هو تلويت سمعة الوزارة الوفدية وتسميم الأجواء الشعبية من حولها تمهيدا للاطاحة بها ٠٠ وهو ما حدث بالفعل ٠

وبقيت قصة خاتم الزمرد طي الكتمان حتى أفاض اللثام عنها الأستاذ صلاح الشاهد في كتابه (بين عهدين) وهو الرجل الذي ظل بنحكم موقعه في مجلس الوزراء لصيق الصلة بالنحاس باشا ، وكان بنحكم صلته الشخصية بالنحاس منذ عام ١٩٣٥ خير شاهد

على سلوك الرجل ، وبقى على الوفاء له حتى انتقل الزعيم الى الرفيق
الأعلى .

يروى صلاح الشاهد (وله من اسمه نصيب) القصة على
النحو التالي :

يوم ١٥ يونيو ١٩٥٠ وفى الساعة الخامسة مساء وصلت الى
جناح المرحوم مصطفى النحاس باشا بفندق سان ستيفانو سلة
فواكه من مزارع الخاصة الملكية مع مندوب ملكي قال لي : هذه السلة
هدية من جلالة الملك لرفعة النحاس باشا بمناسبة عيد ميلاده .
فصعدت بالسلة الى غرفة النحاس باشا الذي فتح غطاءها فوجد
كمية من الشمس فوقها علبة مجوهرات ، وفتحها رفعته فوجد
بداخلها خاتما من الزمرد فسألني رفعتة :

— الخاتم ده حريمى . . ولا رجالي . . ؟

فقلت : انه رجالي وان الملك أرسله هدية بمناسبة عيد ميلاد
رفعتك اليوم . قلبسه — رحمة الله عليه — فورا ، ونادى على المرحومة
قرينته وقال لها : شوفي هدية الملك فى عيد ميلادى . . عرف ازاى
مقاس صباعى . . ! لازم القلم السياسى بتاعه عارف كل حاجة .

وفى ختام الحكاية يقول صلاح الشاهد : هل كان الملك بعد
أن ساءت العلاقات بينه وبين النحاس باشا وبلغت الأزمات مع الحكومة
الانجليزية غايتها . . وراء هذه الحملة الصحفية . . وقد علمت
ان الخاتم هدية ملكية . . ؟ ثم يصف الملك فاروق بأنه كان واسع
الخيال فى مناوراته .

وكان خصوم النحاس لا يجرأون على الطعن فى نزاهته ،
فقد كانت نزاهته أشبه بالمنطقة المحرمة التى يصعب اختراقها ،
وكان النحاس صلبا فى تجرده عن الترف والنعيم ، شديد التمسك

بالقيم الخلقية والدينية ، فعاش بسيطاً فقيراً لا يملك قصراً ولا ضيعة ولا يقتنى جوهراً ولا مهنات أو أسهماً في البنوك والشركات . وكان مصدر رزقه الوحيد - في مبدأ عهده بالوزارة - معاشاً لا يتجاوز ١٢٥ جنيهاً ، وعاش بقية حياته من معاشه كرئيس سابق للوزراء وعندما صدر قرار مجلس قيادة الثورة بحل الأحزاب عام ١٩٥٣ وأيلولة أموالها للحكومة ، كانت جميع الأموال المملوكة لحزب الوفد هي تسعون ألف جنيه مودعة في بنك مصر باسم مصطفى النحاس باشا . فقام الرجل - احتراماً للقانون - بسحب المبلغ ووضعها في حقيبة خاصة وقام بتسليمه الى حكومة الثورة ، وعندما أشار عليه أحد المقربين بالاحتفاظ ، ولو بجزء ضئيل من هذا المبلغ ليواجه به غدر الزمن ، صرخ النحاس في وجهه قائلاً : انه ليس مالى . . وأنا لا أزال الآن كما كنت قاضياً . . وأسكن في شبرا . . وغذائي طبق خضار والحلوى طبق بلح . . !!

وعندما كان خصوم النحاس في عام ١٩٤٣ يتآمرون على تحطيمه ويبحثون عن مدخل لتحقيق غرضهم كان كل همهم تشويه صورته النبيلة في عيون الجماهير ، ويعترف الدكتور هيكल باشا في الجزء الثانى من مذكراته بهذه المحاولات التى كان هدفها النيل من الوزارة الوفدية ومن نزاهة رئيسها بالذات ، فقد كانت شهرة النحاس باشا قائمة فى نفس الجمهور الى يومئذ على أنه رجل نزيه طاهر اليد ، وأنه ظل لذلك فقيراً لم يفد من الحكم شيئاً . . .

ولم يتأثر النحاس بهذه الحملات الشائنة ، وبقي على صلابته فى مقاومة عوامل الاغراء ، والارتفاع فوق الريب والشبهات ، فقد أصبح التجرد والتعفف من مكونات شخصيته ، وليس أدل على ذلك من تلك القصة التى عاصر أحداثها صلاح الشاهد ووقعت فى عهد وزارة الوفد الأخيرة :

في أحد أيام نوفمبر ١٩٥١ حضر الى رئاسة مجلس الوزراء السيد (م . ح) والسيدة قرينته ، وطلب الاذن بمقابلة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا دون موعد سابق . واستأذنت رفعة الرئيس الجليل الذي علم أن زوجة السيد المذكور هي مدام (ح) فاغرورقت عيناه بالدموع وأخبرني في صوت متهدج :

ـ ان لوالده هذه السيدة دينا في عنقي لا أنساه . .

فقد طلب والدها ان يرافق النحاس باشا عنده نفيه وسعد زغلول وصحبه الى سيشل سنة ١٩٢١ وكان الوالد مثل الاخلاص النادر اذ ارتضى النفي الاختيارى وكان يتولى رعاية النحاس باشا في أثناء مرضه هناك . وكان النحاس نموذجاً للوفاء الخالص حين تقدم الزوج على استحياء بطلب للرئيس الجليل يطلب فيه الموافقة على تصدير مائة ألف طن من الحديد الحردة الموجود في الصحراء الغربية وهو من مخلفات جيوش الحلفاء ، الى الولايات المتحدة الأمريكية مقابل عشرة جنيهاً عن كل طن يدفعها للحكومة المصرية . ووجه النحاس في العرض مكسباً للخزانة المصرية يوازي مليون جنيه فوافق على الطلب وكتب بذلك خطاباً الى أحمد باشا حمزة وزير التموين لاستخراج التصريح المطلوب .

وطلب النحاس باشا من صلاح الشاهد أن يرافق السيدة وزوجها الى وزارة التموين لانجاز الطلب ، وفوجيء الشاهد بالرجل يقول له وهو يرمق سيارته الصغيرة المتواضعة : غدا يكون لديك سيارة كاديلاك ومعها ٢٠ ألف جنيه . وأثارت هذه العبارة شكوك صلاح الشاهد حول الصفة ، ثم تأكدت هذه الظنون عندما سأل أحد الصحفيين عن أخبار الصفة . فلما حاول الشاهد نفي الخبر ، فاجأه الصحفي بالقول ان النحاس باشا وافق على الصفة بعد أن قبض نصف مليون جنيه رشوة . . !!

وصعق صلاح الشاهد • فقد كان حاضرا كل وقائع القضية
من بدايتها وأدرك أنها خدعة يراد بها الايقاع بزعيم من أنزه زعماء
مصر في تاريخها الحديث والمعاصر • ولم يتردد الرجل • وذهب
الى النحاس في بيته وكان يتوضأ للصلاة •• فحكى له ما سمع ،
فأمره بالذهاب فورا الى أحمد حمزة باشا لاسترداد الطلب ، فلما
جاء به أحرقه •• وكأن شيئا لم يكن ••



ان القصص والوقائع المحفوظة في سجلات التاريخ عن نزاهة
مصطفى النحاس وشجاعته ووطنيته ستبقى نبراسا للأجيال القادمة
وهي تبحث عن السطور المضيئة في تاريخنا المجيد ، وما أجمل تلك
العبارة التي اختتم بها رفعت السعيد كتابه الرصين عن : السياسى •
والمتاضل •• والزعيم ••

« وتمضى الأيام •• ويتصور البعض ان النحاس قد طواه
النسيان ، وان هذه الصفحة الناصعة من تاريخ مصر قد نسيت ••
وفجأة يعود النحاس ليثبت بموته انه لم يزل حيا في قلوب الكثير
من المصريين ، وعندما مات مصطفى النحاس في ٢٣ أغسطس ١٩٦٥
تحولت جنازته الى مظاهرة صاخبة ضمت قرابة المائة ألف متظاهر •

وأثبت النحاس انه لم يزل حيا ••

وانه لن يموت

وأثبت شعب مصر انه - برغم كل شيء - يمتلك قدرا هائلا
من الوفاء والعرفان بالجميل •• ، ••

محكمة الثورة

كان الغاء دستور ١٩٢٣ بعد نحو خمسة شهور من قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ مؤذنا بالصدام المباشر بين الثورة والوفد ، وسقوط شعرة معاوية التي كانت قائمة حتى ذلك الحين بين الطرفين ، لأن الكفاح من أجل الدستور كان خطأ ثابتا في تاريخ الوفد ويسير في خط مواز لكفاحه من أجل الاستقلال ، وكانت توضيحات الشعب - بقيادة الوفد - في سبيل الدستور ، وحمايته من العبث والعدوان ، لا تقل روعة وجلالا عن التوضيحات في سبيل انهاء الاحتلال ، ومنذ بداية المرحلة الليبرالية في عام ١٩٢٤ كان الوفد يحارب في جبهتين : الجبهة الخارجية لاستخلاص حقوق البلاد الوطنية ، والجبهة الداخلية لمقاومة استبداد القصر ، واحباط محاولاته الدائبة لاستعادة حكمه المطلق ، مما دعا الوفد الى خوض معارك دامية ، بلغت ذروتها في عهد اسماعيل صدقي ، وقد توج كفاح الوفد آنذاك بعودة دستور ١٩٢٣ في أواخر عام ١٩٣٥ .

وعندما قامت ثورة يوليو كان الشائع أنها ستعمل على صيانة الدستور وتصحيح الأوضاع الديمقراطية واعادة الحياة النيابية وضمان الحريات الأساسية لجميع المواطنين ، خاصة بعد خلع فاروق المدير الأكبر لكل الانقلابات والدسائس التي أدت الى الفساد

السياسى ، ولكن قيادة الثورة ما لبثت أن تنكرت للدستور ، وكشفت عن نواياها المعادية له عندما تجاهلت النص الدستورى الذى يقضى بدعوة البرلمان الوفدى المنحل لكى يؤدى أمامه أعضاء مجلس الوصاية على العرش اليمين الدستورية .

ورغم أن انعقاد هذا البرلمان كان اجراء شكليا بحتا ، ولا يستغرق أكثر من بضع دقائق ، الا أن الزمرة التى أحاطت بضباط الثورة ، وكلهم من رجال الحزب الوطنى المعادين للوفد ، وجدوا فى عقد البرلمان فرصة غير سارة تذكر الجماهير بالنظام البرلمانى الذى بيتوا النية على هدمه ، والسير بالنظام الجديد فى طريق اللاديمقراطية ، فكان أن تفتقت عقولهم عن فتوى شيطانية بإمكانية أداء اليمين أمام مجلس الوزراء ، ووجدت الفتوى ذات المنفعة المزدوجة قبولا عند الضباط الشبان ، فقد شجعت هؤلاء على الاستهانة بالدستور والتحرر من قيوده ، ومن ثم المضى فى طريق الانفراد بالحكم ، وفى نفس الوقت حققت لمستشارى السوء فرصتهم للانتقام من الوفد واقصائه نهائيا عن حقه الشرعى فى الحكم .

وجاء الاجتهاز على الدستور فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ علامة واضحة على أن الحكم الجدد قد اختاروا السير فى الطريق نحو الدكتاتورية ، ثم لم تمض ثلاثة أسابيع حتى أصدر مجلس قيادة الثورة فى ١٧ يناير ١٩٥٣ أمرا بحل الأحزاب السياسية التى تعتبر ركيزة النظام الديمقراطى ، وازاء هذا المد الاستبدادى السافر ، قرر الوفد أن يخوض المعركة أيا كانت نتائجها رغم علمه بطبيعة القوى الجديدة التى يواجهها ، وأنها عناصر عسكرية بحتة تستند الى قوة الجيش ، وانتهاز زعيم الوفد مصطفى النحاس فرصة ذكرى وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس ١٩٥٣ فتحدى القرار الصادر بمنع الاختفال بها ، وتوجه الى ضريح سعد ، وألقى خطابا ساخنا هاجم فيه قيادة الثورة ، وندد بالأساليب التى اتبعتها فى القضاء

على الحرية والدستور والحياة النيابية ، وطالب بالافراج فورا عن المعتقلين ، كما هاجم سياسة حكومة الثورة في التفاوض مع الانجليز بعد أن لفظت البلاد هذا الأسلوب ، كما ندد بموافقة الحكام الجدد على ما عرضه الانجليز من منح السودان الحكم الذاتي تمهيدا للاستفتاء على مبدأ تقرير المصير ، وقال النحاس ان أمانى مصر القومية قد أهدرت تماما على أيدي الحكام الجدد ، وحذر من مغبة فى التفريط فى حقوق البلاد ، وقال ان الأمة يقظة لما يدبره لها أعداؤها فى الخفاء ، واختتم خطبته بهذه العبارة : ان حبل الباطل قصير . . وهو ان طال شئق صاحبه .

وسرعان ما تحول خطاب مصطفى النحاس الى منشور تداولته أيدي الجماهير بكثافة ، وفى يوم الجمعة التالية للخطاب ، أدى النحاس الصلاة فى مسجد أبى العباس المرسى بالاسكندرية فالتفت الجماهير من حوله رغم الحصار الذى ضربه البوليس حول المنطقة ، ودارت معركة ساخنة بين رجال البوليس والمصلين .

ولواجهة الهجوم الصريح من جانب زعيم الوفد ، لم تلجأ قيادة الثورة الى مقارعة الحجة بالحجة ، ولكنها لجأت الى النهج التعسفى لتصفية منتقديها وتلويث سمعتهم والتشهير بهم عن طريق المحاكمات الثورية . وفى ١ سبتمبر ١٩٥٣ أعلن اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية ورئيس مجلس قيادة الثورة فى مؤتمر جماهيرى بميدان عابدين الأمر الخاص بتشكيل محكمة الثورة ، وقدم صلاح سالم الذى كان يوصف بأنه « لسان الثورة وميزانها الحرارى » تحليلا لخط العنف الذى قررت الثورة المضى فيه . وبعد أن شن هجوما عنيفا على الوفد وزعامته فاجأ الجماهير بوجود وثيقة « خطيرة » قال انها وقعت فى أيدي أعضاء مجلس الثورة ، وتكشف عن التحالف الوثيق بين « الاستعمار الأجنبى والحونة الرجعيين فى هذه البلاد » ولكن صلاح سالم حذف - وهو يقرأ الوثيقة المزعومة - اسم الدولة الأجنبية التى

تشجع المتمردين من رجال الأحزاب ، وقد جاء فيها أن هدف التحالف بين تلك الدولة (المجهولة) ورجال الأحزاب هو بث روح السخط ضد النظام وتشجع الأفكار التي تنادى بعدم صلاحيته وتدعيم الوسائل التي تؤدي الى تدهور الاقتصاد ، وذكر صلاح سالم أن العمل لقلب مجلس الثورة كان محمدا له مدة أقصاها يوليو ١٩٥٤ .

وفي دراسة تحليلية لتلك الوثيقة التي قرأها صلاح سالم ، يقول صلاح عيسى ان الوثيقة لم تنشر ، ولم يواجه أى ممن قدموا للمحاكمة بوقائع محددة تستند اليها ، ثم يصف هذه الوثيقة بأنها نص للدراسات المشتركة التي جرت بين أجهزة السفارة الأمريكية - ومن بينها وكالة المخابرات المركزية - وبين أجهزة الأمن الناصرية ، على النحو الذى أشار اليه رجل المخابرات كوبلاند فى كتابه (لعبة الأمم) [وكان هذا قريبا من مسرح الأحداث المصرية فضلا عن أنه كان واحدا من المستشارين المقربين لجمال عبد الناصر آنذاك] فقد ذكر انه فى صيف ١٩٥٣ بدأت السفارة الأمريكية تقلق على الوضع فى مصر بعد أن شعر السفير الأمريكى جيفرسون كافرى بالقلق على نظام عبد الناصر اذ أن الحركات المضادة عادة ما تظهر - فى رأى وكالة المخابرات المركزية - بعد مرور عام واحد على الحركات السابقة .

وبدأت محكمة الثورة تمارس نشاطها فى جو مشحون بالسموم ضد الوفد ، بل يذهب أحمد حمروش الى « أن محكمة الثورة كانت موجهة أساسا ضد الوفد وبقايا الأحزاب والتنظيمات السياسية » . ولما كان الوفد أخطر هذه الأحزاب فقد ناله نصيب الأسد من القضايا ومن التشهير الذى لم يتعفف عن البذاءة والابتذال . ويرى صلاح عيسى أن محاور الهجوم على الوفد تركزت فى التأكيد بأن ثقة الشعب فيه - التي تمثلت فى حصوله على الأغلبية المطلقة فى انتخابات

تأكيد فكرة امكانية الاستغناء عن البرلمان ، وفي التشكيك في وطنية كل العناصر التي كانت مؤثرة على مسرح الأحداث ، وفي السعي لتلويث كل القيادات الحزبية وبالذات قيادات الوفد بحيث تبدو أمام الجماهير شخصيات تافهة ، وفي هذا الصدد نال زعيم الوفد مصطفى النحاس من التشهير ما لم ينله غيره ، ولكن الضباط الأحرار عجزوا عن تقديمه شخصيا للمحاكمة لادراكهم صعوبة ذلك ، وربما خشيتهم من أن تؤدي محاكمة الرجل الى مزيد من التعاطف . الشخصى والسياسى معه ، اذ لم يكن من السهل تجاهل المكانة التي ظل النحاس يشغلها في نفوس الشعب المصرى منذ تولى زعامة الوفد عقب وفاة سعد زغلول .

وازاء صعوبة محاكمة مصطفى النحاس فقد قرر الضباط الأحرار محاكمة أقرب الناس اليه : قرينته السيدة زينب الوكيل ، وساعده الأيمن فؤاد سراج الدين ، وابنه فى حفل الجهاد ابراهيم فرج .

فصم وحكم

فى الساعة العاشرة من صباح الاربعاء ٩ ديسمبر ١٩٥٣ مثل
فؤاد سراج الدين امام محكمة الثورة للمشكلة برئاسة قائد الجناح
عبد اللطيف البغدادي وعضوية البكباشى انور السادات وقائد
الاسراب حسن ابراهيم اعضاء مجلس قيادة الثورة بالاضافة الى
البكباشى زكريا محيى الدين الذى رأس مكتب الادعاء يعاونه ستة
أعضاء نصفهم من الضباط الحقوقيين والآخرى من وكلاء النيابة ،
وكان صلاح سالم وهو يعلن امر تشكيل المحكمة فى المهرجان
الشعبى بميدان عابدين . قد اقترح ان تعقد المحكمة فى ميدان
التحرير لبث الذعر فى قلوب الناس ، ولكن مجلس الثورة لم يأخذ
باقتراحه ، وقرر عقدها فى مقر مجلس قيادة الثورة الذى كان
فيما قبل مقرا لنادى اليخوت الملكية ، ويشغل اجمل بقعة على
قمة جزيرة الزمالك حيث يتفرع النيل ، وتنساب امواجه الرقيقة
تحت عتباته فى جمال وروعة وسكون .

وفى الطابق الثانى الذى خصص للمحكمة ارتفعت لافتة
مكتوب عليها باللون الدموى (سكون) وتدل على باب القاعة رقم ٨
المخصصة للجلسات علم الثورة المثلث الالوان ، وكتب على الجزء

الابيض منه (محكمة الثورة) بينما تناثرت على جدران القاعة آيات قرآنية تم اختيارها بعناية مثل « اقتلوهم حيث ثقتموهم » ، « وليجدوا فيكم غلظة » ، « فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان » .

وقد نص أمر تأليف المحكمة على أن يتولى مكتب الادعاء القبض على المتهمين واطصارهم بالتهم المنسوبة اليهم قبل موعد المحاكمة بأربع وعشرين ساعة على الأقل ، ولا يجوز تأجيل القضية لأكثر من مرة واحدة ولمدة لا تزيد على ٧٢ ساعة ، ويتولى الدفاع عن المتهم محام واحد في جميع التهم المنسوبة اليه ، ولا يجوز المعارضة في هيئة المحكمة أو احد اعضائها بأي طريقة من الطرق أو امام أية جهة من الجهات ، وكذلك لا يجوز الطعن في اجراءات المحاكمة .

ورغم أن اللواء محمد نجيب يعترف في كلمته للتاريخ بأن هذه المحكمة اشاعت الفزع والرعب في نفوس الناس ، ورغم أنه يقول انه اعترض على فكرة المحاكم الثورية لأنها تجعل من قسادة الثورة خصما وحكما في نفس الوقت ، فان معارضته لم تمنعه من توقيع أمر تشكيلها والمشاركة في الزفة التي صاحبت ذلك بميدان عابدين .

وفي حين يذكر بعض الكتاب ان محكمة الثورة كانت تعقد جلساتها في سرية ولا يحضرها الا أعضاءها والمتهم وزكريا محيي الدين هو ومعاونوه ، وان المتهمين كانوا يواجهون المحكمة بلا تحقيق ويوجه الادعاء التهمة اليهم كنوع من المفاجأة (!!) فان أحد الضباط الذين جمعوا وقائع المحاكمات الاولى يقول في صدر كتابه ان رجال القانون والتشريع في مصر كانوا يتهافتون على حضور هذه المحاكمات ، وانهم أعجبوا ببراعة المناقشات التي تدور فيها والأسئلة التي يوجهها أعضاء المحكمة كما لو كانوا من رجال القضاء

العريفي (!!) لم يصف المحلّة بأنها ابتدعت نظماً جديدة في المحاكمات فهي تنجز في أيام ما تنجزه المحاكم العادية في شهرين بل سنوات (!!) ومع ذلك كان العدل رائدها وذلك بشهادة المتهمين أنفسهم حتى أن بعضهم تقدم بالشكر على معاملته بالعدل والقسطاس (!!) .

وكانت محاكمة فؤاد سراج الدين أطول محاكمات الثورة ، فقد استغرقت ٥٤ جلسة ، وكانت أقرب الى محاكمة عهد ما قبل الثورة كله منها الى محاكمة فرد ، وتطرقت المحكمة الى قضايا لا علاقة لسراج الدين بها ، وطرحت أموراً خارجة على موضوع القضية ، وبلغ الابتذال بالمحاكمة أن حشدت رهطاً من السياسيين القدامى الذين كانت لهم مواقف معادية للوفد ، وأخذت تحرضهم على سرد قصص وحكايات تسيء الى الزعامة الوفدية وتشوه صورتها في نظر الجماهير ، وبلغ الاسفاف بأحدهم أنه تطرق الى الحياة الخاصة للزعيم مصطفى النحاس ، وكان بعضهم يتبرع باختلاق وقائع كاذبة لكي يشتري حريته وينجو من المحاكمة أمام نفس المحكمة عن جريمة العمالة للانجليز ، وكان هذا مسلك رئيس الديوان الملكي السابق حسين سرى الذي تبرع بفبركة قصة تقبيل النحاس ليد الملك عقب تشكيل وزارة ١٩٥٠ ، وعن طريق هذه الحملة التشهيرية الواسعة تحقق الهدف الاصيل من المحاكمة - كما اعترف رئيسها في مذكراته بعد ربع قرن - من أن القصد من المحاكمة كان التشهير بالزعماء حتى يفقد الشعب الثقة بهم .

وتحولت محاكمة فؤاد سراج الدين - أكبر شخصية مؤثرة في الوفد بعد مصطفى النحاس - الى مهرجان لتوجيه أقصى الطعنات الى الوفد ، بل والى عهد ما قبل الثورة كله ، وانسأقت المحاكمة في

هوجة التجريح حتى عميت عليها الامور ، واختلطت الحقائق بالضعائن ، ولم تعد تفرق بين الاحقاد السياسية والاعتبارات الوطنية التي تعلو فوق الخلافات ، فتحول الابيض الى سواد ، وأصبح العمل الوطنى فى نظر المحكمة جريمة يلام عليها فاعلها وبلغت المحكمة ذروة المغالطة عندما عابت على حكومة الوفد موقفها من معركة التحرير التى اعقبت الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وعدم الاستعداد لها ، متجاهلة الدور البطولى الذى لعبته هذه الحكومة فى تدعيم الكفاح المسلح وتسهيل مهمة الضباط - ومنهم رئيس المحكمة - فى مقاومة الاحتلال البريطانى .

وقد استفزت هذه المغالطة البشعة الكتاب الاحرار الذين عاصروا هذه الاحداث بمن فيهم المنتمون الى حركة الجيش ، فكتب احمد حمروش منتقدا مسلك المحكمة بقوله : وهكذا تحول الموقف الذى يستحق الفخر فى تاريخ الوفد .. الى موقف يجلب اليه العيب والأسف (!!) ووجهت الطعنة فى غير موضعها ، فمعارك التحرير والنضال الشعبى لا يشترط ان تستكمل تماما فى بدايتها .. بل هى تنمو وتزداد صلابة مع كفاح الشعب المسلح ، وهو ما حدث بالفعل قبل حريق القاهرة .

واذا كان الشر لا يخلو من بعض جوانب الخير ، فان وقائع المحاكمة كشفت عن خطأ كثير من المقولات التى كانت شائعة حول العلاقة بين الوفد والقصر ، وقد ذكر صلاح عيسى بعض نماذج لهذه الحقائق فى مقدمة الجزء الاول من وقائع محاكمة سراج الدين وقال ان المحاكمة ازاحت الستار عن مواقف بطولة وهمية نسبها البعض لانفسهم على حساب الوفد ومنهم زكى عبد المتعال - الشاهد الذى ادانته محكمة الثورة فى حكمها - وكانت بعض الصحف قد قدمته كبطل ، ثم ثبت بعد ذلك عمالته للسراى فضلا عن صلاته

الوثيقة بالدوائر الامريكية ، كما افترض موقف النائب العام الاسبق محمد عزمى من تحقيقات قضية الاسلحة الفاسدة التى ذهب بعض المؤرخين (الرافعى) الى اتهام الوفد بأنه المسئول عن طرده من منصبه تلبية لرغبة السراى واعتبروه بطلا ، ثم ثبت فيما بعد أنه هو الذى تواطأ — على غير رغبة الحكومة الوفدية ، لافساد قضية الاسلحة الفاسدة لحساب السراى طمعا فى مرتب كبير .

وتضمن الادعاء على فؤاد سراج الدين تهما من كل لون. وجنس مثل خيانة امانة الحكم واستغلال النفوذ ومهادنة الملك وعدم مراعاة مصلحة الوطن وعرقلة تحقيقات الاسلحة الفاسدة ، بالإضافة الى الجهد الخارق الذى بذله محاميه الوحيد وصديقه عبد الفتاح حسن باشا ، فقد تصدى سراج الدين لتفنيد هذه الدعاوى فى شجاعة فذة لفتت اليه انظار المؤرخين ، ووصفه بعضهم بأنه كان اشجع المتهمين الذين واجهوا المحاكم الثورية ، وانه انبرى للدفاع عن نفسه وعن حزبه دفاعا مجيدا استغرق خمس جلسات كاملة. فنجح فى ذلك نجاحا نادر المثال بما يؤكد ذكاءه واقتداره السياسى .

ورغم ان رئيس المحكمة اظهر فى بعض مراحل المحاكمة تقديرا لشخص فؤاد سراج الدين وقال له ان المحكمة لا تشك فى نزاهتك ، وايد الادعاء هذا الرأى ، ورغم وضوح تهافت الاتهامات المصوبة الى سراج الدين فقد صدر الحكم عليه بالسجن ١٥ عاما لأنه كان لابد ان يختفى من المسرح السياسى ليخلو الجو امام الضباط الشبان. للانفراد بالحكم دون ازعاج ، وعبر جمال عبد الناصر عن هذه الحقيقة عندما صرح للذين تحدثوا اليه بشأن التصديق على الحكم فقال : « ان فؤاد سراج الدين كرجل سياسى ، يعرف لماذا حكم عليه .. ومتى سيخرج .. » وأوضح عبد الناصر لاسرة سراج الدين

الضرورة التي حتمت عليه وضع زعيمهم خلف القضبان ، وهي تخضع لعاملين أحدهما خارجي وهو عودة الأحزاب السياسية في سوريا بعد الاطاحة بحكم العقيد الشيشيكلي ، وهو الامر الذي بسبب أرقا لرجال الثورة بصفة عامة ، وعبد الناصر بصفة خاصة ، لأنهم كانوا يدركون أن مجرد وجود الأحزاب يشكل خطرا على سلطتهم . . . أما العامل الداخلي فهو أن جمال عبد الناصر كان يستعد للقضاء على الإخوان المسلمين .

وهذا هو منطق العدل الثوري .

وقد انجز عبد الناصر وعده . . . ولم يغادر فؤاد سراج الدين السجن الا بعد أن أجهز عبد الناصر على الإخوان . . . وخلص له حكم مصر .

خيانة الوطن

كانت محاكمة ابراهيم فرج أمام محكمة الثورة أشبه بالكوميديا السوداء .. أو مسرحيات العبث التي تتحرك فيها الأحداث خارج نطاق العقل والمنطق .. !! رجل أفنى ثلاثين عاما من شبابه في أتون الحركة الوطنية وكيلا للنياحة فمحاميا فوزيرا - وكان في كل مراحل حياته طاهر اليد والقلب - ثم يفاجأ بتقديمه الى المحاكمة بتهمة خيانة الوطن والاتصالات بجهات أجنبية والاشتراك في جمعية سرية لمناهضة عهد الثورة .. !! وتخرج الصحف وهي تجمل في صدر صفحاتها هذه التهم الجسيمة التي تظعن الرجل في شرفه الوطني ، وعندما يمثل أمام المحكمة يقف ممثل الادعاء فيطلب عقد الجلسة سرية « حرصا على المصلحة العامة » .. ولأن مصلحة الأمة فوق مصلحة المواطن « .. وتوافق المحكمة لتبدأ أبشع ممارسات عهد الثورة في تلويث سمعة رجال الحركة الوطنية ، ودمغهم بأخط ما يمكن أن يدمغ به مواطن في سسمعته وشرفه ، وهو الخيانة الوطنية .. ثم حرمانهم من حق الدفاع الشرعي عن أنفسهم أمام الرأي العام .. !!

رجل يواجه حملة تشهير على أوسع نطاق .. في الصحف

والاذاعات والمهرجانات الشعبية ، فاذا وقف أمام المحكمة ليكشف
زيف التهم المشينة الموجهة اليه تقرر المحكمة سرية الجلسة ، ويظل
الرأى العام على جهل تام بما يجرى داخل القاعة المغلقة ، الى أن
يحكم على الرجل ويمضى الى السجن ! ويبقى سيف التشهير
والتجريح معلقا فى رقبته . ويظل الناس يلوكون التهم التى
أذاعتها محكمة الثورة وكأنها حقيقة مؤكدة . . . دون أن يعرفوا
خلفياتها وتفاصيلها . . . ومصداقيتها ، فاذا كان الرجل قد اتصل
بجهة أجنبية ، أليس من حق الرأى العام أن يعرف اسم هذه
الجهة . . . وكيف تم اتصاله بها . . . ؟ وماذا دار خلال الاتصال . . . ؟
وما هو الشق الجنائى فيها . . . ؟؟ وما هى الأضرار التى سببها
لمصلحة البلاد العليا . . . ؟؟

ولكن محكمة الثورة لم تضع فى اعتبارها كل هذه التساؤلات
التي تخضع لقواعد الحق والعدل والمنطق ، ومضت فى تنفيذ
مخططها الذى رسم لها من أول يوم ، وهو التشهير بقيادة الحركة
الوطنية حتى يخلو الجو أمام البراعم الطاهرة من ضباط العهد
الجديد . . . وفى الجلسة السرية الأولى سمحت المحكمة بتواجد ممثل
الادعاء ومحامى المتهم - الدكتور محمد صلاح الدين - فبدأ مرافعته
وهو لا يدري شيئا عن وقائع التهم الموجهة الى موكله . . . ولم يجد
أمامه من أدوات الدفاع سوى استعراض حياة ابراهيم فرج منذ كان
 طالبا فى مدرسة الحقوق يشارك فى المظاهرات الوطنية التى خرجت
تحطم صورة الملك الطاغية أحمد فؤاد ، ولم تفارقه نزعتة الوطنية
المشبوبة وهو وكيل للنيابة العامة يرفض تنفيذ تعليمات الديكتاتور
اسماعيل صدقى ، التى أصدرها الى رجال النيابة بعدم التعرض
لرجال الادارة الذين مارسوا أعمال التعذيب مع المواطنين ، وانما
مضى الى سجن المنيا ليطلق سراح المعتقلين ، ويفتح محضرا للتحقيق

مع زبانية التعذيب ، ثم ينتقل المحامى الى عرض موقف الوزير ابراهيم فرج من النظام الملكى ، وكيف كانت صلته بالقصر لا تتعدى حدود مسئوليته كوزير ، فلم يعرف عنه يوما انه كان على صلة بفاروق أو بأحد رجال حاشيته ، واذا كانت هناك صلة بين ابراهيم فرج والقصر الملكى ، فلا يمكن أن تكون الا علاقة العداء المستحکم ، وتسأل الدكتور صلاح الدين : هل يمكن لرجل هذا موقفه أن يتآمر على الثورة التى طردت الملك ! ثم يستعرض موقف ابراهيم فرج حين كان وزيرا للخارجية بالنيابة ، وكيف كان يتسم بالصلابة مع المفاوضين الانجليز . . ثم يتحدث عن ثروة ابراهيم فرج ، وكيف غادر الوزارة وهو لا يملك من حطام الدنيا شيئا . . وينتهى المحامى من مرافعته دون أن يتعرض لتفنيد التهم الموجهة الى ابراهيم فرج ، لأنه لم يكن لديه بيان عنها . . أو - لو شئت الدقة - لم يكن مسموحا له بالتعرض لها . . وكل ما قاله حول الاتصال بدولة أجنبية أنه تسأل - وكأنه يضرب الودع - يمكن نطلع الانجليز . . ! ويمكن تطلع اليهود أما عن الادعاء الثانى وهو الاشتراك في جمعية سرية مناهضة للثورة فقال انه فهم أن هذه الجماعة هم الشيوعيون . حيث ان ابراهيم فرج المحامى قبل الدفاع عن أحد رجال اليسار الوطنى - وهو المرحوم يوسف حلمى - فى القضية التى رفعها أمام مجلس الدولة . . ؟؟ فهل يكون قيام المحامى بواجبه جريمة يحاكم من أجلها . . ؟؟

وبعد أن فرغ الدكتور محمد صلاح الدين من دفاعه ، أمرت المحكمة بإخراجه من القاعة مع ممثل الادعاء ، وانفردت المحكمة بالمتهم وناقشته فيما هو منسوب اليه ، ثم أصدرت حكما عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، ثم تعطف مجلس الثورة بتخفيف الحكم الى السجن لمدة خمسة عشر عاما .

وتمضى الأيام .. وينكشف المستور .. ويتبين أن جريمة « خيانة الوطن والاتصال بجهات أجنبية » تتلخص فى حضور ابراهيم فرج زيارة المجاملة التى قام بها الزعيم الهندى جواهر لال نهرو للزعيم مصطفى النحاس يوم ١٨ يونيو ١٩٥٣ ، وكان من التقاليد التى يحرص عليها نهرو زيارة مصطفى النحاس باشا ، امثالاً لوصية والده « موتيلال نهرو » الذى كانت تربطه بالنحاس علاقات تاريخية قديمة ، وكان نهرو - كزعيم ليبرالى حر التفكير - يظن أن تغيير نظام الحكم فى مصر بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو لا يحول دون لقائه التقليدى بـ مصطفى النحاس ، فبعث من لندن - حيث كان يحضر مؤتمر الكومنولث - برقية الى سفيره فى القاهرة ، السردار بانيكار ، يطلب فيها تحديد موعد لمقابلة النحاس أثناء توقف نهرو فى القاهرة ، واتصل السفير بـ ابراهيم فرج ، وأبلغه برغبة نهرو ، فلما نقل ابراهيم فرج الرسالة الى النحاس باشا أبدى اعتذاره حتى لا يسبب حرجاً لنظام الحكم الجديد ، وقال : ليس من مصلحة العلاقات بين مصر والهند أن تكون هناك زيارات ، لأن النظام يعتبرنا خصومه .. ولكن نهرو أصر على اتمام الزيارة ، وقال انه اذا لم يقابل مصطفى النحاس ، فلن يتوقف فى مصر وسيسافر مباشرة الى نيودلهى ، وعندئذ وافق النحاس وطلب أن تكون المقابلة فى منزله بجاردن سيتى ، وعندما وصل نهرو الى مطار القاهرة استقبله ابراهيم فرج نيابة عن النحاس باشا ورافقه حتى محل اقامته فى فندق سميراميس .

وفى الموعد المحدد للزيارة حضر نهرو وبرفقته سفير الهند ، فاستقبله النحاس باشا ومعه ابراهيم باشا فرج الذى تولى الترجمة بين الزعيمين ، ودار بينهما حديث ودى وتاريخى حول علاقة النحاس بوالده موتيلال منذ مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ عندما كان

موتيلال برفقة غاندى ، وكانا يسكنان فى فندق واحد ، فنشأت بينهما علاقة طيبة توطدت من خلال لقائهما اليومى فى مؤتمر الصلح ، وكان موتيلال يبدى إعجابه بالوفد وبزعامة سعد زغلول ونجاحه فى تحقيق الوحدة الوطنية بين المصريين ، وقال نهرو للنحاس « أنا أعتبرك معلما لجيلين فى الهند » ويقصد جيله وجيل والده ، وتصادف اعلان الغاء النظام الملكى وقيام النظام الجمهورى فى ذلك اليوم ، فقال النحاس باشا لنهرو : أنا سعيد جدا بأننى أعيش حتى أرى بعين راسى اعلان الجمهورية فى مصر ، لأننا كنا دائما متهمين لدى الملك فؤاد ثم الملك فاروق بأننا غير موالين للعرش ، وأننا نسعى لاقامة الجمهورية ، والتخلص من هذه الأسيرة ، فأراد الله أن أعيش لأرى أن هذه الأسيرة زحزحت عن مصر وانتهى حكمها الى الأبد ، وأرجو الله أن يوفق رجال الجيش فى أن تكون جمهورية ديمقراطية .

وانتهى الاجتماع .. وقام النحاس برد الزيارة لنهرو فى مقر السفارة الهندية قبل أن يعود الى بلاده .. وبعد شهرين كان ابراهيم فرج يقف أمام محكمة الثورة بتهمة خيانة الوطن والاتصال بجهة أجنبية بهدف الاضرار بالنظام الحاضر ومصصلحة البلاد العليا .. (١١)

البرلمان فى الكونتنتال

فى أعقاب حل البرلمان الوفدى - بعد تسع ساعات من انعقاده فى ٢٣ مارس ١٩٢٥ - دخلت الحركة الوطنية مرحلة المواجهة السافرة مع القوى الاتوقراطية ممثلة فى القصر واذنابه الذين آلت اليهم مقاليد الحكم منذ الخلاص من حكومة سعد زغلول فى نوفمبر ١٩٢٤ ، وخضعت البلاد لموجة عاتية من الارهاب ، والتضييق على الحريات العامة يقودها أحمد زيوار باشا ووزير داخليته المرعب اسماعيل صدقى باشا ، وكان الوفد طوال هذه الفترة يسير على سياسته القديمة فى رفض التعاون مع الاحرار الدستوريين بسبب عدائهم التقليدى للوفد ومشاركتهم فى كل المؤامرات والدسائس ضده ، وحقدهم الاسود على زعامة سعد زغلول للأمة ، فكان سعد يرفض كل المحاولات التى بذلت للمصالحة مع الاحرار ، لانعدام ثقته بهم ، وكان يقول لمن يحادثه بشأن المصالحة معهم : « لا يمكننى الاتفاق مع اشخاص تزعزعت الثقة بينى وبينهم فيما يتعلق بموضوع توكيلى ، انهم يطلبون حقوقا أقل مما تطلب الأمة .. ونحن متشبثون بكامل حقوقها .. » .

ولكن .. مع حلول النصف الثانى من عام ١٩٢٥ - عام

الرجعية والارهاب - وبعد طرد الوزراء الاحرار فى اعقاب ازمة كتاب (الاسلام واصول الحكم) ، أدرك الوفد خطورة استمرار الشقاق والانقسام على القضية الوطنية وعلى الحياة النيابية على السواء ، ورأى ان استمرار تعطيل الدستور ومعها الحياة البرلمانية هو فى حقيقته تعطيل للوفد عن ممارسة دوره فى حل القضية الوطنية وتحقيق آمال الجماهير المصرية فى حكومة دستورية تعبر عنه أصدق تعبير ، وبدأ الوفد يمد يده الى خصومه التقليديين ، وصادفت هذه البداية ظهور دعوة أخرى الى الائتلاف بين جميع الاحزاب لمواجهة المد الرجعى الذى يقوده القصر ، وكان رائد هذه الدعوة الصحفى المعروف أمين بك الرافعى قطب الحزب الوطنى الذى نشر فى (الأخبار) سلسلة من المقالات نبه فيها الى مخاطر السكوت عن استبداد القصر وتعطيل الحياة النيابية ، ودعا الى انعقاد البرلمان المنحل من تلقاء نفسه فى اليوم الحادى والعشرين من نوفمبر ١٩٢٥ تنفيذا للمادة ٩٦ من الدستور التى تقضى بأن « يدعو الملك البرلمان الى عقد جلساته العادية قبل يوم السبت الثالث من شهر نوفمبر ، فاذا لم يدع الملك الى ذلك يجتمع المجلس بحكم القانون فى اليوم المذكور » .

ولاقى هذه الدعوة الجريئة صدى كبيرا عند الراى العام ، واصلت الاحزاب عن موافقتها على عقد الاجتماع فى اليوم المذكور ، ودب الذعر فى أوصال حكومة زيوار ، فحاصرت مبنى البرلمان بقوات عسكرية مدمجة بالسلاح ، وأصدرت ثلاثة بلاغات رسمية ، أحدها باسم مجلس الوزراء قالت فيه : « انها قررت ان تمنع بالقوة كل اجتماع داخل البرلمان أو فى أى مكان آخر » . والبلاغ الثانى من وزير الداخلية صدقى باشا قال فيه : « انه كلف الجيش والبوليس بمحاصرة البرلمان وأن التعليمات الصادرة الى الضباط

بعضى بأصروا الرصاص على المشاعيين والمتظاهرين والقبض على كل من يشترك فى أى اجتماع أو موكب أو مظاهرة ، أما البلاع الثالث فقد أصدرته وزارة المعارف لتحذر الطلبة من مغبة الاضراب وتتوعدهم بأوخم العقوبات اذا اشتركوا فى المظاهرات ، وتنفيذا لأوامر الحكومة قام رئيس حرس البرلمان بإغلاق جميع مكاتبه وقاعدته وسلم المفاتيح الى قائد القوة العسكرية التى حاصرت المبنى ٠٠ وفى مساء الجمعة ٢٠ نوفمبر انتشرت القوات المسلحة فى كل الشوارع والمنافذ المؤدية الى دار البرلمان التى باتت كالقلعة الحصينة ، ووضعت حشود اضافية فى ثكنات قصر النيل (ميدان التحرير) لتكون على أهبة الاستعداد عند اللزوم . وباتت القاهرة ليلة دهماء يشوبها القلق والتوتر فى انتظار ما يسفر عنه الغد .

وفى صبيحة السبت ٢١ نوفمبر ١٩٢٥ خرج الزعيم سعد زغلول من بيت الأمة فى طريقه الى فندق الكونتنتال ، حيث تقرر عقد البرلمان ، وما أن رآه الضباط والجنود حتى القوا بالسلاح وانطلقوا يهتفون بحياته وحياة البرلمان ٠٠ !! ودخل سعد القاعة الرئيسية فى الفندق فوجد النواب والشيوخ قد اكتمل عقدهم فهبوا لتحيته ، وعلى الفور بدأت وقائع الجلسة التاريخية بينما كانت الهتافات الحماسية تزلزل اركان الفندق ويتردد صداها فى ميدانى العتبة وابراهيم باشا ، ومن المفارقات الطريفة ان رئيس الوزراء زيوار باشا كان يقيم فى نفس الفندق فهب من نومه مذعورا على دوى الهتافات التى كانت ترج المنطقة ، فأسرع بارتداء ملابسه وغادر الفندق دون ان يهتم به أحد ، وأصدر النواب والشيوخ القرارات التالية : « تنفيذاً لاحكام المادة ٩٦ من الدستور اجتمع اعضاء البرلمان اليوم السبت ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ وأرادوا عقد المجلسين فى دار البرلمان فمنعتهم القوة من الوصول اليه ، وعلى ذلك

اجتمعوا اليوم في فندق الكونتنتال وتكامل عددهم القانوني ،
وبعد المناقشة في الحالة الحاضرة قرروا بالاجماع ما يأتي :

أولا : الاحتجاج على تصرفات الوزارة المخالفة للدستور وعلى
منع الأعضاء من الاجتماع في دار البرلمان بقوة السلاح .

ثانيا : قرر مجلس النواب عدم الثقة بالوزارة طبقا للمادة ٦٥
من الدستور .

ثالثا : اعتبار دور الانعقاد موجودا قانونا واستمرار اجتماعات
المجلسين في المواعيد والامكنة التي يتفق عليها الاعضاء . .

رابعا : نشر هذه القرارات في جميع الصحف .

وبعد أن وقع جميع النواب والشيوخ على هذه القرارات ،
انسحب الشيوخ الى قاعة اخرى ، وبقي النواب في امكنتهم برئاسة
سعد زغلول الذي أعلن افتتاح جلسة مجلس النواب وطلب منهم
انتخاب مكتب المجلس فانتخبوا بالاجماع سعد زغلول باشا رئيسا ،
ومحمد محمود باشا (قطب الاحرار الدستوريين) والدكتور
عبد الحميد سعيد بك (من الحزب الوطني) وكيلين ، وويصا واصف
وعلي الشمسي وعبد الجليل ابو سمرة وأحمد عبد الغفار سكرتيرين .

وبينما كانت الجلسة منعقدة كانت المظاهرات قد احتشدت
في الميدان والشوارع المحيطة بالفندق وهي تهتف بحياة الدستور
وتطالب باعادة الحياة النيابية واقالة الوزارة الرجعية . . . وكان
من بينها مظاهرة تضم تلميذات المدارس فقوبلت من الضباط
والجنود بالتصفيق . . بدلا من الصفع والركل كما أمرت الحكومة .

اضراب العهد

قانون الانتخاب هو عمود الديمقراطية ..

ويمكنك أن تحكم على درجة الديمقراطية في أى بلد إذا فحصت قانون الانتخاب فيه ، وما يتضمنه من قواعد تسمح بتمثيل الشعب تمثيلاً صادقاً .. أو قيود تحول دون تمثيل قوى المعارضة المحرومة من الرضاء السامى .. ولا عبرة - فى جوهر الديمقراطية - بقيام مجالس نيابية ذات أسماء وأشكال واللوان متعددة ولكنها لا تمثل الشعب تمثيلاً صحيحاً .. فتكون مجرد فترينات مزركشة ، وواجهات مزيفة ، تخفى وراءها افلاسا مدمراً *

وكان قانون الانتخاب - فى المرحلة الليبرالية - مجالاً للصراع بين دعاة الديمقراطية من ناحية ، وأنصار الاتوقراطية الذين يهمهم قيام مجالس شكلية لا تحمل من الديمقراطية غير اسمها ، وحول قانون الانتخاب دارت معارك ساخنة كان النصر فيها حليف الشعب لصموده واصراره على مقاسومة عمليات التزييف المقنن ، فبعد حل مجلس النواب فى عامى ١٩٢٤ و ١٩٢٥ عمد الملك فؤاد الى إلغاء قانون الانتخاب المباشر الذى أصدرته حكومة سعد زغلول ، وعكف

على تفصيل قانون معدل يحول دون تمثيل جماهير الشعب التي يمثلها الوفد المصري ، ويضمن قدوم نواب لا يجيدون سوى التسبيح بحمد ولي النعم والتصفيق لكل كلمة تنطق بها الحكومة .



وفي ٨ ديسمبر ١٩٢٥ استصدرت حكومة زيوار باشا مرسوما بقانون الانتخاب المعدل تمهيدا لاجراء الانتخابات الجديدة ، وضيق في حق الانتخاب وخولت الادارة سلطات واسعة تمكنها من انجاح مرشحيها ، وعادت الى نظام الانتخاب على درجتين (كل ٣٠ ناخبا يختارون مندوبا عنهم لانتخاب النائب المرشح) واشترط القانون المعدل في المندوب أن يكون من الاثرياء وكان معنى ذلك حرمان اصحاب الجلايب الزرقاء من حق التمثيل ، وأدرك الوفد خطورة هذا الاجراء على جماهيره الشعبية فحمل لواء الدعوة الى مقاطعة الانتخابات على أساس هذا القانون الرجعي ، وتضامنت الاحزاب الاخرى مع الوفد وأعلنت عن مقاطعة الانتخابات وسرت في الأمة روح المعارضة ، ولكن حكومة زيوار مضت في طريق الاستخفاف بالارادة الشعبية استنادا الى دعم القصر لها ووقوف جهاز السلطة في خدمتها ، ولم يخطر على بالها ان ياتيها المطعن من عقر دارها ومن جماهير العمدة الذين شاع في الاذهان انهم اتباع كل حكومة ، فقد اعلن العمدة انهم لن يشرفوا على انتخابات تجزى على أساس قانون زيوار !!

وكان عمدة مركز تلا منوفية اول من أشعل شرارة الاضراب ، فامسكوا برفية الى وزارة الداخلية تضمنت رأيهم ، ولكن زيوار لم يكثر بهذا التهديد وكلف أحد كبار موظفي الداخلية بالسفر الى المنوفية وجمع العمدة الذين وقعوا بالرفية وتخبرهم بين العدول

عن الاضراب أو العزل من العمدية ، فأصر عشرة منهم على موقفهم ،
فصدر قرار برفتهم وأدى هذا القرار المتعسف إلى اتساع رقعة
المعارضة بين العمدة ، وفي هذه الآونة ارتفع شعار شهير يقول
(يحيا الوفد ولو فيها رقد) . . . وتضامن بقيمة العمدة مع زملائهم
المرفوتين وأعلنوا استقالاتهم من العمدية ، وسرت شعلة الوطنية
بين العمدة في كافة أنحاء البلاد فأعلن معظمهم الاضراب عن الاشراف
على العملية الانتخابية ، وتحرج مركز الحكومة ، ولكنها بدلا من
أن تتعالج الأمر بالعودة إلى الحق . . . قدمت عددا من العمدة إلى
المحاكمة بتهمة الامتناع عن تنفيذ القانون . . . وتركهم عملهم
الرسمي بدون مسوغ شرعي ، وأصدر القضاء المصري العادل -
المستقل - أحكامه في هذه القضايا ببراءة العمدة .



وكان هذا الموقف الشجاع من جانب عمدة القرى والبسلاط
مشجعا للأحزاب السياسية على الائتلاف وتوحيد الصفوف لمقاومة
التدابير التي ينسجها الملك وخادمه زيوار ، وانشئت في يناير
١٩٢٦ لجنة تنفيذية للأحزاب المؤتلفة لتنظيم جهودها . واصدرت
قرارا مشتركا بمقاطعة الانتخابات ، وعقد مؤتمر وطني يضم زعماء
الامة وشيوخها ونوابها وذوى الراى والمكانة فيها . وفي يوم
الجمعة ١٩ فبراير ١٩٢٦ انعقد المؤتمر في حديقة منزل محمد
محمود باشا بشارع الفلكي ، وتصدر الزعيم سعد زغلول المؤتمر
وجلس بجانبه عدلى يكن باشا وعبد الخالق ثروت باشا ، وبلغ
عدد الحاضرين ١٠٩٧ عضوا ، وألقى سعد باشا خطابا ذكر فيه
اعتماد وزارة زيوار على الدستور وعلى الحياة النيابية ، ودعا إلى
توحيد الصفوف ونيل الفرقة ، ورفض الانتخابات على أساس القانون
المعدل والعودة إلى قانون الانتخاب المباشر ، وبعد مناقشة واسعة

وافقت الاغلبية العظمى من الحاضرين على تأييد قرارات الاحزاب المؤتلفة ، والمطالبة بتأليف وزارة موثوق بها من الأمة للاشراف على الانتخاب في ظل قانون الانتخاب المباشر . وانتخاب لجنة للاشراف على تنفيذ هذه القرارات .

وازاء هذا الاجتماع الشعبى المنقطع النظير ، لم يجد الملك فؤاد مفرا من الاذعان لارادة الشعب ، فقرر مجلس الوزراء ايقاف العمل بقانون الانتخاب المعدل ، والعودة الى قانون الانتخاب المباشر. واتفقت كلمة الاحزاب على أن تخوض المعركة الانتخابية فى جو خال من الفرقة والانقسام والمهاترات . كما اتفقت على توزيع الدوائر منعا للتناحر ، فترك للوفد ١٦٠ دائرة ، وللأحرار الدستوريين ٤٥ دائرة ، وللحزب الوطنى تسع دوائر ، ولكن نتيجة الانتخابات اسفرت عن فوز الوفد فى ١٦٥ دائرة ، وحصل الأحرار على ٢٥ مقعدا ، والحزب الوطنى على خمسة مقاعد ، والمستقلون ١٠ . والاتحاديون (حزب الملك فؤاد) خمسة مقاعد فقط .

وانتصرت ارادة الشعب ..

وسقطت ارادة الملك ..

الأيام السود

سيدخل يوم ٢٦ فبراير ١٩٨٦ تاريخ مصر الحديث من أضيق أبوابه : باب التدمير والتخريب وسفك الدماء .. ليصبح ثالث الأيام السوداء التي شهدتها مصر خلال ثلث قرن ، وخضعت شوارعها بالدماء ، وشوهت وجهها بآثار الدمار ، ولوثت سماها الصافية بالدخان الأسود .

فى اليوم الأول - ٢٦ يناير ١٩٥٢ - احترق قلب القاهرة فى الوقت الذى بلغت فيه الحركة الوطنية ذراها بعد الغاء معاهدة ١٩٣٦ واشتعال جذوة الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال البريطانى فى قناة السويس ، ومع أخماد الحرائق فى نهاية اليوم العصيب، انطلقت جذوة النضال الوطنى ، واقيلت حكومة الوفد ، ودخلت البلاد مرحلة البيات والانكفاء على الجراح ، واستمرت المرحلة ستة شهور بالتمام ، انتهت بقيام حركة الجيش فى ٢٣ يوليو .

وفى اليوم الثانى - ١٨ يناير ١٩٧٧ - خرجت جماهير القاهرة للتعبير عن سخطها على القرارات الفجائية التى اصدرتها حكومة ممدوح سالم برفع اسعار السلع الأساسية ، وتحول السخط الى تدمير واحراق وتخريب ، اتسعت رقعته فى اليوم

الثانى لى خارج العاصمة . وكانت حصيلة الاحداث الدامية ٧٩ قتيلا و ٢١٤ جريحا .

وفى اليوم الثالث - ٢٦ فبراير ١٩٨٦ - تمردت قوات الامن المركزى على اربابها ، وخلعت قيود الضبط والربط وتحولت الى مصابات للقتل والتدمير ، ولأول مرة فى التاريخ ينقلب حراس الامن الى أدوات للاخلال بالامن واشاعة الفوضى ، واشعال الحرائق وتخریب المنشآت السياحية ، وبلغت حصيلة اليوم الدامى ٣٦ قتيلا وأكثر من ٣٠٠ جريح .

ومع اختلاف الدوافع والظروف بين الأيام الثلاثة ، الا أن هناك أوجه التشابه والتمايز بين كل منها :

● ● فى اليوم الأول - ٢٦ يناير - واليوم الثالث ٢٦ فبراير - لعبت قوات « الأمن » دورا أساسيا فى تحريك الاحداث مع اختلاف النتائج ، أما فى اليوم الثانى - ١٨ يناير - فقد كانت الجماهير - وخاصة الفئات الشعبية - هى المتحرك الوحيد على المسرح .

● ● فى اليوم الأول : انحصرت الأحداث فى نطاق مدينة القاهرة - وقلبها بالذات - واليوم الثانى انطلقت أحداثه من القاهرة ، ولكنها انتشرت الى مدن أخرى فى اليوم التالى ، وفى الأحداث الأخيرة وقعت الأحداث - فى وقت واحد - داخل المعسكرات الواقعة فى نطاق القاهرة الكبرى وبعض مدن الصعيد - أسسيوط وسوهاج .

● ● فى أحداث الأيام الثلاثة لعبت القوات المسلحة الدور الفعال فى احقاد الفتنة وانهاء الاضطرابات وفرض حظر التجول .

● ● بدأت أحداث اليومين الأولين - الأول، والثانى -

مها .

بمظاهرات غاضبة سرعان ما تحولت الى عمليات للسلب والنهب والتدمير ، أما أحداث اليوم الثالث فقد بدأت منذ اللحظة الاولى بأعمال التخريب .

●●● في اليومين الاول والثاني شاركت جماعات من الرعايا والصوص والبلطجية في أعمال السلب والنهب ، أما في اليوم الثالث فقد اقتصرَت هذه الأعمال على المتمردين من جنود الأمن المركزي .



ومع أهمية البحث في أوجه التشابه ، والتمايز بين الأحداث الثلاثة ، إلا أن الأهم من ذلك في دوافع كل منها ، بهدف استخلاص العبر ، والاستفادة من الدروس :

لقد بدأت أحداث يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ بمظاهرة سلمية قام بها جنود بلوكات النظام تضامنا مع زملائهم الذين قتل الانجليز خمسين منهم في مذبحه الاسماعيلية في اليوم السابق ، وخرجت المظاهرة في الصباح الباكر من يوم السبت ٢٦ يناير من ثكناتها بالعباسية وهي تضم عددا يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ جندي حاملين اسلحتهم قاصدين الجيزة حيث يعسكر ٥٠٠ من زملائهم فاتجهوا الى جامعة القاهرة حيث اختلطوا مع الطلبة في مؤتمر وطني ، وبعد تبادل الخطب والتهنئات الحماسية خرج الطلبة ومعهم جنود بلوكات النظام في مظاهرة الى مقر مجلس الوزراء بشوارع قصر العيني قبلغته الساعة ١١ر٣٠ ، ولما كان رئيس الوزراء - النحاس باشا - ملازما الفراش بسبب وعكة صحية ، فقد خرج اليهم وزير الشؤون الاجتماعية - عبد الفتاح حسن باشا - وارتجل فيهم خطبة حماسية أختتمها بقوله : « صدورنا قبل صدوركم وزقابتنا قبل

رفابكم ، واستمر الحسوار بين المتظاهرين والوزير حتى الساعة ٣٤٥ ر انصرف بعدها الجنود الى ثكناتهم ، وفى هذه الاثناء شهد ميدان ابراهيم باشا اول حوادث الحريق فى الساعة ١٢٣٠ ر عندما تقدمت مجموعة صغيرة من الرجال الى الطابق الثانى من كازينو اوبرا واشعلت فيه الحريق ، والقت بالمقاعد والموائد المحترقة الى ساحة الميدان بينما وقف الناس يتفرجون ، وبعد نصف ساعة اندلعت النيران الى دار سينما ريفولى . . . وبعدها سينما راديو . . . وحتى الساعة التاسعة والنصف كانت النار قد آتت على ٧٠٠ من المحلات التجارية ودور السينما والملاهى والنوادر الأجنبية . . . وكانت عمليات التدمير تجرى بطريقة واحدة ومتشابهة عن طريق مجموعة من الرجال فى زى العمال وهم يحملون البلط والأجنات والجرادل وصفائح البنزين والجاز وكرات القماش ، فكانوا يتقدمون الى المحلات المغلقة ويكسرون أبوابها ، ويخرجون بعض محتوياتها ويشعلونها فى عرض الطريق ، ثم ينثرون المواد الملتهبة فى داخل المحل فيتحول الى كتلة من اللهب ، واثناء ذلك كانت تتحرك فى منطقة الأحداث سيارات جيب ولوريات تحمل صفائح البنزين وتسلمها للجماعات المكلفة بالاحراق ، وتصدر اليهم تعليمات بالأمكنة ، وتدفع لهم نقودا ، ثم يقومون بتخريب سيارات الاطفاء عندما حاولت القيام بمهامها مما يقطع بأنها عمليات مدبرة باحكام (المصدر : كتاب حريق القاهرة تأليف جمال الشرقاوى) .



أما أحداث ١٨ يناير ١٩٧٧ فقد اندلعت عندما قرأ الناس صحف الصباح فاکتشفوا ان الحكومة رفعت الدعم عن بعض السلع الغذائية ، فى نفس الوقت الذى تبخرت فيه آمال الرخاء التى روج لها الرئيس الراحل أنور السادات مع بداية مرحلة الانفتاح

الاقتصادي ، وشعرت الجماهير بالاحباط الشديد فخرجت المظاهرات من المصانع المحيطة بالقاهرة ، ثم تقدمت نحو قلب المدينة قاصدة مجلس الشعب لابلغ صوتها الى نواب حزب مصر العربي الاشتراكي (حزب الحكومة) ولكن قوات الأمن المركزي تصدت للمظاهرات ، وتحول الصدام الى مرج ومرج ، فانطلقت الأيدي العابثة تحطم واجهات المحلات ، وتنهب ما فيها من سلع ومحتويات .. وفى اليوم التالى ازدادت حدة التجمهر والتخريب حتى أمر الرئيس السادات بانزال القوات المسلحة الى الشوارع وفرض حظر التجول .

وقد حاول الرئيس السادات تعليق مسئولية هذه الأحداث فى رقبة حزب التجمع وبعض الجماعات الشيوعية المحظورة بحجة أنها تريد الانتقام منه لأنه أطاح بمراكز القوى يوم ١٥ مايو ١٩٧١ وقال ممدوح سالم فى بيانه امام مجلس الشعب ان ما تكشف مما تم ضبطه من النشرات الصادرة عن بعض التنظيمات السرية الشيوعية يشير الى أن عناصر التآمر قد رتبت نفسها سلفا لتنفيذ مخططاتها فى أية فرصة مناسبة ، ولم تكن قرارات الاصلاح الاقتصادي - يقصد قرارات زيادة الاسعار - الا نقطة الصفر التى حددوها موعدا للقيام بمحاولة تستهدف ضرب ثورة ١٥ مايو .. وقال ان هذا المخطط الاجرامى المشبوه يهدف الى ارجاع عجلة التاريخ الى الوراء وانهاء ثورة ١٥ مايو المجيدة ، وأطلق الرئيس السادات على أحداث ذلك اليوم وصف « انتفاضة الحرامية » ردا على عملية التمجيد التى خلعتها اقطاب اليسار على أحداث ١٨ و ١٩ يناير ، وقالوا ان ما حدث لم يكن امرا عابرا فى تاريخ الشعب المصرى ، ولكنه انتفاضة شعبية لها دوافعها التى لا تزال قائمة وتحمل عوامل تكرارها شكلا وموضوعا ، وكان آخرها ما وقع فى

كفر الدوار يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٨٤ (راجع كتاب حسين عبد الرازق حول هذه الأحداث ١٩٨٤) .

وقدمت النيابة ١٧٦ متهما الى المحكمة أمام محكمة أمن الدولة العليا ، انتهت بالحكم على عدد قليل منهم بأحكام بسيطة ، وصححت المحكمة فى حيثيات حكمها بعض الدعاوى التى اشاعها السادات حول الاعداد المنسبقة من جانب الجماعات اليسارية ، فقالت المحكمة : ان ما تؤمن به المحكمة ويضمن اليه ضميرها ووجدانها الى تلك الأحداث الجسام التى وقعت يومى ١٨ و ١٩ يناير كان سببها المباشر والوحيد هو اصدار القرارات الاقتصادية برفع الأسعار ، ولا يمكن فى مجال العقل والمنطق ان ترد تلك الأحداث الى سبب آخر غير تلك القرارات ، فلقد صدرت على حين غرة ، وعلى غير توقع من احد وفوجئ بها الناس جميعا ، بمن فيهم رجال الأمن ، فكيف يمكن فى حكم العقل ان يستطيع احد ان يتنبأ بها ثم يضع خطة لاستغلالها ثم ينزل الى الشارع للناس محرضا ومهيجا !! ان فردا مهما بلغ من قوة ودراية وتنظيم ، ومهما كانت سرعته ودقة تخطيطه لا يستطيع ان يحرك هذه الجموع الحاشدة فى لحظات ، ثم هو لا يستطيع ان يدفعها لتقوم بأعمال الحرق والتخريب والنهب والاتلاف ، ذلك ان مثل هذه الأعمال الشريرة لابد ان يقع الكثير منها بحكم اندساس اللصوص والمنحرفين ليمارسوا نشاطاتهم فى ذلك الخضم الهائج آمنين مطمئنين الى أنه لن يمسك بهم احد ..

وجاءت حيثيات الحكم صفة للسلطات التى تعجز عن حل مشاكل الجماهير المستعصية فتلجأ الى تلقيق التهم الى خصومها ، واتهامهم بالاثارة والتحريض ، مع ان الجماهير ليست فى حاجة الى اثارة أو تحريض ، لأن المعاناة اليومية - فى حد ذاتها - أكبر مشجع على الاثارة والتحريض .

وهي نفس الغلطة التي توشك الحكومة الحالية ان تقع فيها
اذا سلمت باندعاوى الباطلة التي تطلقها بعض الاقلام لتحميل
المعارضة مسئولية (شحن) جنود الأمن المركزي ، وهي محاولة
فجة للتهرب من مسئولية الحل الجذري للمشاكل المتراكمة ..
والبحث عن الحل الاسهل ، وهو تعليق المسئولية في رقبة
المعارضة .

لقد فعلها أرباب النظام عندما عجزوا عن تفسير دوافع الهبة
الشعبية يومى ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ ، ثم جاء القضاء ليصحح
المفاهيم الخاطئة وراء تمرد جنود الأمن المركزي ، قبل الصاق التهم
بالمعارضة ، وتبحث الظروف الاجتماعية لهذه الشريحة الساكنة
فى قاع المجتمع .. ولكنها انتفضت فى اللحظة التى لم نتوقع لها
ان تنتفض فيها .

الفهرس

٥	• • • • •	تقديم
٩	• • • • •	غرباء •• لكن أمراء
١٣	• • • • •	الصعلوكة على عرش فرعون
١٧	• • • • •	فى الليلة الموعودة
٢١	• • • • •	تحريم التجنيد
٢٥	• • • • •	كذاب زفة
٣١	• • • • •	الشيخ نابليون
٣٧	• • • • •	عمدة الاسكندرية
٤٣	• • • • •	الشيخ صادومة
٤٩	• • • • •	مؤرخ الشعب
٥٣	• • • • •	العدل أساس الملك ...
٥٧	• • • • •	وجهها لوجه ...
٦١	• • • • •	الأفندية فى باريس
٦٥	• • • • •	نابغة الطب المصرى

٦٩	عاشق النهر الخالد
٧٣	أبو الاستبداد
٧٧	الأرستقراطية الحديثة
٨١	طوفان الفساد
٨٥	الكبرياء الوطنية
٨٩	الوطنية والخيانة
٩٣	اسماعيل .. الافريقى
٩٧	صعيدية من لندن
١٠١	عصر الشهداء
١٠٥	خير أجناد الأرض
١١١	يا بهيمة وخبرينى ... !
١١٥	طبائع الاستبداد ومصارع الاستعداد
١١٩	المستبد عدو الحق
١٢٥	الاستبداد أصل كل فساد
١٣١	تحرير المرأة المصرية
١٣٥	عبيد وجوار
١٤١	مصر الجديدة
١٤٧	سلطان المادحين
١٥٣	قصيدة الاستقبال

١٥٧	• • • • •	دنشواى الصغيرة •
١٦٣	• • • • •	نشأة الأحزاب المصرية •
١٦٦	• • • • •	حزب النبلاء والحزب الجمهورى •
١٧٥	• • • • •	جعانين يا فندينا •
١٨١	• • • • •	الحزب الاشتراكى المبارك •
١٨٥	• • • • •	الحزب القبطى •
١٩١	• • • • •	اخوان الوطنية •
١٩٥	• • • • •	شهيد حلوان •
١٩٩	• • • • •	الشيخ ١٣ يولية •
٢٠٣	• • • • •	يهودا المصرى •
٢٠٧	• • • • •	ثمن الخيانة •
٢١١	• • • • •	زملاء الكفاح القديم •
٢١٤	• • • • •	عندما ينقلب السحر على الساحر •
٢١٩	• • • • •	سعد أو الثورة •
٢٢٣	• • • • •	بنات الحور •
٢٢٧	• • • • •	مذبح الانجيليز •
٢٣٣	• • • • •	عافر رغم أنفها •
٢٣٩	• • • • •	محامى العظماء •

[illegible]

صدر من هذه السلسلة

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د. عبد العظيم رمضان
- ٢ - على ماهر
اعداد رشوان محمود جاب الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى
عليه عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر
لمعى المطيعى
- ٧ - صلاح الدين الأيوبى
د. عبد المنعم ماجد
- ٨ - رؤية الجبروتى لأزمة الحياة الفكرية
د. على بركات
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د. محمد أنيس

- ١٠ - توفيق دياب ملحة الصحافة الحزبية
محمود فوزى
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضى
- ١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير
د. نبيل راغب
- ١٣ - اكدوبة الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان
- ١٤ - مصر فى عصر الولاة
د. سيدة اسماعيل الكاشف
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. على حسن الخربوطلى
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى
- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د محمد نصر فرحات
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د. على السيد محمود
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د. أحمد محمود صابون

٢٠ - المواصلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمي
د. محمد أنيس

٢١ - التصوف في مصر ابان العصر العثماني ج ١
توفيق الطويل

٢٢ - نظرات في تاريخ مصر
جمال بدوي

العدد القادم

التصوف في مصر ابان العصر العثماني ج ٢

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧٥٣٢ / ١٩٨٨

ISBN ٨ - ١٩٦٢ - ٠١ - ٩٧٧ -

على الرغم من اعتقادي بأن التاريخ لا يكتبه إلا مؤرخون أكاديميون ،
درسوا منهج البحث العلمي التاريخي ، وتعلموا التاريخ وفقا لمنهج علمي
متخصص في أقسام التاريخ بكليات الآداب بالجامعات - إلا أن النصف
الأخير من القرن العشرين قد أبرز إلى عالم الدراسات التاريخية نخبة من
الكتاب والمفكرين ، الذين لم يتخرجوا من أقسام التاريخ ، ولكنهم أثبتوا
قدرتهم على الكتابة التاريخية المتعمقة ، بأسلوب شيق لا يتوفر لكثير من
المؤرخين الأكاديميين .

ومن بين هؤلاء الكتاب المؤرخين (جمال بدوي) ، مؤلف هذا
الكتاب ، فهو صحفي وكاتب ومفكر ذو رؤية تاريخية سواء في التاريخ
المصري أو التاريخ الإسلامي ، وقد سبق له أن قدم دراسة تاريخية هامة عن
« الفتنة الطائفية في مصر » ، كما أنه يقدم أسبوعيا على صفحات
جريدة « الوفد » - وهو مدير تحريرها - رؤية تاريخية لحدث من الأحداث على
اتساع مساحة تاريخ مصر والتاريخ الإسلامي ، وهي رؤية تشد اهتمام
القراء لما فيها من فلسفه وفكر وتأمل ، فضلا عما تكشفه من جوانب هامة قد
لا تستطيع عين المؤرخ تبين أهميتها في تكوين الضمير القومي ، ولكن عين
المفكر وحده هي التي تدرك هذه الأهمية ، وتستطيع توظيفها في تكوين
الشخصية القومية أو الوطنية .

ومن المحقق أن القارئ سوف يستمتع برؤية جمال بدوي التاريخية ،
وسوف يجوب معه تاريخ مصر من أقصاه إلى أدناه ، وسوف يشعر بتلك
المتعة الفكرية التي توفرها تلك السياحة الواسعة الشيقة التي قام بها في أرجاء
تاريخ مصر .

